سَــهَرُ الوَرْد

سهر الورد (رواية)

نضال الصالح (كاتب سوري)

الطبعة العربية الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan. publish@gmail. com

www. alaanpublish. com

لوحة الغلاف: الفنان طاهر البني

All rights reserved. No part of this book may be reproduced ،stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-494-8

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(1584/ 3/ 2022)

306

الصالح، نضال عبدالقادر

سهر الورد، نضال عبدالقادر. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(168) ص

ر. إ: 1584/ 3/ 2022

الواصفات: الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

نضَـال الصّالح

سَـهَرُ الوَرْد

رواية

1. مجمل النصوص الشعرية ممّا ينطوي تحت علامة "إشراق" هو للشيخ شهاب الدين السهروردي.

2. المعلومات الواردة حول الأماكن التاريخية في حلب والسيرة الشخصية للسهروردي هي من مؤلفات تزيد على ستين تمّت الإشارة إلى عدد منها في سياق السرد.

3. أيّ تشابه بين بعض الشخصيات والواقع هو أحد أمرين: محض مصادفة أحياناً، وعن سابق إرادة وتصوّر أحياناً ثانية.

الآن، أشتاقُ:

يحيى كما تشتاق أرضٌ مرهقةٌ باليباس مطراً يعيد إليها الحياة.

الشيخ شهاب الدين كما تشتاق طفلةٌ قبلةً من أبيها الغائب تعني لها الحياة.

حلبَ كما تشتاق حلبُ الحياة.

الآن، أشتاق أصابع يحيى، رعشَ صوته وهو يطلق عصافير شغفه من أقفاصها بعد كلّ ملحمة للخصب كنّا نسرقها على غفلةٍ من الموت الذي كان ينشبُ مخالبه في جسد حلب. يحيى الذي ظلّ، طوال ما مضى من الحرب، يرفض مغادرة حلب وكانت لازمته لي:

- يحيا يحيى في حلب.

إشراق (1)

يا مليحاً قد تجلّى	**فيه أهلُ الحيّ هاموا**
سيّما لمّا تحلّى	**وحلا فيه الغرامُ**
قلتُ لمّا لاح يجلى	**و انجلى عني الظلامُ**
هكذا العيشُ وإلا	**فعلى الدنيا السلامُ**

كأنّ الريح (1)

لم تكن تحتي فحسب، بل من جهاتي جميعاً، ولم أكن مثل المتنبي أحرّكها يميناً أو شمالاً، بل كانت تعبث بي كما تعبث بقشّة ناحلة في أرض مزدحمة بحصى حادّة الحوافّ، ما إنْ كانت تنجو من نصل حصاة، حتى كانت ترتطم بنصل أخرى، وهي تحشرج بما كان المتنبي قال قبل ما يزيد على ألف سنة: على قلقٍ كأنّ الريح تحتي...

تلك هي حكايتي مع الحياة، بل ما يكثّف حكايتي معها منذ غادرتُ رحم أمّي قبل أربعين سنة إلى هذه الساعة التي أكتبُ فيها على ضوء شمعة طاعنة في الذبول، في ممرّ ضيّق أحتمي به من الموت الذي لم يعرف إغفاءة قصيرة له منذ أوّل رصاصة في لظى هذا الجحيم الذي تعرفين وأعرف ويعرف أهل حلب جميعاً.

بأيّ مفردة من مفردات الريح أبدأ؟ بالآلام المبرّحة التي كابدت أمّي وهي تدلقني من

بطنها لأنّني استعصيتُ على القابلة وهي تحاول الإمساك برأسي، وكنتُ، كما حكتْ أمي لي، أعاند كفّيها اليابستين كغصنيّ شجرة عجوز؟ من الفقر الذي فتحتُ عينيّ عليه لأنّ أبي لم يكن يملك من أسباب الحياة سوى ما يكفي لنصف يوم من الحياة؟ بالغرفة الصغيرة والوحيدة التي رأيت فيها النور أول مرة، والمزدحمة بخمسة أجساد صغيرة، عدا أمي وأبي، الغرفة التي كان جدّي لأمي منحها لنا في داره الواسعة ليحفظ لأمي كرامتها بعد أن ضاق الحال بصهره الذي كتبتِ السماء عليه أن يطارد اللقمة بقوّة سلحفاة وتركض اللقمة أمامه بقوّة حصان؟ باليوم الذي دخلتُ فيه إلى المدرسة أول مرة وأنا أحمل دفاتري وكتبي في كيس من النايلون بدلاً من حقيبة، فجحظت عيون المعلمين والتلاميذ نحوي كما لو أنهم رأوني عارياً كما ولدتني أمي؟

عن أيّ شيء؟ وبأيّ مفردة من مفردات الريح التي وجدتُ نفسي في مهبّ عصفها وعسفها منذ أوّل صفعة تلقيتُها من معلّم الصف الأول لأنني لم أترك سطراً فارغاً في دفتر الوظائف، ولم يكن المعلّم يعلم أنّني أفعل ذلك لكي أجنّب نفسي صفعات أشدّ قسوة، صفعات أبي التي كانت تتساقط على وجهي عندما كنت أطلب منه ربع ليرة لأشتري بها دفتراً جديداً؟ منذ تلك الصفعة التي تلقيتها من صاحب المحلّ الذي دفعني أبي إليه في العطلة الصيفية لأحصل على بضع ليرات في الأسبوع لأنّ كأساً سقط من يدي، فتحوّل على الأرض هباء زجاج، فالثانية التي سقطت على عنقي بدلاً من وجهي لأنني تأخرت في الاستجابة لطلب أحد الزبائن، فالثالثة...؟ إلى صفعات ليست بالأيدي، بل بالغيرة والنميمة والحسد وبالتوهّم، توهّم المسوخ والأشباه والمتعالمين، بأنّني جئت إلى هذا العالَم لأزاحم ملّاكه، في الحياة والعلم والمناصب، ولم يكن يعنيني من ذلك شيء، بل أن أكون نفسي، لا تابعاً لأحد، أو مريداً في حلقة أحد، أو موظفاً عند أحد؟ إلى أخرى بالدسائس والمكائد والمَحَاضر لأنني لم أسبّح بحمد قَزَم، أو أحجّ إلى مكتب مسؤول، أو أتبرّك برذاذ فاسد.

سأكتبُ. سأحكي حتى يصرخ الشيخ شهاب الدين بي أن أتوقّف عمّا تُعول روحي به من أطراف الحكاية، فتتوقف عيناه عن صخبها المعهود بدمع يتأبّى على السقوط كلّما شكوتُ له ما تفعله الريح بي، عصفها، وعسفها، وجنونها، وشهوتها المحمومة لأكتفي

من الحياة بما يكتفي به معظم البشر، ولأردّد معهم المثل القائل، ما فصيحه: اليد التي لا تستطيع كسرها، قبّلها، وادعُ عليها بالكسر.

اليد التي تكسر يداً أخرى غيرها، لأنّ الثانية لا تسرق، ولا تدبّج المدائح لمسؤول هنا وآخر هناك، ولا تكتب مذكرات زيفاً، ولا تقلب الحقائق، ولا تصنع جداول بيانية لا رصيد لها في الواقع. اليد التي تكسرُ يدَ مَن يشبهكِ، ويد مَن يشبهني، فتزداد بدانة وتورّماً وطولاً بدلاً من أن يتم كسرها هي. اليد التي لا تثنيها قيمة، أيّ قيمة، عن الإمساك بالقلم، أو الحمحمة فوق لوحة المفاتيح، فتكذب، وتزيّف، وتبطش بكلّ مَن لا يقبّلها. اليد التي ازدادت تغوّلاً، وتوحّشاً، وبربرية، في السنوات التي مضت من الحرب، بدلاً من أن تتطامن، وتتقزّم، وتتصاغر أمام عصف الأحزان والآلام والفاجعات في غير مكان من البلاد.

تلك هي الحكاية، بل المركز الذي تنداح من حوله حكايات.

* * *

سهر الورد (2)

هذه الرواية نصفُها، أو يزيد، كتبها يحيى بنفسه، بذوب روحه ومشاعره وصدقه مع نفسه ومع الحقيقة كما قال لي قبل أن أسافر. كنتُ، كلّما قرأت جديداً ممّا اختار علامة له بنفسه، كأنّ الريح، ازددتُ يقيناً بأنّ ثمّة روائياً هاجعاً فيه، وشاعراً أحياناً، وبأنّه لو شاء أن يكتب رواية، فإنّ ذلك لن يُعجزه، وسيلفت الأنظار إليه مع أوّل رواية تصدر له مهما كان من أمر الاختلاطات الكثيرة التي تنهش الحياة الثقافية في البلد، شأن كثير ممّا ينهش البلد نفسه، والتي لم تسلم من أذاها الروايتان اللتان صدرتا لي من قبل لأنني، كما قال صديق خبير بدهاليز الثقافة وأنفاقها، لم أحسن تسويق نفسي بوصفي أنثى قبل صفتي كاتبة، ولاسيما بعض النقاد والإعلاميين الذين، حسب قوله، يمكن شراؤهم بثمن بخس، ابتسامة، غمزة عين، فنجان قهوة في مكان عام، وعد بلقاء محموم بالأنفاس اللاهبة.

يحيى طفلٌ في الأربعين من عمره، نقاءَ روح ومشاعر وعلاقة بالتفاصيل حوله على الرغم من أنّ وجهه وإيقاع صوته وحركة يديه وهو يتحدث تقول نقيض ذلك، تقول بإعجابه بنفسه حدّ الغرور كما بدا لي في لقائي الأول به في مركز الأبحاث والدراسات الذي نُقلتُ إليه بعد تقرير كيديّ لعميد الكلية، ليس فيه كلمة واحدة يمكن نسبتها إلى الحقيقة، تقرير ينتهي إلى أنّ بقائي في الكلية يشكّل خطراً على الطلاب، والطالبات بالطبع، لأنني أستقبل الكثير منهم، ومنهن، في مكتبي بعد كلّ محاضرة، وأدير معهم حوارات ليس الجامعة مكانها بتعبيره.

قبل أربع سنوات، وبعد أن سلّمتُ مدير المركز قرار النقل، وسألني فيما إذا كنت نفسي الكاتبة التي يقرأ لها في الصفحة الأخيرة من الصحيفة المحلّية، وأجبته بيتيمة، نعم، رفعَ سمّاعة أحد الهواتف الهاجعة فوق مكتبه وإلى جواره، واكتفى بالقول:

- دكتور يحيى تفضّل إلى مكتبي إذا سمحت.

ولم يكد يحيى يدخل، وينهي تحيته للمدير، ولم يكد الأخير يدعوه إلى الجلوس في مواجهتي، ويقول:

- الدكتورة ورد الصقال.

ثمّ يكمل تعريفه بي:

- أستاذة في كلية الآداب سابقاً وباحثة في مركزنا منذ اليوم.

ثمّ يضيف:

- وبعهدتك.

حتى اكتفى يحيى بكلمتين مع حركة باهتة من رأسه:

- أهلاً دكتورة.

في المكتب الذي صحبني يحيى إليه لم أر سوى طاولة صغيرة واحدة وكرسي واحد وخزانة خشبية واحدة، ثمّ قال وهو يومئ بيمينه إلى الكرسيّ:

- ريثما أتدبّر طاولة وكرسياً خاصين بك.

ثم غادر المكتب، وكنتُ خلال غيابه أتفحص العراء الذي يلفّ المكتب من جهاته كلّها، ولا سيما الخزانة الهرمة والخاوية من أيّ شيء يومئ، ولو إيماء، إلى أنني في مركز

للأبحاث والدراسات كنتُ أفترض أنه يصخب بالحياة.

- ربع ساعة على الأكثر ويكون كلّ شيء جاهزاً.

قال يحيى وهو يدخل المكتب، وكنت منشغلة عنه بلعن الساعة التي اتخذتُ فيها قراراً بالعودة إلى البلد فور حصولي على شهادة الدكتوراه بدرجة الشرف، ورفضتُ العرض الذي قدّمته الجامعة لي بالبقاء فيها بصفة باحثة أنثروبولوجية ومتابعة للرسائل والأطروحات التي يعدّها الطلاب العرب فيها، براتب مغر وسكن وبطاقة طائرة مجانية كلّ سنة إلى الدولة التي أرغبُ فيها، بالإضافة إلى المشاركة، باسم الجامعة، في المؤتمرات العلمية الدولية.

قلت:

- شكراً دكتور.

ولم أكد أتمّ العبارة، حتى انفرجت شفتا يحيى عن ضحكة ذابلة فيهما، وعيناه عن وجع باهظ يكتوي به، وحتى قال وهو يحاول لجمَ ضحكته عن الجهر بنفسها أكثر:

- مغضوب عليها جديدة في المركز.

فأسرعتُ إلى السؤال:

- مع مغضوب عليه أيضاً؟

اكتفى بحركة باهتة من رأسه كما سأعتاد منه كلّما كانت روحه تبلغ أعلى سماء لها من اليأس، حركة لم تكن تعني رداً عن سؤالي بالإيجاب فحسب، بل، أيضاً، تلجم وراءها غصّة، بل غصصاً كما سأعرف فيما بعد، عن الجهر بنفسها، فأسرعتُ إلى القول وأنا أرغم ابتسامة زائفة على الولادة بين شفتيّ:

- مغضوبان في مكان واحد.

وأتبعتُ الجملة بثانية:

- في مكان يبدو زيفاً مركزاً للأبحاث والدراسات.

لم يقل يحيى شيئاً معقّباً على عبارتي الأخيرة التي توقّعت أن تستنفر رغبة مكبوتة لديه في دفع حمل ثقيل عن روحه، بل تابع تقليب الكتاب الذي كان أمامه على الطاولة، ثم طواه، وقال:

- دكتورة، يمكنكِ أن تنصرفي إذا شئتِ، وتأتي غداً.

وأضاف، وهو يلجم صوت رنين جوّاله:

- كما ترين، لا عمل.

- أفضّل البقاء حتى نهاية الدوام.

وتابعتُ وأنا أمسح الطاولة العجوز التي تركها المستخدم كما كانت عليه في المستودع متخمة بالغبار والعفن:

- ربّما يطلبني المدير.

عادت شفتا يحيى إلى استطالتهما عن ضحكةٍ توءمٍ للتي سبقتها، وعيناه إلى ثنيّة الوجع المغلول خلفها، كما بدا لي، بسلاسل ثقيلة، وقال وهو يغلق الكتاب الذي كان مفتوحاً على مصراعيه أمامه:

- أقدّرُ أنه غادر المركز الآن.

ثمّ نظر إلى ساعة يده، وأضاف:

- هذا هو توقيت مغادرته المركز كلّ يوم.

وقبل أن أجهر بما كان يزدحم في رأسي من الأسئلة عن غير شأن ممّا كنتُ أفكّر فيه، ولاسيما الأبحاث والدراسات التي أنجزها المركز في مجال اختصاصي، والمؤتمرات التي أقامها، أو تمثيله الجامعة في مؤتمرات خارج البلد، تابع يقول:

- لن يطلبكِ.

- هل يضايقك وجودي إلى هذا الحدّ؟

دفعتُ بالسؤال بغضب واضح، بل قصدتُ أن يكون واضحاً بعد أن تعددت إيماءات يحيى لإيصال رسالة إليّ بأنني شخص غير مرغوب فيه لأنه سيشاركه المكتب الذي كان ينفرد فيه بنفسه، وأضفتُ:

- أعدكَ دكتور بألا تكون إقامتي هنا طويلة.

ولم أمهله ليقول شيئاً وقد صخب وجهه بما يجهر بتحفّزه لذلك، بل تابعت وأنا أهمّ بمغادرة المكتب:

- أستحقّ.

وكنت أعني ما لحق بي بسبب اختياري العودة إلى الوطن، وما كنتُ أتوقّع، فور حشرجتي بالكلمة وعيناي تغرورقان بالدموع، أن يقفز يحيى من وراء مكتبه، ويُهرع إليّ، ثمّ يمسكني من يدي، ويقول بصوت باذخ الرقّة:

- دكتورة، لم أكن أقصد.

وعندما انتبه إلى نفسه ممسكاً بذراعي، أفلت يده منها، وتابع يقول بصوت أكثر رقّة:

- لم أكن أقصد.

كأنّ الريح (2)

خمسة بعيون الشيطان كما كانت أمّي تردّد دائماً وهي تجيب مَن يسألها عن عدد أولادها: ياسر الذي سبقني إلى الحياة بستة أعوام، ويعرب الذي تلاه بعامين، وياسمين التي ولدت بعده بعامين أيضاً، فيُمنى التي سبقتني بدقائق، وأنا.

أمّي ابنة واحدة من أكثر الأسر شهرة في الغنى والجاه، وأبي ابن واحدة من أكثر الأسر شهرة في الكفاف والستْر. تحدّتْ أمّي إرادة أسرتها برفض زواجها منه لأنه لم يكن لديه ما يكفي من الحياة لنفسه، أحبّته؟ أجل كان ذلك وحده ما دفعها إلى خيارها الذي كاد يكلّفها حياتها كما حكت لي ذات يوم. تصوّري أن يحدث هذا قبل نحو نصف قرن من الآن، أن تحبّ فتاة من أسرة ثرية، بل شديدة الثراء فتى فقيراً، بل تحت خطّ الفقر بدرجات، وتتحدّى أسرتها، وتتزوج منه.

أحبّته، وتزوجته، وصبرت معه على ما كتبت له السماء من أن يمضي حياته وهو يطارد القرش والقرش يهرب منه، وكان يقينها بأنه ما مِن طوق نجاة للأسرة بغير أن نكمل، نحن الخمسة، دراستنا حتى حصولنا على شهادات تمكننا من الالتحاق بوظيفة، فتتمكن حياة الأسرة من الوقوف على قدميها بعد أن كابدت الوقوف على رأسها طويلاً، وتثبتُ، أعني أمي، لأسرتها، أنّ الفقر ليس عيباً، بل العيب في أن يستسلم الإنسان له، وفي الناس الذين ينظرون إلى من هم دونهم في المُلك باستعلاء.

لم تستجب السماء لدعوات أمي، لتضرّعها الدائم إليها، بأن نتابع جميعاً دراستنا

حتى الحصول على الشهادة الثانوية على الأقلّ. لم يكن أمام المكتوب لأبي في اللوح المحفوظ، بتعبيرها، سوى أن يغادر ياسر مقاعد الدراسة بعد نيله الشهادة الإعدادية، فيلتحق بمعمل لصناعة الأقمشة يملكه خالي الأكبر، مصطفى، ولولا ذلك لما كان ممكناً لأحد منا أن يكمل دراسته.

كان ياسر يعود بأجرته الأسبوعية من عمله، فيعطي نصفها لأمّي، ويترك ربعها لنفسه، ويوزّع الربع الأخير بالتساوي بين أربعة، يعرب وياسمين ويمنى وأنا. أنقذنا عملُه، وعملُ أبي المتقطع، مما كنا نعاني من شظف العيش، من الخبز المنقوع بمغلي الشاي الذي فتحنا عيوننا عليه، وفيما بعد حصولي على الشهادة الثانوية، أخذت أعتمد على نفسي فيما أحتاج إليه خلال دراستي الجامعية. لم أدع مهنة لم تتضرّج بها كفّاي خلال العطل الصيفية حتى حصلت على الإجازة في الهندسة المعمارية بتفوّق كان سبباً في إيفادي إلى مصر للحصول على شهادة الدكتوراه في ترميم الآثار لصالح هذا المركز الذي سرعان ما اكتشفتُ أنه مقبرة أعدّت لالتهام الأحياء.

كتبتُ لكِ كثيراً هذا اليوم، ولديّ الكثير ممّا لم أكتبه، وأعدكِ بأن أفعل في حال لم ألحق بمن سبقني من أبناء حلب إلى الموت بسبب هذه الحرب، بتفجير، أو قذيفة، أو طلقة من قنّاص قيل له إنّ كلّ رصاصة من بندقيته تقرّبه إلى الجنّة، وتزيد من عدد الحور العين اللواتي يتهيئن، منذ وطئت قدماه أرضنا، لاستقباله. الحور اللواتي يصفهن كتَابُنا، نحن المسلمين، كأمثال اللؤلؤ المكنون، وكأنهن الياقوت والمرجان، والقاصرات الطرف، والأبكار والعُرب الأتراب، وفيهن خيراتٌ حِسان، والأزواج المطهرة، وأحاديث نبيّنا بأنّ المؤمن في الجنّة يرى مخّ سوقهنّ من وراء العظم واللحم بسبب حُسنهن، وبأنّ الواحدة منهن لو اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينها وبين السماء، ولملأتْ بينهما ريحاً، وبأنّ النصيف الذي على رأسها خيرٌ مِن الدنيا وما فيها.

بالمناسبة، وقبل أن أختم رسالتي هذه، اكتشفتُ وأنا أقرأ إنجيل مرقس هذا اليوم أنّ السيد المسيح لم يذكر المرأة عمّا ينتظر أتباعه في الأبدية عندما قال بطرس له: "ها نحن قد تركنا كلّ شيء وتبعناك"، واكتفى بذكر كلّ ما كان عدّدَ له من قبلُ سواها. هل هذا حقيقيّ؟ أيّ حوريّة، حوريّات يمكن أن تكون بعضاً من بعضك؟ كيف لي أن

أكتمل، هنا أو في الأبدية، وأنتِ لستِ معي؟ أيّ معنى لأيّ فردوس لستِ فيه ومنه؟

* * *

سهر الورد (3)

استجبتُ، أخيراً، لطلب يحيى بالعودة إلى المكتب، وكنتُ أتابع حركته وهو يعدّ القهوة بنفسه على سطح المدفأة الصغيرة القريبة من الباب، ولا سيما حرصه الذي بدا واضحاً على نظافة كلّ شيء، دلّة القهوة قبل أن يسكب الماء فيها، والفنجانان وصحناهما، فالصينية الصغيرة التي تكاد تضيق بالثلاثة.

- أنا هنا منذ سنة، وجدتُ نفسي هنا بقرار مفاجئ من رئيس الجامعة السابق، وعلمتُ بالسبب الذي دفعه إلى اتخاذ هذا القرار بعد يومين من صدوره، ولا بدّ أنّ قرار نقلك كان للسبب نفسه كما أقدّر. ستتضايقين في الأيام الأولى لوجودك هنا، ولكن بعد ذلك ستعتادين كما اعتدتُ، بل كما أرغمتُ نفسي على الاعتياد مقنعاً نفسي بأنّ حبل الخطأ قصير.

كنتُ أكتفي بالإصغاء إلى يحيى، وثمة أسئلة كثيرة تصخب في رأسي عن غير شأن في هذا العالم المتخم بالخطأ، بل بالأخطاء، من ذروة رأسه حتى أخمص قدميه، ومن ذلك أنني هنا، في هذا الخواء الذي يُسمّى مركزاً للأبحاث والدراسات وفي هذا المكتب، من دون إرادتي، بل على نحو لم أكن أتوقّع أن يحدث يوماً، ولا سيما أنني حرصت طوال حياتي على تجنّب أيّ قول أو فعل مثير لشبهة الخطأ، لا الخطأ نفسه، وأنّه لم يكن يعنيني، طوال حياتي أيضاً، سوى شيء واحد، هو أن أكون نفسي من دون أن أسبب أيّ أذى لأحد.

قال يحيى وهو يقدّم فنجان القهوة إليّ وعيناه تسترقان النظر إلى الصليب المذهّب وسط سلسال قصير يسوّر عنقي:

- **تعالوا إليّ يا جميع المُتعبين والثقيلي الأحمال و أنا أريحكم.**

وضعتُ فنجان القهوة على الطاولة أمامي، وقلتُ وأنا أمسك الصليب بذؤابتيّ

أصبعين من يميني:

- هدية أمّي منذ كنت في الرابعة عشرة من عمري.

- **أنا نورُ العالَم، مَن يتبعني لا يمشي في الظلمة أبداً.**

تابع يحيى يقول وعيناه معلّقتان بالصليب، ثمّ أضاف:

- النور، الظلمة، الضدّان المحكومان بالصراع حتى يشيخ هذا العالَم، ثمّ يهرم، ثمّ يموت.

الأسئلة التي كان رأسي يضج بها قبل أن يقدّم يحيى فنجان القهوة إليّ، وألجمَها صوته وهو يستعيد نداء المخلّص إلى المُتعبين، صارت غابة من الأسئلة وهو يمضي إلى قول آخر، ثمّ وهو يُتبع القولين بما يستنفر من جديد إحساسي بالقهر بسبب قرار نقلي إلى مكان متخم بالعطالة استجابة لتقرير متخم بالأكاذيب، ومن دون أيّ سؤال لي عمّا ورد فيه، ومن قبلُ بغير سبب، بل بعشرات الأسباب التي وجدتُ نفسي في مواجهتها منذ تجرأت، أول مرة، وسألتُ ذلك السؤال الذي دفع أبي وأمي، وميخائيل ولجين، شقيقيّ، إلى تبادل النظرات فيما بينهم لكأنني أرتكب خطيئة لا تليق بأحد من أفراد الأسرة التي لم تغب مرة واحدة عن الصلاة في الكنيسة كلّ أحد، وتسلّم بكلّ ما جاء في الأناجيل من حكايات، وتملأ جدران الغرف بأيقونات للسيد المسيح والممتلئة نعمة وبصور لمار جرجس وهو يصارع التنين.

ولم أكد أستردّ إحساسي بالمكان والزمان اللذين كنتُ انفصلتُ عنهما هائمة على وجهي في صحراء القهر، وحافية تنهشُ قدميّ أشواكٌ وحجارة مثلمة وتراب كالجمر، حتى أعادني يحيى إليهما من جديد عندما قال:

- **ها أنا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب، فكونوا حكماء كالحيّات وبسطاء كالحمام.**

غنم، ذئاب، حيّات، حمام. مأمأة، عواء، فحيح، هديل، اختلطت الأصوات في رأسي كما كانت تختلط دائماً كلّما وجدتُ نفسي في مواجهة جديدة مع عالَم لا أفهمه، عالَم مرهق بالدنس، بالخطايا، بالآثام، لا تلك التي تعني ما تعنيه في الأناجيل، بل التي تلوّث هذا العالَم بالمزيد من الحروب والدماء والخراب في غير مكان منه، والتي يبدو

معها وبسببها غابة بالمعنى الحقيقي للكلمة لا المجاز وحده، غابة يتكاثر فيها أحفاد يهوذا، وبروتس، وأبو رغال، وابن العلقميّ، و.. ويتناسلون بأسماء أخرى، ويتعددون بهيئات أخرى، ويثخنون الحياة بحقول الدم.

- أرجو أن تكون القهوة أعجبتكِ.

أوقفَ صوتُ يحيى هدير الأصوات في رأسي، فقلت:

- معك حقّ، أعتذر، لم أقل: دايمة.

- لا، لا أقصد، فقط أردت أن أطمئن.

أرغمتُ ابتسامة خائرة القوى على الظهور بين شفتيّ، وقلتُ:

- اطمئن دكتور، قهوة لا يستطيع إعدادها سوى سيدة محترفة.

كنتُ أعني ذلك حقاً، لأنني أتيت على الفنجان حتى الثمالة منه، ولم أفعل ذلك من قبل سوى ما كنت أعدّه بنفسي، وأضفتُ وأنا أبتسم حقيقة:

- تحفظُ أقوالاً من الأناجيل، وتصنع قهوة ممتازة. طوبى لزوجتك بك.

- **طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله.**

وبينما هو يقول ذلك كانت عيناي تتفحصان كفّيه باحثة عن خاتم فيهما، ولا أدري كيف أمسك بي وأنا أفعل ذلك، فقال:

- ما يزال الوقت مبكراً.

ليلاً لم أعرف طعماً للنوم، كنتُ أتقلّب على جمريْن بآن: جمر الإحساس الفادح بالندم لأنني رفضتُ عرض الجامعة التي حصلتُ منها على شهادة الدكتوراه، فرميتُ بنفسي إلى هذا القاع الذي لم أكن أتوقع أن يكون ممتلئاً إلى هذا الحدّ من الذئاب والأفاعي التي تتربّص بأنيابها وسُمّها بكلّ مَن تسوّل نفسه له بأن يكون جديراً بالشهادة التي يحملها، فالجمر الذي أضرمه يحيى في رأسي وهو يتلو الآية تلو الآية من غير إنجيل وهو المسلم كما يجهر اسمه وكنيته بذلك.

ولم يكن جمر يحيى بسبب ذلك فحسب، بل بما كان يلحّ عليّ أيضاً طوال طريق عودتي إلى البيت، صورته وهو يمسك بذراعي ويدعوني إلى العودة إلى المكتب، ثمّ وهو يعدّ القهوة، ثمّ وهو يسترق النظر إلى الصليب الذهبي، فصوته وهو يتحدث، ثمّ وهو

يدفع إليّ ببطاقة صغيرة تحمل اسمه ورقم هاتف منزله ورقم جواله عندما استأذنته في المغادرة، ويقول:

- اتصلي بي في حال أردتِ التأخر عن الدوام أو الغياب، وأنا أتصرف.

ولم أنتظر لأتأخر أو لأغيب، بل هُرعت إلى حقيبتي، وأخرجت البطاقة، واتصلت، على الرغم من أن الساعة كانت تجاوزت منتصف الليل، وعلى الرغم أيضاً من أنني كنتُ أقدّر أنه لن يرد على رقم يجهل مصدره، ولا سيما أنه فعل ذلك أمامي عندما ألجم صوت رنين هاتفه لأنّ اسم المتصل لم يكن محفوظاً لديه كما قال، ولا أعرف لماذا فعلتُ ذلك، أيّ شيء دفعني إليه، لماذا لم أتردد وأنا أمضي بإصبعي من رقم إلى رقم فوق لوحة مفاتيح الهاتف.

اتصلتُ.

- أهلاً دكتورة ورد.

قال ذلك قبل أن أنبس بحرف، قبل أن يسمع صوتي، وتابع قبل أن أتحرّر من وقْع الدهشة:

- **روحُ الإنسان تحتمل مرضه، أمّا الروح المكسورة فمَن يحملها؟**

ثمّ ساد صمت، كنتُ، خلاله، أستعيد اللحظة التي قرأتُ فيها تلك العبارة في سِفْر الأمثال، ولم يمهلني يحيى لأتذكر الكثير، فقد أضاف:

- **الشرّير تأخذه آثامه، وبحبال خطيئته يُمسك.**

أطلقَ المثل لساني من الحبل الذي كان التفّ حول عنقي بسبب مفاجأة يحيى، أعني ترحيبه بي من دون أن يسمع صوتي ومن دون أن يكون رقم هاتفي محفوظاً لديه، فقلتُ:

- أتؤمن بهذا؟

- يجب أن نؤمن، الإيمان طهارة، خلاص لأرواحنا من شرور العالم، يقين بأنّ حبل الشرّ قصير. في قرآننا: **قد أفلحَ المؤمنون.**

ثمّ، بغتة، اختفى صوته، حاولتُ إعادة الاتصال غير مرة، وكنتُ أرتطم باللازمة نفسها: الرقم المطلوب غير متاح، قد يكون الهاتف مغلقاً أو خارج نطاق التغطية.

إشراق (2)

يا أيّها البَرق الذي تَلمعُ

مِن أيّ أكنافِ الحِمى تَسطعُ

كأنّ الريح (3)

نقْرٌ خفيفٌ على زجاج النافذة، ثمّ تنفتح النافذة بنفسها على الرغم من أنني كنتُ أحكمتُ إغلاقها كما أفعل دائماً قبل أن آوي إلى فردوس النوم الذي يتأبّى عليّ طويلاً حتى يسمح لي بالدخول إليه.

أحكمتُها خوفاً من أن يتسلل طائر أو زاحف إلى الغرفة، فيكون ما كان ذات ليلة قبل نحو خمس عشرة سنة، ليلة باهظة البرق والرعد والريح والمطر، وجدتُ نفسي فيها ممدداً على سرير في المشفى الوطني إثر لدغة من أفعى سامّة زحفت من حديقة البيت إلى الغرفة، ولولا ياسر ويعرب لكنتُ فارقتُ هذه الفانية قبل ما يزيد على عشرين سنة من الآن.

لم أكن بلغتُ أبعدَ ممّا وراء الباب الأول من الفردوس، حتى عدت القهقرى كمن وجدَ وراء الباب ريحَ جحيمٍ لا عطر فردوس، ولاسيما أنّ صوت صرير النافذة كان يزداد صخباً في أذنيّ. فتحتُ عينيّ على آخرهما، ثمّ لم أكد أنهض لأعيد إغلاق النافذة، حتى سمعتُ صوت رجل يناديني باسمي، يحيى.

كان الصوت خفيفاً إلى درجة لا يمكن لأحد سماعه سواي، وكنتُ غادرت السرير تماماً، ولكن لم تكد يدي تبلغ قبضة النافذة، حتى عاد الصوت أكثر وضوحاً، وحتى أخذت أتلفت باحثاً عن مصدره، ولمّا لم أجد أحداً قدّرتُ أنّي كلّفتُ جسدي من السهر ما لم يقوَ على احتماله مأخوذاً بالكتاب الذي كان بين يديّ، وأنني بسبب ذلك بلغتُ درجة من الإنهاك صرتُ معلّقاً معها بين ضدّين: اليقين والتوهم.

- يحيى.

وأنا أتدثر بالغطاء عاد النداء نفسه، وأكثر قرباً مني، فاستجمعتُ ثباتي، وأجبتُ بصوت ساخر موهماً نفسي وصاحب الصوت بأنني رابط الجأش:

- نعم.

فسمعتُ:

- يحيى بن حسيب بن حسن الحلويّ.

رميتُ الغطاء بسرعة، ثم هُرعت إلى مفتاح المصباح، وعندما أضاء الأخير لم أرَ أحداً، ورأيت النافذة كما أغلقتها. تناولت كأساً من الماء، ثمّ عدتُ أقلّب صفحات الكتاب الذي لم أستطع تركه قبل أن أبلغ الصفحة الأخيرة منه، فوقعت عيناي على ورقة لم أكن رأيتُ فيه من قبل، ورقة مكتوب فيها بحبر أسود:

من يحيى بن حبش بن أميرك إلى يحيى بن حسيب بن حسن الحلوي، أمّا وقد بلغك النداء، فقمْ، وتوضأ، وامضِ إلى مرقد شيخ الحنفية في حلب، افتخار الدين الهاشمي، في تربة مقام إبراهيم الخليل، وقلْ له إنّ شهاب الدين السهروردي يقرئك السلام، ويقول لك إنّ ريحاً صرصراً ستأتي على حلب، وسيخرج من غبارها خراب ودماريلتهم أكثر المدينة، والحلوية منها، فليدفعْ، ومريديه، الأذى عنها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

كنتُ أمضي من حرف إلى حرف، ومن كلمة إلى كلمة، وأتلفت حولي في الغرفة، وأتلمس وجهي، وأمسح على جبيني، وأتثبتُ من ضوء المصباح، ومن النافذة المغلقة بإحكام. كان كلّ شيء كما كنت أرى، الكتاب الذي لم تكن الورقة فيه عندما أغلقته وحاولت النوم، وكأس الماء الذي شربت، والورقة نفسها وهي ترمقني بحبرها الأسود الذي كانت رائحته تنفذ إلى أنفي كما لو أنه خارج لتوّه من دواة.

أعدتُ قراءة الورقة غير مرة، واستعدتُ اسماً بعينه فيها، السهروردي، الاسم الذي أعرفه تماماً، وكنتُ عرفتُه أوّل مرة قبل ما يزيد على ثلاثة عقود. كنت بصحبة أمّي وأنا في نحو التاسعة، وكان من بعض شغفي أن أقرأ كلّ ما تقع عيناي عليه في الطريق. لم نكد، أمّي وأنا، نبلغ أوّل بوّابة القصب، حتى قرأت: مسجد السهروردي.

المؤيّد بالملكوت (1)

أو الشيخ المقتول، أو الشهيد، أو الحكيم، أو الفيلسوف، أو صاحب السيمياء، أو شيخ الإشراق...

في عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة الذي كان من أوائل مَن ترجم له قوله: "كان أوحدَ في العلوم الحكميَّة، جامعاً لفنون الفلسفة، بارعاً فِي

أصول الفِقه، مُفْرط الذّكاء، فصيح العبارة، لم يناظر أحداً إلَّا بزَّه، ولم يُباحث مُحصلاً إلَّا أربى عليه". وفي إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموي: "كان أديباً شاعراً حكيماً متفنناً نظّاراً لم يناظره مُناظرٌ إلا خصمَه و أفحمه".

يحيى بن حبش بن أميرك، أبو الفتوح، أمّا شهاب الدين فهو لقبه. ولدَ في السنة التاسعة والأربعين بعد المئة الخامسة للهجرة، الرابعة والخمسين بعد الألف ومئة للميلاد، في بُليدة سُهْرَوَرْد التي تقع في الشمال الغربي من فارس، في الطريق بين همذان وزنجان إلى الجنوب من سلطانية، والتي وصفها ابن حوقل في كتابه صورة الأرض برغد العيش، وحُسن المكان، وخصب الناحية.

في العاشرة من عمره أرسله والده إلى مراغة ليتلقى أصول الحكمة والفقه على يدي الشيخ مجد الدين الجيلي، شيخ الإمام فخر الدين الرازي. وفي مدرسة الجيلي درسَ القرآن والحديث، وقواعد النحو والصرف، والفقه والأصول والمنطق والفلسفة، وتعرّف إلى فخر الدين الرازي، وجرت بينهما محاورات ومساجلات.

من مراغة مضى إلى أصفهان، فدرسَ على يدي الشيخ ظهير الدين القاري، وتعمّقَ في الفلسفة والمنطق، وقرأ البصائر النصيرية في المنطق لعمر بن سهلان الساوي، التي هي تلخيص لمنطق الشفا لابن سينا، فبعض كتب ابن سينا نفسه، وترجمَ كتابه رسالة الطير إلى الفارسية، وبدأ بكتابة أوّل تآليفه: بستان القلوب.

بعد أن أنهى تعليمه الأول في أصفهان بدأ التجوال في غير مدينة في بلاد فارس، بحثاً عن الحكمة والحكماء وأهل الذوق والعرفان، ثم أقام في قلعة آل موت التي كانت تغص بالدعاة العلماء الذين يلقون الدروس العقلانية في مدرستها العرفانية، وفيها تلقّى الكثير من علوم التأويل والفلسفة.

* * *

سهر الورد (4)

لم يكن يحيى كما غادرته، كما لم يكن صوته كما سمعته يتحدّث عندما اتصلت به بعد منتصف الليل. كان وجهه ممتلئاً بغير إشارة إلى أنّ ثمة ما يشغله، وكانت عيناه مرهقتين بغير إشارة أيضاً إلى أنه لم يعرف طعماً للنوم. قدّرتُ أنّ اتصالي به هو السبب، وبعد أن اعتذر لي عن سبب السكتة القلبية التي أصابت هاتفه بتعبيره، انتهاء شحنه. قلتُ وأنا أنهض من الكرسي وراء طاولتي:

- ستشرب القهوة من يدي هذا اليوم.

فاكتفى بكلمة واحدة، باردة:

- نجرّب.

ثمّ بصوت أشدّ برودة استأذنني في مغادرة المكتب لمقابلة مدير المركز الذي كان اتصل به قبل أن أصل كما قال، وعندما نهضت من وراء طاولتي لأبدأ إعداد القهوة ريثما يعود وقعت عيناي على كتاب فوق طاولته قرأتُ على غلافه:

هياكل النور. للحكيم السبحانيّ والهيكل الصمداني فيلسوف الإسلام شهاب الدين أبي الفتوح يحيى بن حبش السهروردي الشهير بالشيخ المقتول قدّس الله سرّه العزيز المتوفى سلخ ذي الحجة سنة 587 هـ بحلب.

عندما عاد، وبينما كنت أسكب القهوة في الفنجان أمامه، لم أسأله عن سبب دعوة المدير له، بل قلت وأنا أشير بيسراي إلى الكتاب:

- نفسه؟

ثمّ أضفتُ:

- أقصد مسجد السهروردي؟

كنتُ أرى المسجد في طريق ذهابي من البيت إلى الجامعة وإيابي إليه، بيتنا القريب من كنيسة الأربعين شهيداً، الذي كانت أسرتي انتقلت إليه بعد أن ضاق بيت جدي بها وبأسرة عمّي إدوارد، وكنتُ كلّما عزمتُ على سؤال أحد ممّن أثق بثقافته عن الطريقة التي يُلفظ بها الاسم، أو تعريفي ببعض من سيرة صاحبه، أو على أن أقرأ عنه، وجدتُ نفسي مؤرقة بالأبحاث التي كنت أعدّها للترفيع إلى مرتبة أستاذ مساعد على الرغم من

أن المرتبة وما يعلوها لم يعودا يعنيان شيئاً في الدلالة على جدارة الموصوف بأيّ منهما كما عرفت من خلال غير حوار مع غير أستاذ مساعد أو أستاذ حول موضوعات لا يتجاوز سقفها العلميّ المقررات التي كنّا ندرسها في المرحلة الجامعية الأولى.

وعلى النحو الذي سبق عندما عرضت على يحيى أن أعدّ القهوة بنفسي، وأتبعتُ العرض بابتسامة تعني تحدياً له في إعداد قهوة أشهى من القهوة التي أعدها بالأمس، اكتفى بكلمة واحدة أيضاً:

- أجل.

- مقتول؟!

وبدلاً من أن يعيد الكلمة المفردة نفسها اكتفى بهزة من رأسه وفي عينيه ثمة قلق يصخب فيهما، ويجهر بنفسه على نحو فاحش الملوحة، ولا أعرفُ ما إذا كنت أنا التي قلتُ، أم أنّ ورداً أخرى هي التي قالت بصوت يتوسّل إليه أن يلقي عن روحه ما يزدحم فيها من ضيق كانت طريقته في الكلام، كما كان وجهه، وكانت عيناه، تبوح به، بل تفضحه:

- يحيى.

رفع يحيى وجهه عن الكتاب، وصوّب نحوي نظرة لم أكن بحاجة إلى معرفة القصد منها، قصده عمّا إذا كنت عنيتُ ما قلت، اسمه من دون أن أسبقه بكلمة دكتور، فتابعتُ، أو أنّ ورداً الأخرى هي التي تابعتْ:

- يحيى، خير؟

وكما لم أكن أدري ما إذا كنتُ أنا التي ناديته باسمه، أو أنّ ورداً أخرى هي التي فعلتْ، لم أدر أيضاً أيّاً من كفّينا مضى نحو كفّ الآخر، فامتلأ به، واستدفأ، ورتّل ورنّم ما يُعجز اللغات عن وصف حسيسه الذي لم يكد يبلغ درجة اللظى، حتى استلّ يحيى أصابعه من أصابعي، ثم نهض من كرسيه، وأمسك بيدي وهو يقول:

- تذهبين معي؟

أمام باب مسجد السهروردي كنّا نقرأ معاً الكتابة المحفورة في لوحة من الرخام: **مسجد الإمام السهروردي. 578 هـ. اللهم افتح لنا أبواب رحمتك**. ثم منه إلى المدرسة

الحلوية، أمام الجامع الأموي، فنقرأ على مدخلها معاً أيضاً الكتابة البيضاء في لوح حديدي مطليّ بلون بنّي أقرب إلى الحُمرة، بالعربية فالإنكليزية: **المدرسة الحلوية**. ثمّ ما إنْ بلغنا فناء المدرسة، حتى أومأ يحيى بيده إلى حجر كبير مقعر، وقال:

- جرن المعمودية.

نهر الذهب (1)

معبدٌ لعبدة النار، ثمّ كنيس، وفي القرن الخامس للميلاد صار كنيسة شيّدتها القدّيسة هيلانة، ابنة مدينة منبج التي كانت تحمل اسمها، هيليوبوليس، ووالدة قسطنطين الكبير الذي بنى مدينة القسطنطينية وسميت باسمه، والذي كان أول إمبراطور روماني يعتنق المسيحية، كما بنَتْ هيلانة معظم كنائس الشرق آنذاك.

كانت الكنيسة واحدة من عجائب الدنيا، وتُعرف باسم كاتدرائية حلب العظمى، أو كنيسة القدّيسة هيلانة. وقريباً منها كان بيت المذبح، وبينهما ساباط معقود البناء تحت الأرض، ويتوسط المذبحَ كرسيٌ ارتفاعه أحد عشر ذراعاً من الرخام الملكيّ الأبيض، قال ابن شرارة في تاريخه إنّ المسيح عليه السلام جلسَ عليه، أو جلسَ موضعه، لمّا دخل حلب، وكذلك فعل جماعة من الحواريين، ولذلك كان المسيحيون يعظمونه ويقصدونه من بلاد كثيرة.

سنة خمسمئة وأربعين للميلاد تعرضت الكنيسة للدمار على يدي كسرى، ثمّ أعيد بناؤها أيام حكم الإمبراطور الروماني جوستنيان الأول. وسنة خمسمئة وثلاث للهجرة، ألف ومئة وعشرة للميلاد، حاصر الصليبيون حلب من جهاتها جميعاً، فخافهم أميرها السلجوقي رضوان بن تاج الدين تَتَش، وصالحهم على أن يدفع الجزية لهم، مال وخيل، ويعلّق صليباً على منارة الجامع الأموي، وجرساً على القلعة، إلا أنّ أبا الحسن محمد بن يحيى الخشاب الذي كان قاضي المدينة رفض ذلك، وعلّق الصليب فوق كاتدرائية هيلانة. وحسب ابن شداد، في الأعلاق الخطيرة، أنّ قائدهم جوسلين، وجيشه، عاثوا في حلب خراباً، فقاموا بإتلاف المحاصيل الزراعية وقطع الأشجار وتخريب المزارات ونبش القبور، فلم يكن من

القاضي الخشّاب الذي تسلّم أمر المدينة بعد هروب ايلغازي بن أرتق، حاكم المدينة بعد تَتش، إلا أن صادر أربعاً من الكنائس التي كانت فيها، وحوّلها إلى مساجد، وكانت كنيسة هيلانة واحدة منها، باسم مسجد السراجيْن، الذي ظلّ محتفظاً بطابع العمران البيزنطي الكنسيّ.

ثمّ لمّا ملكَ نور الدين الزنكي حلب وقفَ المسجد مدرسةً، وجدّدَ فيه مساكن يأوي إليها الفقهاء، وخصّها بالتدريس على مذهب أبي حنيفة، وكان ذلك سنة خمسمئة وثلاث وأربعين. وقيل إنها سُمّيت الحلوية، أو الحلاوية، لأنّ نور الدين كان ليلة السابع والعشرين من رمضان كلّ عام يملأ جرن المعمودية الذي كان يتوسطها بالقطائف المحشوة، ويجمع عليه الفقهاء المقيمين فيها، وطلبتها، والسابلة.

في تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، المعروف برحلة ابن جبير، كتب أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسيّ البلنسيّ عن مدرسة الحلوية يقول:

ويتصل به، يقصد الجامع الأموي، من الجانب الغربي مدرسة للحنفية تناسب الجامع حُسناً و إتقان صنعة، فهما في الحُسن روضة تجاور أخرى، وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغر ابة صنعة، ومن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلي مفتّح كلّه بيوتاً وغرفاً، لها طيقان يتصل بعضها ببعض، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً، فحصل لكلّ طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدلياً أمامها، فيمد الساكن فيها يده، ويجتنيه متكأ دون كلفة ولا مشقة.

في مدخل المدرسة، إلى اليمين منه، قاعدة ضخمة من الحجر الأسود هي بقايا جرن المعمودية، منقوش عليه الصليب الغساني السرياني، وعبارات بالسريانية تآكلت بفعل الطبيعة والزمن.

كأنّ الريح (4)

شتّان يا ورد بين جُرنيْن: جرن المعمودية الذي يتطهر به الإنسان من بشريّته، فيتألّه، وجرن الزيف الذي يطحنه كما تفعل رحى خشنة.

هذا الزمن هو ذاك الثاني، الرحى التي تهشّم أحلامنا، وتجعلها نهباً لذئاب في مسوح بشر، ذئاب تعاند حركة التاريخ إلى الأمام باسم السماء، وأخرى تثمّر رصيدها من الدماء، وثالثة تبتكر من القتل، بمعنييه الحقيقي والمجازي، ما لا تقوى مخيّلات آلاف الأبالسة عليه.

عدتُ من الإيفاد ممتلئاً باليقين بأنّني سألقى من التقدير ما يليق بالبحث الذي أنجزت، وبالدرجة العالية، بل الاستثنائية، التي حصلت، وبالثناء من الجامعة التي منحتني الشهادة، ولكن لم يحدث شيء ممّا سبق كلّه، بل حدث نقيضه. لم أتعين في عضوية هيئة التدريس إلا بعد سنة ونصف من عودتي من الإيفاد، لسبب لا يمكن لأحد أن يصدقه، سبب يتعلّق بحقد أحد الأساتذة عليّ منذ كنت طالباً في السنة الثالثة.

كنت، بكثير من التهذيب واللباقة، صوّبتُ له خطأً في محاضرة عن تخطيط المدن، فلم يكن منه إلا أن طردني من القاعة، ولم يسمح لي بحضور أيّ من محاضراته حتى نهاية السنة الدراسية، ولم ينسَ، وكان صار مسؤولاً في رئاسة الجامعة، فعطّلَ بسببي، لما يزيد على سنة ونصف، قرار تعيين مئة وسبعة وأربعين عضو هيئة تدريس لصالح الجامعة في اختصاصات مختلفة. لا بدّ أنك عرفتِ مَن هو، وإن لم تعرفي، فيكفي أن أقول لك إنّ الكثير من أساتذة الجامعة والطلاب يصفونه بالأشول.

بعد ما يزيد على سنة ونصف من دون أيّ دخل سوى ما كان ياسر يجود به عليّ بصفة ديْن مؤجّل كما اشترطتُ عليه، وما كانت يُمنى تفعل وهي تبتكر من الأكاذيب البيضاء لكي لا تخدش قُلامة ظفر في مشاعري أو كرامتي.

كنتُ، قبل التعيين، بأشول واحد، وبعده وجدتُ نفسي في مواجهة أشاول ممّن لم يرق لهم أن يتجرأ شاب على تقويض ممالكهم الزائفة التي بنوها لأنفسهم طوال سنوات، وتحصنوا داخل أسوار من الورق الذي يشهد لهم بالأستاذية والذي لا يصمد

بضع دقائق أمام قطرات قليلة من ماء العلم. ويوماً إثر يوم رأيت نفسي في مواجهة ذئاب تريد حيازة كلّ شيء لنفسها، وداخل غابة وليس في صرح علميّ كنت أفترض، كما يفترض نفسه، أن يكون حصناً للقيم، للحقّ والخير والجمال.

للشيخ شهاب الدين قوله: **وليسَ العلمُ وقفاً على قوم ليغلق بعدهم باب الملكوت ويمنع المزيد عن العالمين**. وللمستحاثات عندنا قول آخر، أقوال أخرى منها توهمهم أنّهم أوتوا العلم وحدهم، وأنّ بابه أغلِقَ وراءهم، والويل والثبور وعظائم الأمور لمن يوسوس شيطانه له بأن يقرع الباب، أن يقرعه فحسب، فكيف إن بلغ هذا الشيطان حدّ الوسوسة بنزع زيف القداسة عنهم!

سأعترفُ لكِ، هنا والآن، بما يعذبني منذ سنوات. سأعترف بما حاولتُ كثيراً نسيانه، ولم أستطع، بما وجدتُ نفسي مرغماً عليه بسبب الحاجة إلى مال أستعين به على دفع أقساط البيت الذي اشتريته فور عودتي من الإيفاد بعد أن وضعت سلفة في المصرف العقاري ممّا كنت ادخرت من رواتبي طوال السنوات الخمس التي أمضيتها في إنجاز أطروحتي للدكتوراه في جامعة عين شمس.

لأبي حيان التوحيدي قوله: **بالحاجة يقعُ الخضوع والتجرّد**. وهو نفسه ما وقعَ لي، خضعتُ لضرورة تأمين أقساط البيت، فاستجبتُ لرغبة غير أستاذ، معظمهم من المسؤولين في الجامعة، بكتابة أبحاث ونشرها بأسمائهم مقابل مبلغ من المال، وتجردتُ بذلك عن أسمى قيمة كنت مؤمناً بها، هي أنّ العلم لا يُباع ولا يُشترى، ولكن حدث ما حدث لما يزيد على سنة ونصف حتى تسلّمتُ أوّل راتب لي بعد التعيين، الراتب الذي لم يكن يكفي لغير قسط البيت وديون ياسر المؤجلة التي علمت متأخراً أنه يدخرها لدى أمّي لسبب لم يفصح عنه، ولعلّه أفصح عنه لها وحدها وائتمنها عليه، ثمّ لغير نفقاتي الصغيرة للطعام والسكائر والمواصلات.

كان عليّ، كما وعدتكِ، أن أحكي لكِ عمّا رمى بي إلى هذا الخواء الذي يجمعنا الآن، الخواء الذي تتصدّر مدخله لوحة يمكن أن تعني أيّ شيء سوى ما يعنيه كما رأيتِ بنفسك.

سأحكي، ولكن أتمنى عليك أن تحتفظي بأكثر ما سأحكي لنفسك، وأن تعديني، إذا

ما شئتِ إثباته في الرواية، بألا يكون بتمامه بل بما ترين أنه ينفع فيها، ليس خوفاً من أحد، ولكن خوفاً من أن تبلغ رائحة عفننا إلى خارج البلد، البلد الذي ينوء معظم مؤسساته تحت وطأة الملوثين بشهوة البحث عن الجاه والمال والنساء بأيّ وسيلة كان الطريق إلى ذلك، ومهما يكن من أمر عبورهم إلى أيّ من تلك الثلاثة على جثث الآخرين، والسباحة في نهر الدم الطافح من هذه الجثث التي ليتها بقيت مجاز جثث، ولم تصر، في هذه الحرب، حقيقة تملأ المقابر والشوارع والساحات، حتى لكأنّ ثمّة لعنة مكتوبة على هذه البلاد، أن ينهشها الفاسدون، والأقزام، واللصوص، والقتلة باسم السماء، من كلّ حدب وصوب.

سأحكي، لعلّي أدفع بهذه الصخرة التي تجثم على صدري منذ سنين إلى الأرض، أفلستِ أنتِ مَن قال لي إنّ الإنسان اخترع الحكاية ليدفع بها عن نفسه طيش الواقع حوله؟ إنه بالحكاية حاول الإجابة عن الأسئلة التي كانت الطبيعة تفرضها عليه؟ دورة الليل والنهار، وتعاقب الفصول، والبرق والرعد والمطر، والخصب والقحط، والحياة والموت.

الآن، وأنا أكتبُ، أكتشف سرّ ذلك الشغف بحكايات أمّي عندما كنت صغيراً، الحكايات التي كانت تشغلني عن كلّ شيء. تُنبتُ جناحين لي، فأحلّق بعيداً عن الأرض، ثمّ أحطّ على صهوة غيمة ثمّ يبدو كلّ شيء من جهاتي كلّها ضاحكاً بالبياض.

أجل، الحكاية، كما كنتُ قرأت مرة، ابنة الحُلم، ولولا الحلم لما كان للحياة معنى، لكانت الحياة صورة حياة.

إشراق (3)

المَرءُ في كلّ يومٍ يرتجي غَـده
ودونَ ذلكَ مخبوءٌ لهُ القَـدرُ
القَلبُ يَـأملُ والآمـالُ كاذِبـةٌ
والمَغشيّ يَلهـو وفي الأيّامِ مُعتبرُ

* * *

سهر الورد (5)

في المقهى المطلّ على القلعة أخرجَ يحيى ورقة صغيرة من جيب معطفه، ودفعها إليّ، فقرأت: من يحيى بن حبش بن أميرك إلى يحيى بن حسيب بن حسن الحلوي..

وما إنْ بلغتُ آخر كلمة منها، ورفعت رأسي نحو وجهه، حتى قلت:

- أهي السبب؟

- ألا تكفي؟ ألا تكفي لتصدّع جبلاً لا إنساناً؟ أترين أنّ حبرها لمّا يزل طازجاً كأنها مكتوبة قبل وقت لا يزيد على يوم؟ أيّ تفسير لما حدث؟ للنداء الذي تكرر غير مرة باسمي واسم أبي وجدي وكنيتي؟ لهذه الورقة نفسها التي لم تكن في الكتاب عندما أنهيت قراءته، ثم كانت؟ أيكون السهروردي نفسه هو صاحب النداء؟ أيكون هو مَن كتب هذه الورقة؟ أهي بعض من السيمياء التي عُرفت عنه؟ أيّ ريح صرصر يقصد الشيخ؟ كيف أحدّثُ ميتاً منذ قرون، الشيخ افتخار الدين الهاشمي؟ خراب ودمار سيلتهم أكثر حلب؟!

بين سؤال وآخر كان يحيى يملأ رئتيه بدخان سيجارته، ولم يتوقف عن متابعة المزيد من الأسئلة إلا عندما قاطعته:

- تعيش وحيداً في البيت؟

- ماذا تقصدين؟ هل تعنين أنّ وحدتي في البيت جعلتني أهذي بأشياء هي أوّل الخطو نحو الجنون، وأنّ ما حكيت لك هو علامة أولى عليه؟ إن كنت تعنين ذلك، فلا بد ستقولين بعد قليل إنني أنا مَن كتب هذه الورقة، ثم وضعتها بين صفحات الكتاب، ثم هُيئ لي أنّ الشيخ شهاب الدين هو مَن كتبها. اسمعي..

ولم أدعه يكمل، ولا سيما أنّ صوته وعينيه كانت تضجّ بتحفّزه ليقول كلاماً لا يليق به وبي معاً، قلت:

- بل اسمع أنت، لم أعنِ أيّ شيء ممّا قلتَ.

وكدت أقول: توهمتَ، لكنني أعدت الكلمة إلى فمي، ولم أفعل ذلك من قبل في حياتي كلّها، لأنني كنت مؤمنة، وما أزال، بأن أسوأ ما يفعله الإنسان هو أن يقول في السرّ ما يخشى قوله في العلن.

المؤيّد بالملكوت (2)

من قلعة آل موت مضى السهروردي إلى بغداد، ومن الثانية إلى ديار بكر في بلاد الأناضول، وفيها لقيَ حفاوة من أمير خربوط، عماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان بن داود بن أرتق، وكتبَ له كتاب الألواح العمادية، وأسسَ مدرسة لفلسفة الإشراق.

في ديار بكر لقيَ شيخها الطبيب العالم فخر الدين، ومكثَ مدة معه، ثمّ منها مضى إلى ميّا فارقين، وبعد أن أحكم صلاح الدين الأيوبي قبضته على بلاد الشام، نزل السهروردي حلب سنة خمسمئة وثمان وسبعين للهجرة، وقيل بل سنة خمسمئة وتسع وسبعين، وأميرها الملك الظاهر ابن صلاح الدين، في المدرسة الحلوية التي كانت تضمّ كبار العلماء والمتكلمين والفقهاء، وأخذَ يستمع إلى دروس شيخها افتخار الدين الهاشمي، قاضي قضاة الحنفية في حلب، وكانت بينهما مناظرات ومحاورات، ثمّ مع علماء حلب وفقهائها، فذاع اسمه على كلّ لسان، وأحبّه ناس وكرهه آخرون، وبدأ بعض منهم ينسبُ إليه أقوالاً وآراء لم يقل منها شيئاً، بعد أن أعجزهم وظهرَ عليهم في غير مناظرة وحوار، حتى تمكنوا من إثارة كثير من الناس ضده، سوى الشيخ افتخار الدين الذي كان يقرّبه منه ويدنيه من مجلسه، وكان ذلك ممّا يثير غيرتهم وحسدهم، فأخذوا يقلبون علمه جهلاً، وهدايته ضلالاً، ويقينه شكّاً، و إيمانه كفراً، وتصوفه شعوذة، وفلسفته هرطقة، كما كتب رجل من زماننا اسمه سامي الكيالي.

كأنّ الريح (5)

في السنة التي سبقت عودتي من الإيفاد تمكّن ياسر من شراء بيت بعد أن كان أسس لنفسه ورشة صغيرة للخياطة، وعلى الرغم من أنّ مساحة البيت لم تكن تزيد على ثمانين متراً مربعاً، فإنّه أنقذ الأسرة من تشرّدها، بين وقت وآخر، بين الإيجارات التي وجدنا أنفسنا مرغمين عليها بعد أن تقاسم أخوالي وخالاتي حصصهم من ميراث جدي، وكان أوله البيت الذي ظللنا نقيم في غرفة صغيرة منه لسنوات. خصّ ياسر أمّي وأبي بغرفة، ونفسه بأخرى، ويعرب بثالثة، ويمنى بالرابعة، وكانت غرفة يعرب ملتقى

للجميع طوال النهار، ولا سيما خلال وقت الغداء الذي نادراً ما كان يجمعنا معاً.

لم يكن ياسر تجاوز المرحلة الإعدادية في دراسته، لكنه كان شعلة من الذكاء في عمله المهنيّ، ففي أقلّ من سنتين تمكّن من معرفة أسرار العمل في صناعة الأقمشة، استيراد الخيوط من الصين، فتحويلها إلى لوحات أخاذة جعلت خالي يزداد ثراء، كما جعلته كبير صناعيي الحرفة وأهمّهم مكانة في السوق، ليس السوري وحده، بل الأسواق العربية وبعض الأجنبية أيضاً، وبسبب ذلك، وعلى غير عادته، وقف إلى جانبه عندما عرض عليه الاستقلال بنفسه، وأعطاه عشرة أثواب من القماش الذي يحتكره في معمله عادةً على أن يدفع ثمنها إليه فور تصريفه البضاعة.

عندما عدتُ من الإيفاد قاسمتُ يعرب غرفته التي لم تكن مساحتها تزيد على عشرة أمتار مربّعة، ويوماً إثر يوم بدأت الغرفة تضيق بكلينا، ولاسيما بكتبي التي تركتها قبل سفري إلى الإيفاد، وتلك التي أحضرتها معي، ثم التي اصطفت إلى جانب كليهما مع الوقت، ممّا يعني مجال دراستي واختصاصي، وممّا يعني تاريخ حلب، ولا سيما أوابدها الأثرية، من القلعة إلى الأسوار فالأبواب والمساجد والكنائس والمدارس الدينية القديمة والخانات والبيمارستانات.

كنتُ، خلال سنوات الإيفاد، منظماً في نفقاتي إلى درجة يعجز عنها علماء الاقتصاد، ولذلك تمكنت من توفير مبلغ جيد نسبياً يمكنني من شراء بيت، ولكن فورة أسعار العقارات وضعتني في مواجهة ما لم أكن أفكر فيه، أو أخطط له. أرغمتني على وضع جزء من المبلغ الذي ادخرته بصفة وديعة في المصرف العقاري، وانتظرت الوقت اللازم للحصول على قرض اشتريت به هذا البيت من دون إكساء، ثمّ قمتُ بإكسائه بما تبقّى لديّ، ثم وجدتُ نفسي على الحديدة لنحو سنة ونصف، ولولا المال الذي كنت آخذه من ياسر بصفة ديْن مؤجل، ولولا يمنى، ولولا ما كنت أحصل عليه ممّا اعترفتُ لكِ به، لكانت السنة والنصف جحيماً أو أشبه بالجحيم.

ما عرفتُ في حياتي شخصاً أكثر نهماً إلى المال مثل خالي مصطفى الذي كانت أرصدته في المصارف الخارجية تزداد تورماً صفقة بعد أخرى، وغالباً ما كنت أتعلّل بالأسباب لأتجنّب وجودنا معاً، هو وأنا، ليس بسبب رفضه طلبي مبلغاً منه أعيده إليه

على دفعات، فأتجنب مهلكة الفوائد الباهظة للمصرف العقاري، بل بسبب غمزه الدائم من أصحاب الشهادات، وسخريته منهم، وقوله غير مرة إنّ الدخل الشهري لأعلى موظف منهم لا يبلغ دخل عامل لديه في أسبوع واحد، ثم بسبب لازمته بأنّه بالمال يستطيع شراء ما ومَن يشاء، وقبل ذلك وبعده بسبب تلميحاته إلى رؤى، ابنته، واستعداده، في حال طلبتُ يدها منه، لنقلي إلى عالَم آخر، بيت في الشهباء الجديدة، وسيارة فاخرة، وعلاقات مع كبار المسؤولين في حلب والعاصمة.

عندما سيطر المسلحون على ريف حلب الغربيّ، ونهبوا الآلات في معمله، ونقلوها إلى تركيا، قدّرنا جميعاً أنه خسر كلّ شيء، ولكن سرعان ما أنشأ معملاً آخر في القاهرة، وسرعان ما أقام وأسرته فيها، فتحررتُ من كابوس ثقيل ظلّ يجثم على صدري لسنوات، كابوس اسمه رؤى التي لم تستطع الحصول على الشهادة الثانوية على الرغم من مئات آلاف الليرات التي صرفها خالي على المدرسين الخصوصيين من أجل ذلك، وعلى الرغم من شرائه ذمّة أحد رؤساء المراكز الامتحانية ذات سنة، الذي سرعان ما اكتشف ممثل الوزارة أمره، فأعفي من رئاسته للمركز قبل أن تبلغ رؤى آخر مادة من الامتحان.

لم يكن خالي يرغب في زواجي من رؤى محبّة فيّ، بل رغبة في إضافتي إلى رصيده من الممتلكات، فيكمل حيازته لكلّ ما يرى أنه ينفعه في مجتمع الأثرياء، المال والمعامل والنفوذ ومصاهرته لدكتور مهندس في الجامعة، ولم أستجب لتلميحاته وإيماءاته، ولم أتردد في الجهر بذلك أمامه نفسه، ليس لأنني لم أكن أشعر نحوها بأيّ عاطفة، أو لأنّ ثمّة فارقاً في الشهادة العلمية بيني وبينها، فحسب، بل أيضاً لأنني لم أرتض لنفسي يوماً الانضواء تحت إرادة أحد، أو الاسترقاق على نحو أدقّ، ولأنّ رؤى نفسها لم تكن تختلف عن أبيها في شيء، ولاسيما يقينها بأنّ المال هو كلّ شيء، وقبل أيّ شيء.

أيّ معنى للحياة إذا لم يكن المرء نفسه، إذا لم يكن حرّاً!

الحرية شرط إنسانيّ، ضرورة لإنسانية الإنسان.

ما أجمل عبارة الكواكبي: "**الحرية هي شجرة الخلد**"!

إشراق (4)

أأرضى بالإقـامةِ في فَـلاةٍ
وأربَعـةُ العَناصِرفي جواري
إلى كَم آخذ الحَيّات صحبي
إلى كَم أَجعـل التنّين جاري
إذا لاقيت ذاكَ الضّـوء أَفنى
فلا أَدري يَميني مِن يَسـاري
وَلي سِـرٌّ عَظيمٌ أَنكَروهُ
يَدقّـونَ الرّؤوسَ عَلى الجدارِ

* * *

سهر الورد (6)

لكأنّ يحيى كان يتحدث عن عمّي إدوارد لا عن خاله مصطفى، النهم مثله إلى المال، والذي لم يكن يعنيه من الحياة سوى تكثّر رصيده منه. كان وكيلاً وحيداً لتبديل قطع السيارات الفرنسية في سورية كلّها، ولم يكن يتردّد في رفع أسعار هذه القطع بين وقت وآخر، وكما يحلو له، ولذلك كان رصيده من المال يتورّم بشكل سريع، ولا سيما في السنوات الأخيرة التي سبقت الحرب، والتي كان تعرّف خلالها إلى معظم قناصل الدول الأجنبية في حلب، وكان يمضي بصحبتهم وصحبة زوجاتهم سهرات طويلة في أرقى المطاعم التي كانت نبتت في الأحياء القديمة من المدينة، زمريا، وقصر الوالي، وبيروويا، وبيت غزالة.

شيء وحيد كان يميزه من خال يحيى هو عودته إلى البيت في وقت متأخر من الليل، ولم يكن أحد يعرف أين يمضي ذلك الوقت كله إلى أن عاد ليلة فأخذ يملأ باحة البيت بالصياح بصوت متهدل، بينما يترنّح أماماً وخلفاً ويميناً ويساراً، فنهض الجميع، أسرة عمّي ونحن، على جلبته، فهُرع أبي إليه، وحمله، على الرغم من بدانته، إلى غرفة نومه،

ثمّ بقي إلى جواره إلى أن غطّ في نوم عميق.

بعد نحو ساعة من بقاء أبي إلى جانبه عاد إلينا وثمة دموع حبيسة في عينيه، ثم ما إنْ استرخى فوق كرسيه الذي لم يكن مسموحاً لأحد، بأمر أمي، الجلوس عليه، حتى رسم إشارة الصليب، وحتى سمعناه يقول:

- لك المجدُ أيها المسيح إلهنا، يا غافر الذنوب، وداعي الخطاة إلى التوبة، الآب والابن والروح القدس الآن وكل أوان.

كانت أمي أسرعت بكأس من الماء إليه، فرفع رأسه إليه يقول:

- إدوارد في محنة، لنصلّ له جميعاً.

المحنة التي قصدها أبي، كما عرفنا فيما بعد، كانت بسبب امرأة، زوجة قنصل فرنسة في حلب، التي كانت، نهاية كلّ سهرة في أحد المطاعم، توصل زوجها إلى البيت بعد أن يكون غادر آخر الصحو، ثمّ تلحق بعمّي إلى مزرعته في خان العسل، وكلّ لقاء تجد في انتظارها هدية فاخرة، عقداً، أو خاتماً، أو ساعة، أو..

تلك الليلة كان عمّي على موعد مع القنصل وزوجته على العشاء في مطعم زمريّا، وعندما تأخّر وصولهما نحو ربع ساعة، ولم يكن ذلك من عادتهما، أسرع إلى الاتصال بالقنصل، ففوجئ بهاتفه خارج التغطية، ثمّ إلى الاتصال بزوجته، فكانت المفاجأة نفسها، فمضى مسرعاً بسيارته إلى بيتهما في مقرّ القنصلية، فاستقبله الحارس بمفاجأة عقدت لسانه، قال له إنّ سيارة لبنانية كبيرة وصلت إلى القنصلية في نحو العاشرة صباحاً، ثمّ رأى سائقها يحمل حقائب كثيرة من بيت القنصل إليها، ثمّ القنصل وزوجته وهما يجلسان في الكرسي الخلفيّ له، ثم سمع القنصل يقول له بعربية مكسرة إنه عليهما أن يكونا في مطار بيروت قبل الساعة الثالثة.

تلك الليلة مضى عمّي إلى مزرعته في خان العسل، وطوال طريقه إليها كان يحاول الاتصال بالقنصل وزوجته، فيرتطم بالردّ نفسه، بأنّ الهاتف مغلق، وبينما هو يبدأ محاولة جديدة وصلته رسالة من رقم مجهول، ولم يكد يقرؤها، وكان بلغ المزرعة، حتى أحسّ بأن الأرض تدور به، وحتى سقط أرضاً، فحمله الحارس وابنه الشاب إلى داخل المزرعة، فإلى الصالة، وظلا يمسحان وجهه بقطعة قماش مبللة بالماء إلى أن صحا من

غيبوبته.

وبعد أن اطمأنا عليه غادراه إلى الغرفة الصغيرة المجاورة لباب المزرعة، وكأساً من الويسكي إثر آخر كان يمضي إلى قاع الغياب، ثمّ لم يكد يسقط أرضاً، ويبلغ صوت ارتطامه بالطاولة آذان الحارس وابنه، حتى هرعا إليه، وحملاه إلى سيارته، وعادا به إلى البيت منهكاً، وفاقداً الوعي أو يكاد، ويهذي بكلام لم يكن أحد قادراً على الإمساك بأي جملة مفيدة منه، سوى كلمة واحدة: جيزيل.

كانت الرسالة من زوجة القنصل، كما حكى لأبي، تعتذر له فيها لأنها لم تدع له سوى بضع مئات من الدولارات في حسابه في بيروت، الذي كانت تسحب منه سهرة بعد أخرى بتوقيع منه على شيك باسمها عندما تكون الخمر أنهكت رأسه تماماً كأساً بعد أخرى.

ردّد أبي العبارة نفسها:

- إدوارد في محنة، لنصلّ له جميعاً.

بعد أقلّ من شهر من تلك الليلة صار عمّي يضيق بوجودنا معه في بيت واحد، ولا سيما أننا كنا نشهد كلّ ليلة ما كان يفعله بنفسه بعد أن يكون أفرغ في جوفه عشرات الكؤوس من العرق.

لم تنفع صلواتنا له في شيء، كما لم تنفع صلوات أبونا إبراهيم في الكنيسة بشيء، ولم يكن أمام أبي وقد بلغ حداً من القهر الذي لم يعد قادراً معه على رؤية عمي وهو يملأ البيت، كلّ ليلة، بالشتائم والصراخ إلا أن عزم على مغادرتنا البيت، بيت جدي، الذي كنا نتقاسمه مع أسرة عمّي، ثم أن يتردد عليه كلّ صباح ليطمئن عليه.

ولم يدم ذلك أكثر من شهر آخر، فقد علمنا بأنّ عمّي باع البيت لأنّه كان انتزع من جدي، وهو على فراش المرض، توكيلاً عاماً لم نعرف به إلا بعد بيعه البيت، ثمّ سافر وأسرته إلى بيروت، واستقر فيها لنحو سنة، ثمّ، وقد أخذت دول كثيرة تفتح أبوابها للمهاجرين السوريين بسبب الحرب كان، وأسرته، وليمة لحيتان المتوسط وهم في طريقهم على ظهر قارب مع مهاجرين آخرين إلى اليونان.

إشراق (5)

والمَرءُ يفرحُ بالأيام يقطعها

وَكُلّ يومٍ مَضى يَدنو مِن الأَجَلِ

كأنّ الريح (6)

يُمنى لم تكن توءمي فحسب، بل روحي أيضاً. كنتُ وهي روحاً واحدة شاءت السماء أن يتقاسمها جسدان. لم يكن أحدنا يفارق الآخر سوى وقت النوم الذي كان يحاصرنا معاً في توقيت واحد، كالجوع والعطش اللذين كانا هما الآخران يطلقان نداءهما في توقيت واحد.

كانت أمّي تؤنبني دائماً لأنني كنت أدع شقيقيّ، ياسر ويعرب، وألعب مع يمنى معللة ذلك بأنّ للبنات ألعابهن الخاصة بهن، وما إنْ كنت أمتثل لإرادتها، حتى كنتُ أجد نفسي مع يُمنى من جديد.

يُمنى طائر من الرقّة والرهافة، غافلَ بدء الخلق، ثمّ حطّ بجناحين من نور على الأرض، فمنحها معنى للحياة. كنتُ أتقاسم معها كلّ شيء، الحلوى والعيديات والأفراح والأحزان، وأحكي لها كلّ شيء كما تحكي لي كلّ شيء. لم تعرف يمنى التعثّر في أيّ من سنوات دراستها حتى حصولها بتفوق على شهادة أهلية التعليم، قسم التربية الفنية. كان طموحها، بعد نيلها الشهادة الثانوية، الالتحاق بكلية الفنون الجميلة في دمشق، لكن سببين خنقا ذلك الطموح، وجعلاه نهباً للريح: رفض أفراد الأسرة جميعاً، ما عدا أنا، سفرها إلى دمشق، وعدم وجود فائض مالي لدى الأسرة يمكّنها من نفقات السفر إلى دمشق والإقامة فيها، حتى لو كانت هذه الأخيرة في المدينة الجامعية.

منذ نعومة أظفارها كانت يمنى شغوفة بالرسم، وكانت تمتلك حسّاً عالياً بالبعد الثالث للأشياء عندما تتوضع فوق بياض الورق، وبالألوان التي يتجاور بعضها إلى جانب بعض في إيقاع مدهش ودالّ على رهافة بصرية فائقة، ولذلك، وما إن انتسبتْ إلى المعهد، حتى وجد مدرّسوه، في الخط الذي ترسمه، وفي الظلال والألوان التي تصوغها، مهارة فطرية فائقة لديها، وكان بعض من أولئك من أكثر التشكيليين شهرة

في حلب وفي سورية عامة، فأسرعوا إلى احتضان موهبتها، كما أسرع النقاد ومحررو الصفحات الفنية إلى الكتابة عنها، والاحتفاء بتجربتها، فكان لها من الشهرة في المشهد التشكيلي في زمن قياسي ما كان سواها يحتاج إلى عقود.

كانت معظم لوحات يُمنى عن ذاكرة حلب، آثارها وطقوسها الاجتماعية التي كانت قبل أن تتفكك الأسرة الكبيرة الواحدة في البيت الواحد إلى أسر مفردة في بيوت صغيرة، وحِرفها التي بادت أو تكاد. كانت تصرّ على مرافقتي لها إلى تلك الآثار لمعرفتي بها، وإلى أحياء حلب القديمة، وإلى الأسواق المشهورة بالحرف اليدوية، ولم نكن نعود إلى البيت قبل أن تملأ بالصور ذاكرة الكاميرا التي لم تكن تفارقها، ولم تكن تنسخ تلك الصور إلى لوحاتها كما هي في الأصل، بل تضيف إليها، وتحذف منها، وتبرع في صياغة ألوانها، ولاسيما البنفسجي، بتنويعاته المختلفة، الذي كان له حضوره المميز في مجمل تلك اللوحات. ذات لوحة انتهت يُمنى من خلقها سألتها عن السرّ الذي يجعلها مغرمة بلون البنفسج، وعن حضوره الواضح، جهراً أو سرّاً من أسرار الخلفية للعنصر الإنسانيّ في كلّ لوحة، فسقطت إجابتها على رأسي وفي قلبي كما تسقط صخرة على آنية من الفخار، قالت وثمة شجن يجهر بنفسه في صوتها:

- أشعر بأنني سأموت مبكراً يا يحيى.

قلت وقد اضطرب دمي كلّه برعدة مفاجئة:

- أهذا وقت المزاح يُمنى؟

- بل قل الجدّ يا يحيى، وجدّ الجدّ أيضاً.

- يُمنى.

رفعتُ صوتي أكثر، شئتُ أن أقول لها أن تتوقف عن هذا الكلام، بل أن تخرس، ولم يكن ذلك من عادتي، فوضعتْ حاملة الألوان من يدها، والريشة، واحتضنتني، ثم رمت برأسها على كتفي، وأخذت تبكي.

مسحتُ على شعرها، ووجهها، وشددتها إلى صدري، وأنا أقول:

- اهدئي يُمنى، أرجوك اهدئي. كما ولدنا معاً سنموت معاً.

لم يكن من عادة يُمنى أن تخفي عني أيّ شيء، بما في ذلك مشاعرها وأحاسيسها

العاطفية، ولطالما كانت تطلعني على الرسائل التي كان زملاؤها في المعهد يكتبونها لها، ولا تردّ على أيّ منها، ولطالما كانت تردّد إنها تكتفي من الحياة باثنين، أنا والرسم، وإنّ القلب، قلبها، لا يتسع لسواهما، وكنت أضحك ملء روحي وهي تردّد ذلك، وأقول لها:

- ربثما يعصف بقلبكِ قلب.

ثمّ وأنا أضاحكُ بشاهدتي عينيها السوداوين:

- أو ربثما تصرع أحداً هاتان العينان.

إشراق (6)

عَلى العَقيق اجتَمَعنا
نَحنُ وَسودُ العيونِ
أَظنّ مَجنونَ ليلى
ما جُنّ بَعضَ جُنوني
إِن مُتّ وَجداً عَلَيهم
بِأَدمُعي غَسَلوني
نوحوا عَلَيَّ وَقُولوا
هَذا قَتيل العُيونِ
أيا عُيوني عَيوني
وَيا جُفوني جَفوني
فيا فؤادي تَصبّر
عَلى الذي فارقوني

* * *

سهر الورد (7)

أيمكن لرعشة يد أن تصير اشتهاء لرعشة جسد؟ صارت. اجتاحتني حتى قلبتْ ليلي

كلّه رأساً على عقب، حاولتُ كتابة مقالي الأسبوعي، فلم أستطع. حاولت القراءة، فكنت أقلّب صفحات الكتاب كما تعبر حافية فوق أرض مزدحمة بالحجارة والحصى.

بينهما، محاولتا الكتابة والقراءة، كان ثمّة رغبة تشتعل في جسدي كلّه وتدعوني إلى العودة إلى بيت يحيى، فأضع رأسي على صدره، ثم أهمس له بأن يأخذني بمطلق خصبه إليه، بأن يخلقني كما يليق بأنثى يضج جسدها بالحياة.

وهو يودّعني عند باب البيت فتح يحيى كفّه، ثمّ احتوى بها كفّي كلّها، بينما هو يقول:

- عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

وما إنْ التقط صمتي دلالة على أنني لم أفهم القصد من عبارته، حتى أضاف:

- هكذا يقول كتابُنا، نحن المسلمين.

ثمّ وهو يحتوي كفي بدفء أكثر أكمل:

- شكراً لمن كتب التقرير بحقّك.

- سافل.

غادرتِ الكلمة فمي على عجل كما لو أنها كانت تغلق مجرى الهواء في أعلى الحنجرة، وكان عليّ أن أخرجها بأقصى ما أستطيع من القوة والسرعة، وكانت أصابع يحيى تتابع حمحمتها في عروق كفّي، فتضرم جسدي بالرغبة إلى أن أسند رأسي إلى كتفه، فأنسى التقرير وصاحبه والمركز الذي أريد لي أن أُدفنَ فيه وأنا على قيد الحياة.

- سافل بالنسبة إليكِ، وملاكٌ بالنسبة إليّ.

وتابع بينما يزداد هصر أصابعه لكفّي التي أحسست بأنها صارت جسدي كلّه وقد بدأ حسيس نار يتعالى في خلاياه:

- أضرَّ بكِ، فعثرتُ عليّ.

على نحو لا أعرف كيف حدث أفلتُ كفّي من الجمر الذي كان يزداد لظى في أصابعه، ثمّ غادرت المكان، ثمّ وجدت نفسي، قبل أن أبلغ نهاية درج البناء، أرمي بجسدي فوق واحدة من الدرجات، أستجمعُ ما تبعثر مني، أطفئ حمحمة أصابع يحيى في دمي، ثمّ أتناهض، ثم أهيم على روحي من دون جهة أقصد، حتى أعياني المشي على

غير هدى، فمضيت إلى البيت، ارتميتُ على السرير بكامل ثيابي، ولم أخلع حذائي، ولم أضع حقيبتي حيث اعتدتُ أن أفعل.

أغمضتُ عينيّ. تقلّبتُ على جنبيّ. توسلت سلطان النوم، حرّاس مملكته، فلم يستجب لضراعتي أحد. نهضتُ إلى المكتب الصغير في الغرفة، حاولتُ الكتابة، فلم أستطع، القراءة، فلم أستطع، فعدتُ إلى السرير. أرغمتُ جسدي على الاسترخاء.

ولم يكد حارسٌ ممّن يسدّون بأجسامهم الضخمة بوابة مملكة النوم يشفق عليّ، حتى شعرت بيدين تمتدان إلى أسفل قدميّ، تنزعان الحذاء منهما، ثم جسد رجل فائر بالدفء يتمدد إلى جانبي، ثم أصابعه توغل بحنوّ في حقول شعري، ثم شفتاه ترمحان فوق جبيني، فخدّيّ، فعنقي، ثمّ يداه تطلقان أزرار قميصي من أسرها، ثمّ تمتلئ كلتاهما بنهديّ، ثم.. ثم أموء: كفى يحيى، كفى.

أيمكن لرعشة يد أن تصير كذلك؟ أن تجعلني أغادر يحيى على غير هدى، أن تفرّ اللغة مني، فلا أقوى على الكتابة، أن أحاول القراءة، فأتعثر بالعجز عن الفهم تلو عجز، أن أتخيّل.. أتوهّم.. أموء، وأقصد بدلاً من كفى أن أكثر يا يحيى، أكثر.

بلغتُ الثالثة والثلاثين ولم أعرف سوى معنى واحد للجسد. عشت خمس سنوات في قلب مدينة أوروبية متحررة من عقد الشرق، ولم أعرف أيّ تجربة مع رجل. قرأت الكثير من المشاهد في كثير من القصص والروايات التي تصوّر لحظات الشغف بين عاشقين، وكنتُ أعبر بها كما يعبر سائح بمكان لا يعنيه، ورأيت الكثير من المشاهد في الكثير من الأفلام السينمائية، ولم تكن تستنهض في دمي أيّ صبوة لحميّا الجسد.

لم يكن طيني يابساً يوماً، بل، منذ صحوت أول مرة على بقع من الدم بين ساقيّ، كان وما يزال خليطاً من عنبر الأنوثة ومائها، ولكن لم أعرف رجلاً كان يليق به هذا العنبر، يبعثني من طيني، فأصير كليوباترا ويكون هو أنطونيوس، أو ليلى وهو قيس، أو ممتاز محل ويكون هو شاه جهان، أو.. وحدها يد يحيى بعثت في جسدي تلك الرعشة، أيقظت روحي من سباتها الطويل، أطلقتني في سماوات التوق والشوق والصبابة لأكون كما أليق بطيني الذي بزغَ سوسناً لا ماء يرويه سوى ماء يحيى.

إشراق (7)

حبَّـذا لمّا سَقـاني
صَفوَ كأسِ الحُبِّ صِرفا
وَحَبـاني بالتَـداني
و انثنى جِيداً وَعطفـا
مُبعـدٌ في القلبِ حَلّا
وَجَلى عنّي الظلام
هَكَـذا العَيش وَإلّا
فعَلى العَيشِ السَلام

كأنّ الريح (7)

لا أمّ تشبه أمّي. الأمهات، أغلبهن، عظيمات، وجديرات بأن تكون الجنة تحت أقدامهنّ، أمّا أمّي فهي الجنة، نخيلها وأعنابها وأنهارها. فتاة في نحو العشرين من عمرها قبل نحو نصف قرن استجابت لنداء قلبها، ولم تخش ما كان يتربّص بها من صنوف القهر والإذلال، وربّما الموت، بسبب ذلك.

الحبّ؟ أجل، قالت لي ذلك عندما سألتها ذات يوم عمّا دفعها، وهي ابنة المجد والثراء، إلى حياة الكفاف، وما تحت خطّ الكفاف، والجوع أحياناً، فالتشرد من بيت إلى بيت، فالصبر على أبي الذي كان يكتفي من الحياة بيومه، ويلقي بأعباء الخمسة بعيون الشيطان على كتفيها، في الملبس والتربية والتعليم.

- احكِ لي يا أمّ ياسر، احكِ.

- اشّ بدّي أحكي؟ هدول خمسين سنة، مو ساعة ساعتين ولا يوم يومين.

- احكِ يا أمّي، احكِ، فأنا مستعدّ لسماعك خمسين ساعة.

وهي تمضي من حكاية إلى حكاية كنتُ أرهفُ قلبي لخرير صوتها، بل صوت قلبها، وأستعيد في ذاكرتي بعض المواقف التي شهدتها بنفسي منذ بدأتُ أعي الحياة. حكاية رؤيتها أبي أول مرة وهي في طريقها مع جدتي وخالاتي إلى حمّام السوق، فتعثرها بحجر

ناتئ من بلاط الحارة، فسقوط بقجة الحمّام من يديها، فالرجفة التي اجتاحت جسدها بينما يدها تلمس يد الشاب الذي هُرع إلى البقجة ليرفعها إليها، فالساعات التي قضتها في الحمّام وهي تصبّ طاسة ماء تلو أخرى فوق غير مكان من جسدها محاولة إيقاف زحف يد الشاب من موضع إلى آخر فيه.

- احكِ أمّ ياسر، احكِ.

وكنتُ أمعنُ النظر في عينيها اللتين كانتا تلمعان بضوء باهر فيهما وهي تستعيد الحكاية التي سرعان ما صارت حكايات عندما تقدّم ذلك الشاب لخطبتها، فقامت قيامة جدّي وجدّتي وأخوالي وخالاتي، وأقسم الجميع أنّ نجوم السماء أقرب إليه من ظفر مجيدة، أمّي، ابنة الحسب والنسب والمال، والتي لا يليق بها إلا رجلٌ من طبقتها، لا هذا الشاب الذي يحتاج إلى "فتّ خبز كتير" ليكون جديراً بمصاهرة الأسرة، فلا مهنة واضحة يعمل فيها، كما حكى جدّي، بل مهن ينتقل من إحداها إلى الأخرى من دون سبب مقنع، ولا بيت، حتى أسرته نفسها لا تملك بيتاً. وأضاف جدّي قائلاً إنّ أي شخص سيفتح فمه في هذا الموضوع مرة أخرى، فسيقصّ لسانه من أبعد نقطة في حلقه.

- قلت لنانتك عيّوش: عبدو أو ما حدا.

- احكِ أمّ ياسر، احكِ.

وعندما نقلتْ جدّتي إلى جدّي ما قالت أمّي مرغمة على ذلك عندما أخبرها جدّي بأن تستعد ذلك النهار لاستقبال أسرة الحاج وهبي الجابري التي ستزورهم لطلب يد مجيدة لابنهم مروان، أخرج جدّي مسدسه الهاجع منذ وقت طويل في صندوق خشبيّ مصدّف، ووضع فوّهته في صدغ أمّي وخيّرها بين ابن الحاج وهبي أو الموت، ومن دون أن ينتظر طويلاً أجابته: الموت.

رفعَ جدّي مسدسه إلى أعلى ما تستطيع ذراعه، ثمّ هوى بأخمصه على رأسها، فسقطتْ أرضاً، فتناثر الدم الذي تدفّق من رأسها على جدران الغرفة والأثاث، ولم تكد أمّي تُهرع إليها، حتى رأت بركة صغيرة من الدماء تحيط برأسها، ووجه أمّي طاعناً في صفرة فادحة، فأخذت تولول، وتصرخ. أمّا جدّي، كما حكت جدتي لأمي فيما بعد،

فقد غادر الغرفة وهو يمسح الدم عن أخمص مسدسه، وسمعته يقول لخالي مصطفى:

- تعا، شيل هالكلبة عالمستشفى.

في المستشفى زعمَ خالي للشرطة أنّ أمّي تعثرت بينما كانت تنزل من المربّع، فسقطت، وارتطم رأسها بالقطعة المدببة في نهاية المسند الحديدي للدرج، ثمّ عاد، بعد نحو ساعة، ليجد الأسرة كلّها في انتظاره سوى جدّي الذي كان مضى إلى أصدقائه في المقهى كما اعتاد في مثل ذلك التوقيت من كلّ يوم، ثمّ ليجد جدّتي ممددة على السرير في غرفة نومها وهي تهذي بكلمات لم يستطع أن يتبين منها سوى ثلاث، الله ينتقم منك، كما لم يستطع معرفة مَن تقصد، جدّي أو الكلب عبدو، بتعبيره، الذي قلبَ حياة أسرة أبو حمدو رأساً على عقب.

- احكِ أمّي، احكِ.

ولم تحكِ أمّي لي بعد ذلك شيئاً، بل اكتفت بالقول إنّ إرادة الله فوق كلّ إرادة، وإنها لم تشكُ يوماً لأحد من أسرتها وطأة الحياة التي كانت تقاسي مع أبي، وأكملت:

- يوم، يحيى، ايمت بدّي أفرح فيك؟

إشراق (8)

مُتّ مِن جَورِ سادَة قَد أَحَلّوا
قَتلَ مَن لا لهُ سِوى العشقِ ذَنبُ
صارَلي في هَواهُ رُتبـةً ما
حازَها في هَواهم قَطُّ صَبُّ
عَبراتٌ تَهمي وَجِسمٌ نَحيلٌ
وَفُؤادٌ عَلى التَّقاطعِ يَصبو
وَضُلوعٌ مِنَ الجَوى واهِيات
وَدُموعٌ بِذائِبِ القَلبِ سكبُ

* * *

سهر الورد (8)

لُجين تصغرني بعشر سنوات، حصلتْ على الإجازة في التربية عندما كنت في فرنسة. طوال السنوات الخمس التي أمضيتها هناك كنتُ بعيدة عنها جسداً فحسب، أمّا روحي فقد كانت أقرب إليها ممّا يفصل بين تويج زهرة وكأسها. كنتُ، وهي، على تواصل كلّ يوم من خلال غير برنامج محادثة، وكانت كلّ واحدة منّا تقدّم ما يشبه التقرير للأخرى عن يومها كلّه.

قبل أشهر قليلة من تخرّجها تمنّى إبراهيم، زميلها في الجامعة، عليها قبول دعوته لمشاركته القهوة في مقصف الكلّية، فلم تتردّد على الرغم من أنها اعتادت الرجوع إلى البيت فور انتهاء محاضراتها، لتكون إلى جانب أمّي في رعاية ميخائيل الذي كان أصيب بالشلل بخطأ طبي وهو في السابعة من عمره.

لم تتردّد، كما قالت لي، لسببين: لأنّ إبراهيم لم يتردد يوماً في الاستجابة لأيّ طلب منها، ولاسيما مساعدتها في مقرر علم النفس العام الذي لم تكن تستطيع حضور سوى القليل من محاضراته لالتزامها بمرافقة ميخائيل إلى مركز للمعالجة الفيزيائية، ولأنّ قلبها كان يحدّثها بأنّه سيجهر أخيراً بما كانت تنتظر جهره به منذ أشهر، منذ رأته، وهي إلى جواره في القاعة، يكتب اسمها على دفتره، ويرسم فوقه قلوباً أشبه بطيور تحلّق فوقه.

صحيح، كما قالت أيضاً، إنّ جهره لن يعني شيئاً في نهاية المطاف، ولكنها تتوق إلى سماعه وهو سيحدثها عن إحساسه بها، وعن مشاعره نحوها.

نهاية المطاف؟! قلتُ لها، وأضفتُ: تعنين لأنّه كاثوليك؟! ألم ننس بعد ما يزيد على مئتي سنة الدم الذي سُفك من أبناء الطائفتين في حلب، الأرثوذكس والكاثوليك، بسبب فتنة من الباب العالي آنذاك؟ أنتِ ما الذي تريدينه، دعي الكنيسة على طرف، وقولي ما الذي تريدين أنت؟ فقالت إنها تريده ولكنها لا تريد في الوقت نفسه أن تسبب الأذى لأحد، وكانت تعني الأسرة، أسرتنا التي، منذ وعيتُ، لم تغب أحداً عن الصلاة في الكنيسة باستثناء آحاد لا يتجاوز عددها أصابع اليدين لأسباب تتعلق بميخائيل أحياناً وتهوّر الشتاء أحياناً ثانية.

فور عودتها إلى البيت من لقاء إبراهيم كتبتْ لي تقول إنّها كانت تتمنى لو أنها نسيت جوالها في البيت، لو أنّ أحداً سرقه، لو أنّه سقط من يدها أو حقيبتها، فتهشّمَ، لأنّ أمّي كانت، بين وقت وآخر، تستعجلها العودة إلى البيت. كانت تتمنى لو أنّ الزمن توقّف عند اللحظة التي سمعت فيها إبراهيم وهو يقرأ من ورقة بخطّ يده، ثمّ أعطاها له وهو يودعها: لجين، لثغُ اللمى، لوزُ اللغة، جوى الجمر، ياء اليمام، نخبُ الندى.

أعدتُ السؤال: أنتِ ماذا تريدين؟ فردّت: أريد وأخاف. قلتُ: ممّن؟ الأسرة؟ الناس؟ الكنيسة؟ قالت: أجل. قلتُ: اتبعي قلبكِ. ثمّ أضفتُ ممّا كنتُ قرأتُ في رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي: "**وكلّ ما فعلتُم، فاعملوا من القلب، كما للربّ ليس للناس**".

لم تكن لجين، وأعترفُ لم أكن أنا أيضاً، نتوقّع أن يكتفي أبي بالسؤال نفسه لها: أنتِ ماذا تريدين؟ ثمّ بعد أن تكتفي هي بالصمت أن يسأل من جديد: تثقين به؟ ثم بعد أن تومئ برأسها بالإيجاب أن يقول: اتركي أديل لي.

أديل، أمّي، أرثوذكسية أكثر من آباء المذهب نفسه، فكيف لأبي أن يقنعها؟ حسبتُ، ولجين تحكي لي ذلك، أنّه لا يريد للجين أن تنشغل بغير أمر واحد هو امتحاناتها الأخيرة في الجامعة، ألا يكون ثمة ما يؤرقها غير نجاحها، ولكن ما حسبته لم يصمد طويلاً، إذ سرعان ما كتبت لجين، بعد يومين من حديث أبي معها، تقول إنّ أمّي غمزت لها، بينما هما وميخائيل في غرفة الجلوس، أن تلحق بها، ففعلت فوراً، وإنها لم تكد تقف أمامها وقلبها يكاد يغادر صدرها، حتى سألتها من دون مقدّمات:

- ورد تعرف؟

إشراق (9)

يا خَليّ البالِ هَلّا
تَدخل الحَانَ وَتَعشق
إنّ لَيل الصَدّ وَلّى
وَصَباحُ الوَصلِ أَشرَق

وَمقـامُ الحَبِّ جَـلّ

لا يُضـاهيهِ مَقـامُ

هَكَـذا العَيش وَإلّا

فعَلى العَيشِ السلام

كأنّ الريح (8)

نقْرٌ خفيفٌ على زجاج النافذة، ثمّ تنفتح النافذة بنفسها، ثمّ وسط الغرفة رجل بثياب ما رأيت من قبل، ثمّ الرجل يقول:

- يحيى بن حبش، شهاب الدين السهروردي.

ثمّ عندما تقع عيناه على كتاب هياكل النور غافياً على طاولة صغيرة قرب سرير النوم، فالرسالة هاجعة فوقه، يضيف:

- قرأتها ولم تفعل.

ثمّ وهو يستطلع الغرفة حوله:

- ريحٌ صرصرٌ أشدّ فتكاً من ريح المغول.

ثمّ وأنا ألوب بعينيّ من شيء إلى آخر في الغرفة:

- قم، فتوضأ.

ثمّ وأنا طاعنٌ في الصمت:

- سنذهب إلى تربة الشيخ افتخار الدين.

لم أكن أحلم، رأيتُ الشيخ شهاب الدين، وسمعتُ صوته، ولكنني لم أكن أقوى على قول شيء. كان لساني معقوداً، ورأسي مزدحماً بالأسئلة عن الريح الصرصر التي ستأتي على حلب، وستكون أشدّ فتكاً من ريح المغول. تابع السهروردي يقول:

- خذلتني حلب، لكن حلب أحبّ بقاع الأرض إليّ.

بغتة انفكّت عقدة من لساني، فقلت:

- الوقتُ آخر الليل، بل آخر آخره.

قال:

- الظلمةُ ظلمات العقل والقلب.

انفكّت عقدة ثانية، فسألتُ:

- أيّ ريح صرصر يا شيخ؟

- ستأتي على حلب وتنهش البشر والشجر والحجر.

انفكّت عقدة ثالثة، فتابعتُ:

- طاعون؟ زلزلة؟

ولم يدعني الشيخ أكمل، فقال:

- أظلمُ، وأوحشُ، وأقتلُ.

ما إنْ بلغنا تربة الشيخ افتخار الدين الهاشمي في المقامات، حتى سفَرَ الشيخ شهاب الدين عن رأسه، وضع عنه القلنسوة الحمراء الطويلة، ثم جثا على ركبتيه عند رأس الشيخ افتخار الدين، ثمّ سمعتُه يقول:

- دفعتَ عني ما استطعتَ من الأذى، فادفعْ عن الحلوية، عن حلب، ما تستطيع يا شيخ افتخار الدين، فالريح ريح موت.

ولم أكن أحلمُ، سمعت صوتاً يتشقق من خلل التراب:

- لا تدفع الريحَ سوى روح يا شهاب الدين.

ثمّ يبزغ الصوت أكثر:

- روح الحقّ.

ثمّ أكثر:

- والحقّ هو الله.

قال الشيخ شهاب الدين:

- فهي واقعةٌ إذن!

ثمّ الشيخ افتخار الدين يتلو بصوت مختلط ببكاء:

- **يُضلُّ مَن يشاءُ ويهدي مَن يشاءُ، ولتُسألُنَّ عمّا كنتم تعملون.**

إشراق (10)

بَلاءٌ ليسَ يُشبِهُهُ بَلاء
عَداوَة غيرِ ذي حَسَب وَدينِ
يُبيحك مِنه عرضاً لَم يَصنهُ
وَيَرتَع مِنكَ في عرض مَصونِ

المؤيّد بالملكوت (3)

ما إنْ بلغتْ مسامعَ الملك الظاهر الضجة التي أثارها مشايخ حلب، ولاسيما رمي السهروردي بالزيغ و انحلال العقيدة، حتى بلغته دعوة منه لحضور مجلسه، وبعد أنْ أصغى إليه، وتبيّنَ منزلته في العلم، جعله من خلصائه، و أنزله من نفسه منزلة كبيرة، فأوغر ذلك صدور الحسّاد، وأخذوا يرمونه بمزيد من نبال حقدهم، وسهام موجدتهم، ولم يدعوا نقيصة إلا نسبوها إليه، ومنها الإلحاد والزندقة، فادّعاء النبوة.

ثمّ لم يكن منهم إلا أن جمعوا أنفسهم مصحوبين بكثير من الدهماء، ومضوا إلى الملك الظاهر، ورجوه أن يصدر أمراً بإهدار دمه، فردّهم بخفّي خيبة وخذلان يقيناً منه بعلوّ كعب الشيخ على كعابهم في العلم، إلا أنهم لم يستسلموا للهوان الذي ألحقه بهم، فكتبوا إلى صلاح الدين ليدرك ولده قبل أن تتلف عقيدته بسبب تقريبه إليه، بتعبيرهم.

وكان الكلابيان، ابنا جهبل، زين الدين ومجد الدين، الفقيهان في المدرسة النورية، أكثر أولئك المشايخ نقمة عليه، و أكثرهم إيقاداً لسعير البغضاء له، فما كان من صلاح الدين إلا أن كتب بخطّ القاضي الفاضل إلى الظاهر قائلاً له: «إنّ هذا الشاب لا بدّ من قتله، ولا سبيل إلى إبقائه حيّاً بوجهٍ من الوجوه»، وكان ذلك سنة خمسمئة وخمس وتسعين للهجرة، ألف ومئة وإحدى وتسعين للميلاد.

وعندما تيقنوا من رفض الظاهر استجابته لطلب صلاح الدين عادوا إلى جمع صفوفهم من جديد، وإلى دعوته تنفيذ أمر أبيه، فما كان منه ليخمد غضب العامة

الذين أثاروهم إلا أن كتب إلى صلاح الدين يسأله المو افقة على مجلس للمناظرة بين الشيخ وبينهم في مجلسه، فأجابه بالقبول.

* * *

سهر الورد (9)

فور عودتي من الإيفاد وضعتُ نفسي تحت تصرف الجامعة، ثمّ بدأتِ الملحمة، من ترجمة الثبوتيات إلى شهادة الدكتوراه، إلى تعديل الشهادة، إلى قرارات المجالس المختصة، إلى قرار وزير التعليم بالتعيين بصفة معيدة عائدة من الإيفاد، ومن ثم، وأخيراً بصفة عضو هيئة تدريس.

قلتُ ملحمة، كانت كذلك حقاً، كما لو أنني كنتُ أبحث عن نبتة الخلود كما حاول جلجامش، من هزيمته أنكيدو، إلى رحلتهما معاً إلى غابة الأرز، فقطعهما شجرة الأرز المقدّسة، إلى عقاب عشتار له لرفضه التقرّب منها، إلى موت أنكيدو... إلى نهاية الملحمة، أي عودة جلجامش إلى أوروك وهو يجرّ أذيال الخيبة بعد أن ابتلعت الأفعى نبتة الخلود بينما كان يستحم في مياه النهر.

لم تبهرني فرنسة يوماً، ولم تستطع، طوال السنوات الخمس التي أمضيتها فيها، أن تسلبني يقيني بأنّ الشرق نور العالم، لا باريس التي يُقال إنّها عاصمة النور، ولكنني كنت معجبة باحترامها الإنسان، على النقيض من الدوامة التي يجد العربيّ نفسه فيها وهو يبحث عن إنسانيته المهدورة عن سابق إرادة وتصور في معظم، إن لم يكن في مجمل بلاد العرب.

أخيراً صرت عضواً في الهيئة التدريسية في قسم علم الاجتماع في كلية الآداب في جامعة حلب، أمّا ما لم يكن أخيراً، فهو متوالية الارتطام بغير قهر في غير شأن، قهر المفاجئة بلهاث معظم الأساتذة وراء مواقع المسؤولية بدلاً من لهاثهم وراء ما يثمّر معارفهم العلمية، إلى قهر المفاجئة بقيام بعضهم بإعطاء دروس خاصة للطلاب، فقهر المفاجئة بكيد بعضهم لبعضهم الآخر، وليس أخيراً حربهم الشعواء لكلّ وافد جديد

إلى الكلية، ولا سيما مَن يهدّد بعلمه ومعرفته وقيمه الحصون الزائفة التي بنوها لأنفسهم، وأوّل تلك الحصون ما كان يخفي خلف أسواره عراءهم المعرفيّ وثباته عند حدود الأبحاث التي كانوا حصلوا بموجبها على شهاداتهم، والتي كان يتردّد في الكلية أنّ بعضاً منها لم ينجزوها بأنفسهم، بل ثمة من أنجزها لهم لقاء حفنة من المال.

كنتُ ممتلئة رغبةً في ردّ الدين لبلدي، دينه الذي لن أنسى في إيفادي إلى فرنسة، والدراسة في أرقى جامعاتها، وتسلّمي رواتب شهرية تمكنني من العيش بكرامة ومن ادّخار بعض منه، ولكن، سنة بعد أخرى، وجدتُ نفسي أغرقُ في خيبة بعد خيبة، وفي مواجهة خراب بعد مواجهة، ولم أكن أعرف أحداً من المسؤولين، فأحكي له، لا لينصفني ممّن لم يرق لهم وجودي في الكلية، وفي القسم على نحو خاص، بل ليحاول، ما استطاع، كبح قطار الخراب من المضيّ نحو الهاوية. لم يكن لي من عزاء غير المقال الأسبوعي الذي كنتُ أكتبه في الصحيفة، وأومئ من خلاله إلى خراب هنا وآخر هناك.

في السنة الأولى من عملي آثرت الالتزام بحكمة القرود، لا أسمع لا أرى لا أتكلم، على الرغم من أنّني رأيت بنفسي غير موقف يجهر بضمور القيم التي يجب أن يكون الأستاذ الجامعيّ أوّل حرّاسها والعاضّين بنواجذهم عليها.

آثرت ذلك ليقيني بأنّه ما مِن أحد يستطيع إصلاح العالم بمفرده، ودليل ذلك الأنبياء الذين لم يتمكنوا من نشر رسالاتهم إلا بعد أن اجتمع حولهم مؤمنون بهذه الرسالة، ولكن، ومع بدء السنة الثانية، امتدت ألسنة الحرائق إلى بعض أطرافي، ثمّ في السنة الثالثة كادت تأتي عليّ لولا أنّ رئيس الجامعة علمَ بمضمون المقال الذي كتبته في الجريدة، فطلب إليّ مراجعته، ثمّ، بعد يوم من ذلك، وجّهَ بإعادة الاعتبار إليّ.

لم أتحدث في المقال عن نفسي، بل عمّا يتهدّد مخرجات التعليم العالي في حال المضيّ في خلط الحابل بالنابل فيما يعني تدريس المقررات، وكنت أقصد رئيس القسم الذي كان يوزع المقررات بين الأساتذة كما يشاء المسؤولون منهم في فرع الحزب، وليس كما هو الاختصاص الدقيق لكلّ منهم، طمعاً في تمكينهم له من أن يكون عميداً للكلية في المستقبل، أو التمديد له لدورة ثانية على الأقلّ.

بعد طلب رئيس الجامعة إلى عمادة الكلية موافاته بجدول يتضمن أسماء أعضاء

قسم علم الاجتماع، واختصاصاتهم الدقيقة، وأسماء المقررات التي تم تكليفهم بتدريسها، اكتشف بنفسه أنّني واحدة من خمسة ممّن طالهم عسف رئيس القسم، فطلب إلى عميد الكلية تنبيه رئيس القسم بوجوب الالتزام بتوزيع المقررات وفق الاختصاصات، ولولا تدخل رئيس فرع أمني كان رئيس القسم على علاقة به من خلال ابنته التي كانت طالبة في القسم كما علمتُ فيما بعد، لكان وقّع القرار المتضمّن إعفاءه من مهمته.

كأنّ الريح (9)

دفعَ الدكتور تمّام، نائب رئيس الجامعة، بورقتين أخرجهما من مصنّف كان على سطح طاولة صغيرة إلى جوار مكتبه، ولم أكد أتمّ قراءتهما وأعرف أسماء الموقّعين في ذيل ثانيتهما، حتى استعدتُ تلك المَحاضر تلو المَحاضر التي كان بعض ممّن كان يدّعي الفقه في حلب يسيّرها إلى السلطان صلاح الدين، ويخوّفونه فيها من أن يفسد السهروردي اعتقاد ولده الظاهر، وآخرها المحضر الذي كتبه القاضي الفاضل بخطّ يده ويقول فيه: لا بدّ من قتله، يعني السهروردي، ولا سبيل إلى أن يُطلق ولا يبقى بوجه.

سألني الدكتور تمّام عن سبب صمتي بعد أن انتهيت من قراءة المحضر الذي كان بين يديّ وكنت أعدتُه إلى الطاولة الصغيرة جواره، فاكتفيتُ بصمت جديد بينما كان رأسي يزدحم بألم باهظ تضيق قلعة حلب باحتمال جنونه، وبينما ألهثُ وراء تفسير لهذا الرجس الذي لا يتردد بعض البشر من ارتكابه، كتابة التقارير، المَحاضر بالتعبير القديم. أعاد الدكتور تمّام السؤال، فقلت:

- أنت تصدّق دكتور؟

- ربّما أيّ شيء آخر سوى أنك كما ورد في التقرير.

ثمّ أضاف:

- أطلعتك عليه لتعرف، وتحذر.

ثم ألقم آلة إتلاف الورق جواره الصفحتين دفعة واحدة، غادرته ورأسي يضجّ بغير سؤال عن قيمة الشهادات العالية التي حازها هؤلاء، الشهادات التي لا تتجاوز كونها

ورقاً صقيلاً ومقوّى قليلاً وممهوراً بخاتم ذهبيّ، والتي لا تعني شيئاً في مدوّنة القيم التي يجب أن يتصف بها أصحابها، بل هي على النقيض من ذلك، قطبها المضاد تماماً.

كان الدكتور تمّام أستاذي في السنة الخامسة، وكان من أكثر مَن تتلمذت لهم علماً، بل جدارة بالشهادة التي يحملها، ولذلك كنت أجلّه وأحترمه، وكان بدوره يحتمل أسئلتي الكثيرة ولا يضيق بها مثل غيره من الأساتذة الذين غالباً ما كان بعضهم يتعلّل بأنّ السؤال خارج محتوى المحاضرة، وبعضهم الآخر بأنّه سيجيب بعد انتهاء المحاضرة، ثمّ لا يفعل.

في الطريق إلى مقام السهرورديّ كنتُ أستعيد أسماء الموقّعين على التقرير، وأحشرج بنداء مكتوم إلى أمّي حلب التي احتضنت هؤلاء، فأكرمتهم بما لا يليق بهم، ثمّ أخذوا يُعملون خناجرهم في ظهرها وظهور أبنائها، لكأنّ ثمّة ثأراً لهم من حلب. حلب المنهكة منذ كانت بالغدر، والحسد، والغيرة.

وضعتُ رأسي على كتف الشيخ شهاب الدين، وبكيت، وحكيت، فأنهض رأسي وأخذه إلى صدره، ومسح براحة يمينه عليه، وتلا بعضاً من آي القرآن الكريم، ثمّ على نحو مباغت دفعه عنه، واحتواه بكلتا راحتيه، وقال وثمة ثلمان يزدادان عمقاً بين حاجبيه:

- **عبَدَة البطن والفرْج في الدارين لُعنوا لعناً يقطع أدبارهم ويوردهم إلى سوء البرازخ المشحون بالعذاب.**

- يتكاثرون يا شيخ شهاب الدين، يتناسلون.

- كنْ ذا عزيمة، فإنّ عزائم الرجال تحرّك الأسباب.

ثمّ لم يكد يُتمّ كلامه، حتى تناهى إلينا صوت أقدام خادم الجامع ومؤذّنه، فلم يكن من الشيخ إلا أن وضع راحة يمينه على رأسي، فرأيتني بين جمْع من الرجال وهم يخلعون أحذيتهم في العتبة المؤدية إلى صحن الجامع استعداداً للحاق بصلاة الجماعة.

كان الشيخ قال لي أن أكتفي بالوقوف أمام باب الجامع، وأردّد اسمه في سرّي، عندما أشاء رؤيته، فينفتح الباب لي، ثمّ أمضي نحو قبره، فأراه في انتظاري جوار القبر، أمّا عندما أشاء مغادرته، أو عندما تتوجب مغادرته، فيكفي بأن يمسح براحة يمينه على

رأسي، لأجد نفسي بين جمْع من الناس، في الشارع، أو أمام باب الجامع، أو في الطريق المؤدي من مدخل بوابة القصب إلى الجديدة.

إشراق (11)

تَوَلَّت بهجَةُ الدُّنيا
فَكُلُّ جَديدها خَلَقُ
وَخانَ النّاسَ كُلُّهُم
فَما أَدري بِمَن أَثِقُ
رَأَيتُ مَعالِمَ الخَيرا
تِ سُدَّت دونَها الطُّرقُ
فَلا حَسبٌ وَلا نَسَبٌ
ولا دِينٌ ولا خُلقُ

* * *

سهر الورد (10)

أصواتٌ تختلط بأخرى يصلُ صخبها عالياً إليّ من ساحة الكلّية. أمضي نحو نافذة مكتبي المطلة على الساحة، فأرى بضع عشرات من الطلاب والطالبات وهم يرددون: الله حرّية سورية وبسّ.

أرقبُ المشهد بعينين متسائلتين عمّا إذا كان ما أرى وأسمع حقيقة وليس مشهداً في رواية أو فيلم سينمائي، وما هي بضع دقائق، وما إن انتهى بعضهم من التصوير بهواتفهم المحمولة، حتى تفرّقوا شتّى. بعض منهم دخل إلى بهو الكلية، وبعض آخر ركض إلى ما وراء جدارها الخلفيّ، وبعض ثالث قفز فوق السور الحديدي إلى الشارع، واثنان يحاولان الإفلات من اثنين آخرين كانا يمسكان بهما من أيديهم وثيابهما، ثمّ يدفعانهما نحو الداخل، ثمّ تبتلع الساحة المشهد كأنْ لم يكن.

قبل أن أعاود الجلوس وراء طاولتي لأستكمل قراءة الأوراق التي كنتُ تسلّمتها من

الطلاب في نهاية المحاضرة، والتي كانت تتضمّن إجاباتهم عن السؤال الذي كنتُ طرحته عليهم في محاضرة سابقة حول المكوّنات الاثنية للمجتمع الحلبي.

قبل أن أجلس تماماً تعالت أصوات صاخبة في الممر المؤدي إلى مكتب عميد الكلية، فخرجت أستطلع الأمر، فرأيت الطالبين اللذين كانا بين المتظاهرين وهما يتابعان محاولاتهما الإفلات من الاثنين الآخرين، وفجأة نبتَ الدكتور زيد، رئيس القسم، في المكان، وسمعتُه يدعو الأربعة إلى مكتبه قبل أن يدخلوا إلى مكتب العميد.

لا أعرف ما الذي دفعني إلى البقاء مسندة ظهري إلى جدار الممر، لكأنني كنتُ أحدس بأنّ ثمّة مفاجأة سأشهدها بنفسي بعد دقائق، وهو ما حدث حقّاً بعد نحو ربع ساعة من دخول الجميع إلى مكتب رئيس القسم، حيث رأيتُ الطالبين يخرجان من المكتب بمفردهما وهما يضحكان، ثمّ سمعتُ أحدهما يقول للآخر:

- أما قلتُ لك إنّ الدكتور زيد معنا؟

في اليوم التالي، وبينما كنت أتجاوز الباب الخارجيّ للكلية في طريقي إلى المبنى الداخلي لها، رأيتُ بضع عشرات أيضاً من الطلاب والطالبات في الساحة، وسمعتُ الهتاف نفسه الذي كنتُ سمعته بالأمس، بالإضافة إلى هتافات أخرى بعض منها يعني النظام، وآخر الرئيس، وثالث درعا وحمص، وما كدتُ أبلغ الباب الداخليّ، حتى رأيتُ شاباً عريض المنكبين يمسك بأحد المتظاهرين من أعلى قميصه، ثم يسحبه إلى الداخل، ثمّ رئيس القسم يظهر من وراء الباب، وهو يقول لكليهما بأن يلحقا به.

صعدتُ إلى مكتبي في الطابق الثالث استعداداً لمحاضرتي، ولم أكد أفتح الباب، حتى سمعت صوت أبي عرب، المستخدم في الكلية، يصبّح عليّ، ثم يقول لي إنّ العميد طلب منه إبلاغي بضرورة مراجعته قبل دخولي إلى المحاضرة.

على عجل وضعتُ حقيبتي في المكتب، ثم مضيت إلى مكتب العميد، وما إنْ أنهيتُ تحيتي لسكرتيرته، حتى انفتح الباب، وحتى رأيت الدكتور زيد والشابين أمامي، وسمعتُ الأول يقول للشاب عريض المنكبين:

- سمعتَ بنفسك، غير مسموح لأحد من الطلاب التدخل بما يحدث في ساحة الكلية.

- أهلاً دكتورة ورد، تفضلي.

دعوة العميد لي بالدخول منعتني من معرفة ردّ الشاب على رئيس القسم، وعلى الرغم من أنني لم أسأل العميد عمّا كان يجري من حديث بينه وبين الثلاثة، فإنه بادر بنفسه إلى القول:

- مَن كان يتخيّل أن يحدث هذا في البلد؟

اكتفيتُ بالصمت، فأضاف:

- الدكتور زيد كنز في هذه الظروف.

ثمّ وهو يقرّب كرسيّه من زاوية الطاولة تابع:

- لولا حكمته لما عرف أحد مصير ثلاثة من الطلاب على الأقلّ.

استفزتني كلمة الحكمة، ولاسيما أنني كنت أعرف عن الدكتور زيد ما بدا لي أن العميد لا يعرفه، ولاسيما ما كان يكتب في صفحته في الفيس بوك، وما كان تلفزيون حلب اليوم المعارض يتلقفه من تلك الكتابات وينشرها بوصفها أحد صور الحراك الثوري، حسب التلفزيون نفسه، ضد النظام، ثم ما كان يتناهى إليّ عمّا يقوله في المحاضرات.

قلتُ:

- أتعتقد أنّ الحكمة هي السبب؟

ولم يكد السؤال يضرم نار دهشة طائشة في عينيه، حتى ألحقته بآخر:

- أتقرأ ما يكتب؟

ثمّ بثالث:

- أسمعت ما يقول في المحاضرات؟

وقبل أن أدفع برابع انفتح باب المكتب، ودفعت السكرتيرة إليه بورقة كانت في يسراها:

- آسفة دكتور، وصل هذا الفاكس.

كأنّ الريح (10)

في كلّ لقاء مع الشيخ شهاب الدين كنت أحمل إليه سؤالاً أو أكثر ممّا كنت ألهث وراءه في بطون الكتب عن سيرته ومؤلفاته وأقواله وأقوال معاصريه عنه، وفي كلّ إجابة له كنت أزداد يقيناً بأنّ كثيراً من كتب التاريخ يقول ما يريد المؤرخ أن يقوله لا ما يقوله التاريخ نفسه، أو ما تقوله الحقيقة نفسها.

في ليلة طائشة الظلمة والبرد نقلتُ إليه اختلاف المؤرخين حول طريقة موته، وعددتُ له ما قرأت، فقال:

- كلّها معاً، وغيرها.

- لم أفهم يا شيخ شهاب الدين.

- الموت حقّ، شربتُ كأسه كما سبقني إليها، وكما تجرّعها بعدي، ما لا يعرف عدده سوى نور الأنوار، الذي وحده نوره من ذاته، ولكن شتّان بين موت وموت. موت هو الموت وآخر هو الحياة. حبْساً، أو خنقاً، أو صلباً، أو جوعاً، أو سوى ذلك، لا يعني هذا شيئاً. المعنى في السبب والمآل. في كلّ جسم درجات متفاوتة من النور والظلمة، فإنْ غلبتِ الظلمة كان الموت فناء، وإنْ غلبَ النور كان معبراً إلى الأبدية. للموت ألف سبب وسبب، وللميت مآلان اثنان لا ثالث لهما، فَناء أو خلود، والخلود يكون بأحد ضدّين، الظلمة أو النور. الجسد ظلمة والروح نور، ولا شيءَ أظهرُ من النور.

كنتُ أصغي إليه وأستعيد بآن ما كنت قرأت له من تمييز بين أربعة عوالم في الوجود: الأنوار القاهرة، والأنوار المدبّرة، والبرزخ، والمثال القائم بذاته والمجرّد عن المادة. وعندما أعدت سؤالي أنشدني:

- قلْ لأصحابي..

ثمّ استعاد البيت الأخير غير مرة، وردّد غير مرّة أيضاً:

- لنور الأنوار حمدٌ لا يتناهى.

ثمّ سألني:

- ما الذي أعددتَ للريح يا يحيى؟

قلتُ:

- لا أملكُ من أمرها شيئاً يا شيخ شهاب الدين.

- ستبلغ حلب.

ثمّ على الأرض أمامه أخذ يرسم بشاهدته أشكالاً لم أستطع القبض على أيّ هيئة لأيّ منها، بعضها يوهم بوصفه دوائر ومثلثات ومربعات، وبعضها بوصفه هيئات بشرية في أوضاع مختلفة بآن، وثالث بوصفه حروفاً مكتوبة بشكل أشبه بالطلّسم، ثمّ تابع يقول:

- ستأتيها الريح من غربها.

عبثاً كنت أبحث عن ملامح للأشكال، عن ملمح واحد لواحد منها يقودني إلى فكّ طلّسمه، فأدرك قصد السهروردي منها، ولم أكد أمسك ببعض دوالّ أوّلها، دائرة مشطورة إلى نصفين متباعدين قليلاً، حتى رفعت رأسي إلى أعلى جاهراً بوجع طائش دهمَ روحي فجأة، وحتى ألحقني الشيخ بوجع أشدّ قسوة:

- وستحيل شرقها إلى عصف مأكول.

لم يكن من ملاذ لي سوى الاحتماء بالصمت، وما إنْ رآني الشيخ أغرق في قاعه، حتى أخرج منديلاً من جيبه، وبدأ يمسح العرق الذي أخذ يتصبب من جبيني، ثمّ سألني:

- تعرف قبر زكريا؟

بإنهاك واضح سألتُ:

- النبي؟

- أجل.

- ليس القبر وحده، بل صاحبه أيضاً، كما صرت أعرفك يا شيخ شهاب الدين.

- ستأتي الريح على القبر.

- في الجامع الأمويّ!

- وستأتي على الجامع.

نهر الذهب (2)

على بُعد بضع مئات من الأمتار من الغرب من قلعة حلب ينهض الجامع الأموي، أو الجامع الكبير أو جامع سيدنا زكريا بتعبير أهل حلب.

في بعض المصادر التاريخية أن موضعه كان بستاناً لكنيسة القدّيسة هيلانة، وأنّ الجانب الشمالي منه كان مقبرة للكنيسة، وأنّ سليمان بن عبد الملك هو الذي بناه وتأنّق في بنائه ليضاهي به ما عمله أخوه الوليد في جامع دمشق، وقيل إنه من بناء الوليد أيضاً، وإنّ بعض آلته كانت من كنيسة قورص التي كانت تُعد إحدى عجائب الدنيا، وإنّ ملك الروم بذل في ثلاثة أعمدة كانت فيها سبعين ألف دينار، فلم يسمح له الوليد بها.

بقي الجامع على حال بنائه الأول إلى أن نقض العباسيون ما كان فيه من الرخام والزخارف ونقلوها إلى جامع الأنبار، كما فعلوا بالكثير من آثار الأمويين في بلاد الشام.

سنة ثلاثمئة وإحدى وخمسين للهجرة، الثانية والستين بعد المئة التاسعة للميلاد، غزا الروم حلب، فأعملَ نقفور، قائد جيشهم، الدمار والخراب والموت في المدينة، وأحرق بيوتها كما أحرق الجامع، وبعد عودة سيف الدولة إليها رمّم بعضاً منه، وبنى ابنه أبو المعالي سعد الدولة سنة ثلاثمئة وأربع وخمسين، بعد وفاته، قبة وسطه، طول عمودها سبعة أشبار، وكان فيها جرن رخام أبيض غايةٌ في الكبر والحُسن، يُقال إنه كان مذبحاً لبعض الكنائس التي كانت بحلب.

ليلة الأربعاء السابع من شوّال سنة خمسمئة وأربع وستين أحرقته الإسماعيلية كما أحرقت الأسواق حوله، فأعاد نور الدين الزنكي بناءه وترميمه وأضاف إليه. وسنة ستمئة وثمان وخمسين استولى التتر على حلب، ودخل صاحب سيس إلى الجامع، وقتلَ به خلقاً كثيراً، وأحرق الحائط القبليّ منه، وأخذ الحريق غرباً وقبلة إلى المدرسة الحلاوية، ثم أعاد إعماره نائب حلب آنذاك، قرا سنقر، وفرغ من إعماره سنة ستمئة وأربع وثمانين.

الجامع مستطيل الشكل، يبلغ طوله من الغرب إلى الشرق مئة وخمسة أمتار،

وعرضه من الجنوب إلى الشمال ثمانون متراً. وله أربعة أبواب: جنوبي يُعرف بباب النحاسين لأنه يؤدي إلى سوق النحاسين، ويُدخل منه إلى القبلية، وإلى الشرق منه سوق الصرماتية وإلى الغرب سوق الحبال، وشرقي يعرف بباب سوق الطيبية، وهو أمام سوق المناديل، وشمالي يُعرف بباب الجراكسة، جوار المئذنة، وغربي يُعرف بباب المساميرية لأنه يواجه حوانيت الحدادين الذين يصنعون المسامير، وأمام هذا الأخير باب المدرسة الحلوية. وفي الجامع أربعة محاريب كان كل واحد منها مختصاً بمذهب، الأصفر للحنابلة، والكبير على يسار المنبر للشافعية، والغربي للحنفية، والأخير للمالكية. وإلى جانب المحراب الكبير في الجامع حجرة مربعة تبلغ أربعة أذرع، جدرانها من أجمل أنواع الخزف والقاشاني، وبابها قنطرة عالية حجارتها سود وصفر محمولة على عمودين عظيمين، وفيها مصحف منسوب إلى قلم الصحابي المغيرة بن شعبة، وفي وسطها ضريح عليه كسوة من المخمل المزركش.

في تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار كتب ابن جبير يقول:

وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها، قد أطافَ بصحنه الواسع بلاط كبير متسع، مفتّح كلّه أبواباً قصرية الحُسن إلى داخل الصحن، عددها ينيف على الخمسين بابا، فيستوقف الأبصار حُسن منظرها، وفي صحنه بئران معينتان، والبلاط القبلي لا مقصورة فيه، فجاء ظاهر الاتساع والانشراح. وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره، فما أرى في بلد من البلاد منبراً على شكله وغرابة صنعته، واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب، فتجللت صفحاته كلها حسناً على تلك الصفة الغريبة، وارتفع كالتاج العظيم على المحراب، وعلا حتى اتصل بسمك السقف، وقد قوّس أعلاه، وشرف بالشُرف الخشبية القرنصية، وهو مرصّع كله بالعاج والأبنوس، واتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال، فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا. وحُسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف.

* * *

سهر الورد (11)

على عادة يحيى كان مستغرقاً في كتاب أمامه، وما لم يكن من عادته ألا يُهرع لاستقبالي، وألا يردّد لازمته التي أحبّ مهما يكن من أمر أنها ليست صحيحة دائماً: تأخرتِ.

من عادته، وما إنْ كان يسمع وقع خطواتي في بهو المركز، التي يميزها كما قال لي مرة من خطوات الآخرين، حتى كان يطوي الكتاب الذي يكون بين يديه أو أمامه، ثمّ ينهض من وراء مكتبه، ثم يجرّ كرسيّه ليصير قريباً من مكتبي، ثمّ نبدأ معاً طقوس إعداد القهوة، وخلالها وبعدها نعاند الخواء الذي يستسلم المركز لبلادته منذ نشأته إلى الآن. نتحدث في غير شأن، أو ينصرف كلّ منا إلى قراءة كتاب، أو نستقبل مدير المركز الذي يتردد علينا أحياناً، كما يفعل مع غيرنا في المكاتب الأخرى من المغضوب عليهم، لا ليتابع أمراً، بل ليبدد إحساسه الفادح بالفراغ.

هذا الصباح لم يفعل يحيى، لم يرفع رأسه عن الكتاب، ولم يردد اللازمة، ولولا أنني صرتُ على بُعد خطوة منه، لما كان نهض بتثاقل واضح، ثم استعاد اللازمة بصوت خفيض، ثمّ أتبعها بالعودة إلى كرسيه كمن يؤدي واجباً عليه.

قدّرتُ أنّه غاضب لأنني لم أستجب لدعوته مساء أمس لمرافقته إلى المقهى المطلّ على القلعة الذي اعتدنا الجلوس فيه بين مساء وآخر. اتصل بي الساعة التاسعة مساء، وتمنى عليّ أن ألحق به إلى المقهى، فاعتذرت لأنّ صحّة ميخائيل لم تكن بخير، ولم يكن ممكناً أن أدع أمّي وحدها إلى جانبه ولجين مشغولة بإعداد مشروعها للتخرج.

- وحياة الربّ ما قدرت.

دفعتُ بالكلمات بسرعة كمن يلقي عن ظهره صخرة، فدفع إليّ بنظرة أضرمت إحساسي بالضيق أكثر، ولم أجد نفسي إلا وأنا أهرع إلى باب المكتب، فأغلقه، بل أحكم إغلاقه، ثم أعود إلى يحيى، وأمسك قبضتيّ كرسيه بيديّ، وأديره نحوي، ثمّ أحتوي وجهه براحتيّ، وأطبع قبلة على خدّه، وأردد:

- بحياة العدرا لا تزعل.

برقّة بالغة تغصّ بحزن رجيم قال:

- كنتُ أحتاجك كثيراً يا ورد.

وبينما هو يأخذ رأسي إلى صدره، ويحتويه أكثر، رأيتُ ظلال دمعتين في عينيه، ثمّ سمعته يقول بصوت راعش:

- حلب يا ورد.

ولم أكن بحاجة لأسأله عمّا يقصد، فلقد كانت الأحداث في درعا وحماة وحمص وجسر الشغور تنبئ بأنّ البلاد على فوّهة بركان ستتناثر حممه في غير مكان ممّا سبق حتى تشتعل الحرائق في مختلف المحافظات والمدن والقرى، وحتى تجد البلاد نفسها، ونجد أنفسنا معها، في مواجهة متواليات من الأسئلة التي قد لا نعرف الإجابة عن أيّ منها، وبأنّ حلب لن تنجو من طيش هذا البركان مهما يكن من أمر أنّها نأت بنفسها عمّا كان يحدث، ومن سخريتها من الأسماء التي كان المعارضون يطلقونها على أيّام الجمعة، واختيارها أسماء تخصّ طقوسها الاجتماعية الدالّة على شغف أهلها بالحياة.

أعاد يحيى عبارته:

- حلب يا ورد.

ثمّ أضاف وهو يحتوي وجهي بمطلق راحتيه:

- الشيخ شهاب الدين قال إنّ الريح ستأتي من غرب حلب، وستعصف بشرقها، وستأتي على الجامع الكبير، و...

ولم يكد يتم كلامه، حتى قطعه صوت رنين هاتف المكتب، فأرخى راحتيه عن وجهي، وأومأ لي بأن أمضي إلى الكرسي وراء مكتبي، ولا بدّ أنّه قدّرَ كما قدّرتُ أنّ أحداً، وربّما مدير المركز نفسه، رأى باب المكتب مغلقاً، وأراد أن يتأكد ممّا إذا كان أحدنا أو كلانا في الداخل، ففعلتُ وأنا أترقّب ما وراء الرنين، ولم يطل ترقّبي طويلاً إذ أسرع يحيى إلى القول بكلمات متقطعة ولاهث بعضها وراء بعض: ياسمين؟ مستشفى؟ أيّ مستشفى؟ وحدها؟ مَن عندها؟ ويُمنى؟

- خذني معك.

في مستشفى الجامعة كانت ياسمين ممددة على السرير في قسم الإسعاف وحولها أمّ يحيى ويعرب، وكانت ثمّة دماء تغطّي وجهها.

حكت ياسمين فقالت إنها ما إنْ نزلت من باص النقل الداخلي عند ساحة الجامعة، وأرادت التوجّه نحو الكلية التي عادت إلى الدراسة فيها، حتى رأت عدة باصات أهلية تنزل منها مجموعات كبيرة من الشباب والشابات، ثم يتجمعون في الساحة، ثم يعتلي اثنان جدار الباب الرئيسي للجامعة، ثم يرفعان علماً كبيراً بنجوم حمراء ثلاث، بينما كان الآخرون يرفعون قبضاتهم في الهواء وهم يرددون: الله أكبر، الله أكبر. ثم: سلمية، سلمية. ثم: الشعب يريد إسقاط النظام. ثم بعد بضعة دقائق: شبيحة، شبيحة. ثم وهم يركضون في اتجاهات شتى، ثمّ بسبب تدافعهم تجد نفسها وهي تقع على الأرض، ثمّ أقدام تدوسها، ثمّ وهي تفقد وعيها بعد أن كادت قدم ثقيلة تهرس رأسها.

بينما ياسمين تحكي كنت ويحيى نتبادل النظرات، وكنت أستعيد عبارته: حلب يا ورد، وأردّد في سرّي: معك حقّ يا يحيى في أن تخاف، في أن تقلق، في أن ترتبك روحك بهذا الحزن كلّه الذي كان يزدحم فيها منذ الصباح.

لم نعد، يحيى وأنا، إلى المركز بعد أن قال طبيب الإسعاف لنا إنّ الجروح النازفة من رأس ياسمين رضّية، ولا تحتاج إلى أكثر من تنظيفها وتغطيتها بالشاش، بل مضينا إلى مقهى القلعة، ولم نكد نجلس حول طاولة في عمق المقهى، حتى حكى لي يحيى عن لقائه بالشيخ شهاب الدين، وكان بين عبارة وأخرى يطلق نظرة طويلة وعميقة في عيني، وكنت أدرك مغزاها الذي كان يعني فيما إذا كنت أصدّق حكايته مع الشيخ شهاب الدين، أم أنني أتصنع تصديقي لها لأنني أحبّه، وأثق به. وما إنْ انتهى من آخر الحكاية، مما كان السهروردي قال له عن الجامع الأموي، وقبر النبي زكريا، حتى قلتُ له:

- طوبى لك بالشيخ شهاب الدين يا يحيى.

وبينما هو يمدّ يده إلى جيبه، وينادي عامل المقهى، نهض فجأة، ثمّ مدّ ذراعه إليّ، وحرّك رأسه في إيماءة إلى أن أنهض مثله، ثمّ قال:

- تعالي معي.

كمن يرى نفسه في حلم كنتُ مستسلمة له، ولم أكن أعرف سوى شيء واحد هو أنني معه. نهضت.. أمسكَ بيدي، أشار لسائق سيارة عامة بالتوقف.. فتح بابها الخلفي،

وبعد أن صرنا داخل السيارة وأغلق الباب قال للسائق:

- باب الفرج إذا سمحت.

نهاية شارع جادة الخندق، وقبل أن نبلغ المنعطف المؤدي إلى بوابة القصب، قال للسائق:

- على الزاوية إذا سمحت.

أمام باب مسجد السهروردي أفلت يده من يدي، ثمّ قال:

- شيخ شهاب الدين.

ولم يكد يتمّ آخر حرف من آخر كلمة، حتى رأيتُ باب المسجد ينفتح بنفسه، وحتى أمسك يحيى بيدي من جديد، فاستسلمت لها كما فعلتُ أوّل مرة، وحتى رأيتني أمام شيخ يجلس على الأرض وهو يسند ظهره إلى جدار قبر، وحتى سمعتُه، كما سمعه يحيى، وهو يقول بينما عيناه تومضان بغبطة فارهة تتراقص في بؤبؤيهما العصيين على نسبتهما إلى لون مألوف:

- سهرُ الورد.

المؤيّد بالملكوت (4)

غصّ مجلس الظاهر بالحضور، وكانت الأسئلة تنهمر على السهروردي ممّن تصفهم العامة بالعلماء والفقهاء كما تتشهى ريح صرصر دحرجة صخرة مكينة في رأس جبل، وكان يجيب عن الأسئلة بأناة، ويقرن الإجابات بالبراهين والحجج واليقين بما حصل من العلم والحكمة والإشراق وقبل ذلك من فهم النصوص الدينية، ظاهرها وباطنها، ولمّا أعيتهم الحيلة فيه قال أحدهم له:

- إنّك قلتَ إنّ الله قادرٌ على أن يخلق نبياً، وهذا مستحيل.

فقال:

- وما وجه الاستحالة؟ إنّ الله القادر على كلّ شيء لا يمتنع عليه شيء.

ولأنهم لم يكونوا يميزون الممكن في حدّ ذاته من الممكن الذي أخبر به القرآن

الكريم حكموا عليه بالكفر، ورموه بانحلال العقيدة، وطلبوا إلى الملك الظاهر المسارعة بقتله بأيّ طريق يشاء.

كأنّ الريح (11)

على الرغم من أنّ ياسمين كانت تكبرني بعامين، فإنّ زواجها كان السبب في تعثر دراستها الجامعية لسنوات. لم يكن أحد من أفراد الأسرة معها في قرارها الزواج قبل حصولها على الشهادة، وبآن لم يستطع أحد ثنيها عن القرار على الرغم من المحاولات الكثيرة لإقناعها بأنّه خطيئة فادحة، بل جريمة بحقّ نفسها، لسببين: لأنّ الشهادة الجامعية حصنٌ للمرأة ضدّ ما يتهدّدها في المجتمعات المحكومة بالوعي البطريركي الذي ينظر إلى المرأة بوصفها استكمالاً للوجود، وليس شرطاً فيه، وتابعاً للرجل قبل ذلك وليس شريكاً له، والثاني لأنّ حسان الذي تقدّم لخطبتها ربّما كان يصلح لأيّ شيء سوى بناء بيت وأسرة.

أمام إلحاح ياسمين نقلت أمّي إلى أبي قولها إنّ زميلاً لها في الكلية يرغب في طلب يدها، وإنّه على استعداد للاستجابة لأيّ شيء ممّا ستضعه ياسمين والأسرة من شروط: المقدّم والمؤخّر، المصوغات، مكان إقامة حفل الزفاف، طلبات الحفل نفسه...

كانت أمّي، كما كان أبي، وكنّا جميعاً، نريد لياسمين أن تكمل دراستها أولاً، ثمّ تختار بنفسها ما تشاء، افتتاح مكتب للمحاماة بعد فترة التدريب اللازمة أو الالتحاق بوظيفة في القضاء فيما يخصّ عملها، فالرجل الذي يليق بها فيما يخصّ الزواج، لمعرفتنا بتميزها منا جميعاً بعدم إقدامها على شيء إلا بعد أن تتفحصه من جهاته كلّها، بل بعد تفكير مطوّل فيه وحوله، أيّاً كان هذا الشيء صغيراً أم كبيراً، متناً أم هامشاً في الحياة.

تلك المرة، أي ما يخصّ زواجها من حسان، بدّدت ياسمين مجمل ما عرفناه من الحكمة المميزة لها منذ صغرها، إذ لم يكد يمضي على التحاقها بالجامعة سوى بضعة أشهر، حتى عصف حسان بكيانها كلّه، فلم تعد تلك الفتاة التي تحسب أصغر الأشياء بأدّق الموازين، ومن ذلك ضبطها المحكم للإيقاع الزمني الخاص بموعد ذهابها إلى

الجامعة فموعد عودتها إلى البيت.

أشهر قليلة من السنة الأولى في الجامعة وياسمين هي ياسمين، ثمّ بعدها ياسمين أخرى، لا تغادر البيت إلا بعد أن تطمئن إلى أنّ كلّ شيء يعني أنوثتها مطلق الكمال، ولم يكن يعنيها ذلك من قبل، ثمّ قبل أن يبدأ موعد المحاضرة بأكثر من ساعة على الرغم من أنها لم تكن تحتاج لغير دقائق لا تزيد على عشر مهما يكن من أمر الازدحام في باصات النقل الداخلي، ثمّ لا تعود إلى البيت مع انتهاء المحاضرات، بل بعدها بما يزيد على ساعة أيضاً.

حسان كان السبب. حوّلها إلى فتاة أخرى لا يعنيها من الجامعة سوى رؤيته وقضاء أطول وقت معه في ردهات الكلية وحديقتها ومقصفها، وحوّل البيت معه إلى جحيم من الخوف والقلق حول مستقبلها في الجامعة، وإلى بركان تضرم أمّي حممه أحياناً وتؤججه هي أحياناً ثانية، وبينهما، الجحيم والبركان، كانت تزداد تعلّقاً بحسان، وتنفق الساعات وهي تتحدث عنه، ولا سيما وسامته وثراء أهله وكرمه. وعلى الرغم من أنّ ياسر نقل إليها، وإلينا، حكايات كثيرة عن أبيه الذي يملك معملاً لصناعة الأدوية، ومنها إغلاق المعمل غير مرة بسبب العبث بالنسب المكونة لتركيب المواد في غير دواء، وبيع أدوية مهربة، والتهرب من الضرائب، وتسجيل نصف العدد من العاملين في التأمينات الاجتماعية، فحكايات أخرى عن حسان نفسه من خلال بعض أساتذة الكلية الذين كانوا يترددون بين وقت وآخر على ورشته لشراء ما ينتجه من الألبسة بسعر الجملة، ولاسيما الخاصة بالأطفال. على الرغم من ذلك، فإنّ ياسمين لم تكلّف نفسها عناء الردّ على أيّ من تلك الحكايات، وكانت تكتفي بعد سماعها لأي منها بما يشبه اللازمة: الغيرة والحسد من الناس.

اشترطت أمي الموافقة على استقبال حسان ووالديه متابعة ياسمين دراستها في الجامعة، ليس من طرف ياسمين وحدها بل من طرف حسان أيضاً، وكذلك كان شرط أبي، ثمّ حدث كلّ شيء ما بعد الاستقبال، الخطبة والزواج، بسرعة، في نحو شهر، وببذخ كان مدار أحاديث كلّ من حضرهما لوقت طويل.

مضى الشهر الأول من زواج ياسمين كما يليق بأميرة من القرون الوسطى، وبعده

كانت حاملاً بطفلها الأول، شادي، ففرض حسان عليها البقاء في البيت من أجل صحتها وصحة الطفل كما قال، فلم تعد تحضر المحاضرات، ولم تتقدّم إلى الامتحانات، ثم لم يمض أكثر من شهرين على ولادتها شادي، حتى كانت نتائج التحليل المخبري تؤكد حملها من جديد، وحتى وجدت نفسها أسيرة البيت من جديد أيضاً.

إشراق (12)

قَد لَسَعتْ حيّة الهَوى كَبدي

فلا طبيبَ لها ولا راقي

إلا الحبيبُ الذي شُغفتُ بهِ

فإنّه رقيتي وترياقي

المؤيّد بالملكوت (5)

في بعض المصادر أنّ الظاهر أمرَ بسجن السهروردي في قلعة حلب، ثمّ أمرَ بخنقه في السجن، وفي ثانية أنّه سيّر إليه مَن خنقه، وفي ثالثة أنّه أمرَ بقتله، ثم صلبه أياماً، ثمّ أمر بحرقه، وفي رابعة أنّه استدعاه، وأعلمه بأمر طلب أبيه إليه بقتله، فقال له: إنْ أردتم موتي، فاجعلوني في مكان وحيداً لا آكل ولا أشرب حتى ألاقي وجه ربّي.

ثمّ أنشد:

أرى قدمي أراقَ دمي

وهانَ دمي، فها ندمي

فحبسه الظاهر في حبس الدم في قلعة حلب، ولمّا أشرف على الموت جوعاً طلبَ قرطاساً وقلماً وشمعة، فجيء بها إليه، فكتب:

قُلْ لأصحابٍ رأوْني ميّتاً

فبَكوْني إذْ رأوْني حَزَنا

لا تظنوني بأنّي ميّتٌ

ليسَ ذا الميْتُ، واللهِ، أنا

أنا عصفورٌ، وهذا قفصي
طرتُ عنه، فتخلّى رَهَنا
و أنا اليومَ أناجي ملأً
وأرى اللهَ عَيَانا بَهَنا
فاخلعوا الأنفسَ عن أجسادها
لترونَ الحقّ حقّاً بيّنا
لا ترَعْكُم سَكرةُ الموتِ فَمَا
هيَ إلّا انتقالٌ مِن هُنا
عُنصرُ الأَرواحِ فينا واحدٌ
وَكَذا الأَجسامُ جِسمٌ عَمَّنا
ما أَرى نَفسي إِلّا أَنتُم
وَاِعتِقادي أَنَّكُم أَنتُم أَنا
فمتى ما كانَ خيراً فلَنَا
ومتى ما كان شرّاً فبِنَا
فارحموني ترحموا أنفسكم
واعلموا أنكم في إثْرنا
مَن رآني فَليقوّ نَفسهُ
إِنَّما الدُنيا عَلى قرن الفَنا

وعندما عادوا إليه، وجدوه وقد أسلم روحه، وكان ذلك يوم الاثنين، الخامس من ربيع الآخر سنة خمسمئة وسبع وثمانين للهجرة، التاسع والعشرين من تموز سنة ألف ومئة وإحدى وتسعين للميلاد. وعندما أخرجَ من حبسه ميتاً، لم يكن أحد ينتظره ليلقي عليه النظرة الأخيرة قبل أن يطوى جسده تحت التراب. وعندما علمَ الظاهر بوفاته حزن كثيراً، وندم لامتثاله لأمر أبيه، ولإرادة الدهماء ممن حسبوا أنفسهم علماء وفقهاء، ونقمَ عليهم، وقبض على جماعة منهم ونكبهم وصادر من

جماعة أخرى أموالاً عظيمة، ثمّ أمر بنقل جثمانه من حبس الدم إلى قبر جوار سور المدينة عند باب الثعابين، وخطَّ شاعر مجهولٌ على القبر هذين البيتين:

قدْ كانَ صاحبُ هذا القبر جوهرةً
مكنونة قدْ براها اللهُ مِن شرفِ
فلم تكن تعرفُ الأيّـام قيمته
فردّها غيرة منه إلى الصَّدفِ

ثمّ صار القبر مشهداً وزاوية للصلاة. وبعد سنوات تحوّل المكان المحيط به إلى ساحة للحطب والفحم، وعندما رُدم خندق السور، و افتتحت جادة الخندق سنة ألف وثمانمئة وسبع وتسعين ميلادية، اشترى السيد نجيب باقي الساحة، وعمّر فيها سنة ألف وتسعمئة وعشر مبنى من طابقين، وجعل ممراً في الطابق السفلي يعلو مدفن السهروردي، ثم ما لبث المبنى أن تحوّل إلى مبنى للبريد، فإلى قسم لشرطة باب الفرج.

وممّا حدّثَ القزويني في آثار البلاد وأخبار العباد أنّه بعد أيّام من موت السهروردي رأت جماعة في بيته كتابة على جائزة (نافذة) لا يوصل إليها إلا بالسلالم: بيتُ الظالم خراب ولو بعد حين. وكان ذلك، فقد ذهب المُلك عن الظاهر بعد موته بوقت قصير.

* * *

سهر الورد (12)

لم أكن أحلم. رأيتُ الشيخ شهاب الدين أمامي كما كنتُ أرى يحيى إلى جواري. رأيتُه على نحو مختلف عمّا قرأتُ عنه في الكتب التي كان يحيى يحملها إليّ من مكتبته الخاصة، ويوصيني بقراءتها بين وقت وآخر، ومن ذلك ما قرأته في كتاب تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبيّ الذي نقل عن قاضٍ يُدعى ابن شهبة قوله إنّ

السهرورديّ كان دنيء الهمّة، زريّ الخلقة، دنس الثياب، وسخ البدن، لا يغسل له ثوباً ولا جسماً ولا يداً، ولا يقصّ ظفراً ولا شعراً، وكان القمل يتناثر على وجهه ويسعى على ثيابه، وكلّ مَن يراه يهرب منه. ثم عن سديد الدين محمود بن زُقيقة قوله: كان السهروردي لا يلتفتُ إلى ما يلبسه، ولا يحتفل بأمور الدنيا. كنتُ أتمشّى أنا وهو في جامع ميّا فارقين وعليه جُبَّة قصيرة زرقاء، وعلى رأسه فُوطة (خرقة)، وفي رِجليه زرْبول (خفّ)، كأنّه خربنْدا (سائس حمار). ورآني صديق لي فأتى إلى جانبي وقال ما جِئْت تماشي إلا هذا الخربندا؟ فقلت له: اسْكُتْ هذا سيّد الوقت شهَاب الدّين السهروردي.

كان الشيخ معتدل الجسد، يرتدي ثوباً بسيطاً ونظيفاً يغطي جسده إلى آخر قدميه، ويعتمر عمّة من قماش أحمر اللون. دقيق ملامح الوجه، أبيض البشرة مع حمرة واضحة تخالط البياض، بعينين واسعتين قليلاً، وجبين عريض، وحليق شعر الرأس وأظافر اليدين والقدمين.

- سَهَرُ الورد.

أعاد الشيخ الكلمتين وهو ينظر إليّ، ثمّ أضاف:

- سُهْرَورد، قريتي التي أبصرت فيها النور الأول، وعشت العشر الأولى من حياتي فيها. تقدّسَ نور الأنوار إذ خلق المرأة على صورة الطبيعة الأم.

ثمّ قال وهو يمسك بي متلصصة عليه، أتفحص هيئته وثيابه ويديه:

- أيصحّ وكان الملك الظاهر يقرّبني من مجلسه؟ أيحضر أحد مجلس ملك وهو في تلك الهيئة؟ كيف يكون ذلك وأنا أتوضأ خمس مرات في اليوم؟ أجل، كنتُ أزدري المظاهر، ولكن لم أكن أزدري النظافة.

ثمّ ثنى جسده قليلاً، حتى بلغ برأسه جبيني، فطبع قبلة عليه، فأحسستُ كما لو أنّ دفئاً رهيفاً سرى في جسدي كلّه، وكان يحيى يتابع ما قال الشيخ ثم ما فعل بصمت، ولم يكد الشيخ يلتفت إليه، حتى ثنى جسده نحوه، وبلغ برأسه جبينه، وطبع فوقه قبلة أيضاً، وهو يقول بينما وجهه يزداد عبقاً بالضوء:

وا رحمتا للعاشقين تكلّفوا

ستر المحبّة والهوى فضّاحُ

ثمّ كرّر غير مرة محوّماً بعينيه في فضاء المقام:

بالسرّإن باحوا تُبَاح دمَاؤُهُمْ

وَكَذَا دِمَاءُ البائحين تُبَاح

ثمّ استعاد ظهره إلى جدار القبر كما كان أول رؤيتي له، ثمّ كأنْ لم يكن. وبينما، يحيى وأنا، نتبادل عصف حيرة فائرة، بزغ ضوء في عمق المقام، فصوت يشبه سجع قُمريّ، فصوت الشيخ منشداً:

فُزْبالنعيم، فإنّ عمركَ ينفدُ

وتغنّمِ الدنيا، فليسَ مُخلّدُ

وإذا ظفرتَ بلذّةٍ، فانهضْ لها

لا يمنعنكَ عن هواكَ مُفنّدُ

وصلِ الصبوحَ مع الغبوقِ، فإنّما

دنياكَ يومٌ واحدٌ يتردّدُ

وعدوكَ تشربُ في الجِنان مدامةً

ولتندمنَّ إذا نهاكَ الموعدُ

كمْ أمّةٍ هلكتْ ودارِعُطّلتْ

ومساجدٍ خُربَتْ وعُمّرَمعهدُ

ولكم نبيّ قد أتى بشريعةٍ

قدماً، وكم صلّوا لها وتعبّدوا

وكما اختفى فجأة بزغ فجأة، ولم يكد عصف الحيرة يزداد لظى في عينيّ يحيى وعينيّ، وبعد أن استعاد جلسته كما كانت، أومأ لكلينا، يحيى وأنا، أن نبسط راحتينا، فامتثلنا، فوضع يد يحيى تحت يدي، واحتواهما بيمينه، ثمّ قال كما لو أنّه يرتّل:

- يا قِيَام الوجود وفائض الجود، ومُنزّل البركات ومنتهى الرغبات. منوّر النور ومدبّر الأمور، وواهب حياة العالمين، اغمر سهر الورد ويحيى بفيضٍ من نورك السرمديّ.

أذكرُ أنني كنتُ في المقام ولم أكن. أرى السهروردي ولا أراه، وأرى يحيى ولا أراه. رأيتُ نفسي في مكان ما رأيتُ مثله في يقظة ولا نوم. باذخ النور، لا هو أرضٌ ولا سماء، ولا

شاهق ولا سهل، ولا برّ ولا بحر.

رسمتُ إشارة الصليب على وجهي وصدري، ورددتُ بصوت يترجّح بين الخوف والطمأنينة: باسم الأب والابن والروح القدس، فترجّعَ صدى الصوت: **اسألوا تُعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتَح لكم.**

صرختُ بأقصى ما أستطيع من روح يسوع: يا يسوع، وما استكمل الصوت رجعه في أرجاء المكان، حتى بزغ الشيخ من حيثُ لم أر، وحتى نزع عمّته عن رأسه، ثم بسطها على آخرها، ثمّ أظلّني بها، ولم يكد يفعل، حتى وجدتُني ويحيى وهو في المقام، ويد الشيخ تظلّ يدينا، وثمّة ابتسامة شفيفة تزيد ضوء وجهه ضوءاً، ثمّ وهو يقول:

- مباركان في الملكوت.

ثمّ نسلَ يده، ثمّ مسح براحتها على رأسي فعلى رأس يحيى، فرأيتُني، ويحيى، واقفيْن أمام باب المسجد كأنّ بابه لم ينفتح لنا، ولم ندخل إلى المقام. كان كلٌّ منا ينظر في عينيّ الآخر كأنّما يستغيثه في تفسير ما كان، وما هي سوى هنيهة حتى وجدنا نفسيْنا نردّد معاً: مباركان في الملكوت.

إشراق (13)

اليـومَ أيقنتُ أنّ الحُبَّ مُتلِفـةٌ
وأنّ صاحبـهُ منّي على خَطـرِ
كيفَ الحَياة لِمَن أَمسى عَلى شَرَفٍ
منَ المنيّة بينَ الخَوفِ والحَـذَرِ
يَلومُ عَينَيـهِ أَحياناً بذنبِهما
وَيَحمـلُ الذَّنبَ أَحياناً عَلى القـدرِ

المؤيّد بالملكوت (6)

حدّثني صفي الدّين خليل بن أبي فضل الكاتب قال حَدّثنا الشَّيخ ضياء الدّين بن صقر رحمَه الله أنّه في سنة خَمْسمائة وتسعة وسبعين قدمَ إلى حلب الشيخ

شهَاب الدّين عمر السهروردي ونزل في مدرسة الحلاوية وكانَ مدرّسها يَومئذٍ الشريف رئيس الحنفيّة افتخار الدّين رحمَه الله، فلمّا حضر شهَاب الدّين الدَّرْس وبحث مَعَ الفُقَهَاء وكان لابس دلقاً (ثوب متسع الأكمام طويلها) وهو مُجَرّد بإبريق وعكاز وَمَا كَانَ أحد يعرفهُ. فلمّا بحثَ وتميز بين الفُقَهَاء وعلِمَ افتخار الدّين أنه فَاضلٌ أخرج له ثوباً عتابياً (ما كان من الحرير والقطن) وغلالة ولباساً وبقياراً (عمامة) وقال لولده تروح إلى هذا الفقير وتقول له والدي يسلّم عليك ويقول لك أنت رجل فقيه وتحضر الدرس بين الفقهاء وقد سيّرَ لَك شيئاً تكون تلبسه إذا حضرتَ.

فلمَّا وصل ولده إلى الشيخ شهَاب الدّين وقال له ما أوصاه سكتَ ساعة وقال يا ولدي حطّ هذا القماش وتفضل اقضِ لي حاجة. وأخرج له فصّ بلخش (نوع من الجوهر) في قدْر بيضة الدجاجة، رمّانيٌّ ما ملكَ أحدٌ مثله في قدّه ولونه، وقال: تروح إلى السُّوق تنادي على هذا الفصّ ومهما جاب لا تطلق بيْعه حتى تعرفني. فلمّا وصل به إلى السُّوق عندَ العرّيف ونادى على الفص فانتهى ثمنه إلى مبلغ خمسة وعشرين ألف درهم، فأخذه العرّيف وطلع إلى الملك الظَّاهِر غازي بن صلاح الدّين وهو يومئذٍ صاحب حلب وقال هذا الفصّ قد جاب هذا الثمن فأعجبَ الملك الظَّاهر قدّه ولونه وحُسنه، فبلغهُ إلى ثلاثين ألف درهم، فقال العرّيف: حتى أنزل إلى ابن افتخار الدّين و أقول له. وأخذَ الفصّ، ونزل إلى السُّوق وأعطاه له، وقال له: رُحْ شاور والدك على هذا الثّمن.

واعتقد العرّيف أنّ الفصّ لافتخار الدّين، فلمَّا جاء إلى شهَاب الدّين السهروردي وعرّفه بالذي جاب الفصّ، صَعُب عليه، وأخذ الفصّ، وجعله على حجر، وضربه بحجر آخر، حتى فتته، وقال لولد افتخار الدّين: خُذْ يا ولدي هذه الثياب، ورُحْ إلى والدك، قبّلْ يده عني، وقُلْ له لو أردنا الملبوس ما غلبنا عنه.

فراحَ إلى افتخار الدّين، وعرّفه صورة ما جرى، فبقيَ حائراً في قضيته. وأمّا الملك الظَّاهر، فإنّه طلبَ العرّيف، وقال: أريد الفصّ. فقال: يا مولانا، أخذه صاحبه ابن الشريف افتخار الدّين مدرّس الحلوية. وَطلبَ افتخار الدّين إليه، وقال: أريد

الفصّ. فعرّفهُ أنه لشخص فقير نازل عنده. قال: فأفكرَ السلطان، ثمّ قال: يا افتخار الدّين، إنْ صدقَ حدسي فهذا شهاب الدّين السهروردي. ثمَّ قام السلطان واجتمعَ بشهاب الدّين، وأخذه معه إلى القلعة، وصَارَ لهُ شَأن عظيم. عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء / ابنُ أبي أصيبعة.

كأنّ الريح (12)

سنة وراء أخرى، وجدتْ ياسمين نفسها، ولا سيما بعد ولادتها طفلها الثاني أحمد، حبيسة البيت. وعلى الرغم من أنها كانت تحاول الدراسة كلّما أمكنها ذلك من خلال المحاضرات التي تباع في المكتبات، والتي يقوم الطلاب بكتابتها مقابل أجر كما تعلمين، ثمّ تتقدم إلى الامتحانات بعد أخذ وردّ مع حسان، فإنّها لم تنجح في أيّ امتحان، حتى استنفدت سنوات الرسوب. ولم يكن ذلك وحده ما يجعلها تذبل يوماً بعد آخر، بل تكاد تصير ياسميناً أخرى، فحسب، بل، أيضاً، ما كان يتواتر إليها من أخبار عن حسان، ومنها علاقاته مع بعض الطالبات في الجامعة، ومع نساء خارجها، بالإضافة إلى قضائه أوقاتٍ طويلةً خارج البيت، فعودته إليه في حال كانت تؤكّد لها يوماً بعد آخر إدمانه على المخدرات.

قبل سفري إلى الإيفاد بنحو شهر، وفي وقت متأخر من الليل، جاءت ياسمين إلى البيت مثخنٌ وجهها بالكدمات، ولولا أمّي التي أسرعت إلى القول: "يَغْضبْ عليك لو خطيتْ برّا البيت"، لكنتُ ارتكبت جريمة تلك الليلة. كانت ياسمين في حال تُرغم مَن قُدّ قلبه من صخر على البكاء، كأنّ وحشاً فعلَ بها ذلك لا مخلوقاً ينتمي إلى فصيلة الإنسان.

قالت إنّ حسان طلب منها قبل مغادرته البيت ضحى إلى معمل أبيه أن تكون جاهزة مساء ليذهبا إلى بيت أخيه فاتح، وإنّه عندما عاد في المساء ورآها كما تركها مشغولة بأمور البيت والطفلين أقام البيت ولم يقعده، فاحتملته كما اعتادت، وانصرفت إلى المطبخ، فلحق بها وهو يمطرها بالمزيد من الكلمات التي بلغت، وهي ترتب الصحون التي كانت غسلتها في المشْبك، حداً لا يمكن لرجل فيه ذرة من الشرف أن يصف أمّ أطفاله

بها، فلم يكن منها إلا أن ألقت آخر صحن كان بين يديها بأقصى ما تستطيع من القوة على الأرض، وهي تردد: "عيب، عيب، عيب، خافْ الله". كأنّها كفرت، فتساقط غضب السماء على وجهها وجسدها على هيئة وحش بشري له قبضتا دبّ وقدما فيل، بينما طفلاها يتعلّقان بساقيها وهما يبكيان ويصرخان: ماما، ماما.

- والآن؟

قال أبي وقد أتت ياسمين على آخر الحكاية، ولم يزد الوقت على أكثر من رفّة عين لتردّ قائلة:

- الطلاق.

* * *

سهر الورد (13)

لم يكن أحد يتوقّع أن تتسارع الأحداث في حلب وتكبر كما تتدحرج كرة من الثلج بعد سنة تقريباً من بقائها خارج جغرافية القتل والدم والنار والمظاهرات، باستثناءات قليلة لم تكن تتجاوز أصابع اليد الواحدة، ولا يزيد أعداد المشاركين فيها على بضع عشرات، وضمن أحياء محدودة ينتمي معظم سكانها إلى ما يُصطلح عليه في الأدبيات الماركسية بالبروليتاريا الرثة، أي القادمون من الأرياف والمستوطنون على حوافّ المدن.

كانت أوّل مظاهرة تشهدها حلب في الخامس والعشرين من آذار قبل نحو سنة ونصف فيما سُمّي جمعة العزّة، وكانت في حيّ صلاح الدين ذي النسيج الاجتماعي المختلط من ريف إدلب وبعض ريف حلب كما ورد في بحث لأحد طلابي من القاطنين فيه، استكمل به مشروعه المهد للماجستير. وبين يوم جمعة وآخر كانت حلب تشهد المزيد من المظاهرات في الأحياء الشبيهة، الهلك والحيدرية والسكري وهنانو والصاخور و.. وفي بعض كليات الجامعة، بالإضافة إلى عدد من التفجيرات بسيارات مفخخة في غير مكان، حتى كان ذلك اليوم الذي استيقظت المدينة فيه على فاجعة ذبحِها، فشطرها إلى حلبيْن، شرقية وغربية.

مسلّحون من ثمانية عشر فصيلاً يقودهم أكبرها، لواء التوحيد، من قرى مختلفة في ريف حلب الغربيّ، يجتاحون حلب من خاصرتها الشرقية، ثمّ في أيام قليلة يسيطرون على نصفها، ويحتلون أحياءها القديمة المتاخمة للقلعة، ويباهون بقول قائد لواء التوحيد: لم تقم حلب بالثورة، فجئنا بها إليها.

رجتنا أمّي جميعاً ألا يغادر أحدنا البيت، ولا سيما أنّ المسلحين أقاموا حواجز لهم على بعد مئات الأمتار من الحيّ الذي نسكنه، وقالت لأبي وهو يشير بيده إلى نصف رغيف الخبز الذي تبقى من الإفطار إنها مستعدة لتموت جوعاً، نموت جميعاً جوعاً، على أن يقع أحدنا بين أيدي المسلحين الذين كانوا يتناقلون على صفحاتهم وفي المواقع المؤيدة لهم شعار: العلوية عالتابوت والمسيحية ع بيروت.

اتصلت بيحيى أستفسره عن وضع الحيّ الذي يسكن فيه، الأعظمية المتاخم لحيّ صلاح الدين، فقال إنه لا يعرف شيئاً عنه لأنه قضى ليلته في منزل أسرته، بل منزل ياسر على نحو أدقّ، في الحمدانية، ولأنّ أمّه أرغمته على البقاء معهم بعد أن سمعته يحدّث يُمنى عن رؤيته صباحاً لمسلّحين في صلاح الدين بينما كان يتسوّق بعض الخضراوات وهم يرددون شعارات ضد الرئيس والنظام، وكان صوته، وهو يحدّثني، مرهقاً بالخوف ممّا يتربّص بحلب، أو لكأنّ لسان حاله يستعيد رسالة الشيخ شهاب الدين، التي منها أنّ ريحاً صرصراً ستأتي على حلب، وسيخرج من غبارها خراب ودمار يلتهم أكثر المدينة، فقوله: وستأتي الريح من غربها، وستحيل شرقها إلى عصف مأكول. أقسمتُ لأمّي بأنني سأعود إلى البيت ما إنْ أشمّ رائحة، مجرّد رائحة، تشير إلى ما يجب الحذر منه، فثلثتْ، ورددت وهي تودعني: العدرا تحميك.

في الطريق إلى المركز لم أر حلب التي أعرف، التي كانت تواصل حياتها من قبل متحدية مختلف أشكال الموت الذي ازدحم عليها بغير هيئة، من تفجير السيارات المحملة بأطنان من السيفور في أماكن عدة من المدينة، اثنتان في ساحة سعد الله الجابري أمام الفندق السياحي وأخرى أمام مشفى الوفاء وثالثة أمام مبنى للأمن و.. إلى الموت المجاني خلال تبادل لإطلاق النار بين رجال الأمن ومن كانوا يقولون إنهم يحمون المظاهرات، إلى قطع الطريق الدولي بينها وبين العاصمة.

في الطريق رأيت حلب أخرى، محض شوارع وأبنية وساحات لا روح فيها، وبشر يتحركون كما تتحرك شخصيات خيال الظلّ، أو دمى تتحكّم بها أصابع لا تُرى، وما إنْ دخلت إلى المكتب، حتى نهض يحيى على عجل، وقبل أن أتم عبارتي له، صباح الخير، أمسك بيدي وهو يقول:

- الشيخ شهاب الدين ينتظرنا.

المؤيّد بالملكوت (7)

ويُحكى عن شهاب الدّين السهروردي أَنه كانَ يعرف علم السيمياء وله نوادِر شوهدت عنهُ من هذا الفنّ. ومن ذلك حَدّثني الحَكيم إبراهيم بن أبي الفضل بن صَدَقَة أنه اجتمع به وَشَاهد منه ظَاهر بَاب الفرَج وهم يتمشون إلى ناحية الميدان الكبير ومعه جماعةٌ من التلاميذ وغيرهم وجرى ذكر هذا الفنّ وبدائعه وَمَا يُعرف منه وهو يسمع، فمشى قليلاً، وقال: مَا أحسنَ دمشقَ وهذه المواضع! قال: فنظرنا، وإذا من ناحية الشرق جواسقُ (قصور) عالية متدانية بعضها إلى بعض مبيضة، وهي من أحسن ما يكون بنايةً وزخرفة، وبها طاقات كبار فيها نسَاءٌ ما يكون أحسن منهنَّ قطّ، وأصواتُ مغانٍ، وأشجارٌ مُتَعَلقَة بعضها مع بعض، وأنهرٌ جارية كبار، ولم نكنْ نعرف ذلك من قبل، فبقينا نتعجبُ من ذلك وتستحسنه الجماعة و انذهلوا لِما رأوْا.

قال الحكيم: فبقينا كذلك ساعة، ثمَّ غابَ عنَّا، وعدنا إلى رؤية ما كنَّا نعرفه من طول الزّمان. قال لي: إلَّا أنّ عند رؤية تلكَ الحالة الأولى العجيبة بقيتُ أحسُّ في نفسي كأنني في سِنة خُفْيَة، ولم يكن إدراكي كالحالة التي أتحققها مني. عيون الأنباء في طبقات الأطباء. ابنُ أبي أصيبعة.

كأنّ الريح (13)

خلال دقائق لا تزيد على عشر كنت وسهر الورد أمام باب المسجد بسبب ندرة السيارات والناس في الشوارع على غير عادة حلب في الصباحات، وقبل أن أكمل نُطق

الرصْد، شيخ شهاب الدين، انفتح الباب، ثم باب المقام.

لم يكن الشيخ مسنداً ظهره إلى جدار القبر كما اعتدت أن أراه، وكما رأته سهر الورد في اللقاء الذي سبق، بل واقفاً على قدميه على نحو يجهر بعزمه على مغادرة المكان. وعلى غير ما ألفتُه كان يرتدي ثوباً أحمر اللون وقصيراً حتى يكاد جزء من آخر ساقيه يبين منه، وعلى رأسه قماشة حمراء أيضاً وموضوعة كيفما اتفق، وفي قدميه خفّان من جلد حائل اللون.

- أعولتِ الريح.

قال الشيخ بصوت مرهق بالوجع وهو يرمق كلينا بنظرة مرهقة بوجع أشدّ، ثمّ أضاف:

- باسمكَ اللهمّ.

ولم تكد راحتاه تلمسان أعلى رأسينا، حتى رأيتني وسهر الورد وهو أمام الباب الغربي للجامع الأمويّ، ثمّ وهو يخرج من قبضة يده قطعة من قماش أسود، ويدفع بها إلى سهر الورد ويومئ لها بأن تحيط جسدها بها من أعلى رأسها، ثمّ باب الجامع ينفتح بنفسه، ثمّ سهر الورد وأنا نمشي وراءه كأننا مقيّدان إلى يمينه بخيط لا يُرى، ثم يقف أمام حجرة داخل المسجد، يسار المحراب، مربعة الشكل. واجهتها قضبان من النحاس الأصفر المشبك بعيون مربّعة، وجدرانها الثلاثة من الخزف والقاشاني، وبابها قنطرة محمولة على عمودين يحتويان غلقاً من مصراعين من النحاس الأصفر المشبّك أيضاً، وفي وسطها قبرٌ مكسوٌ بالمخمل، وفوق سنام القبر مصحف شريف.

بسطَ الشيخ كفيه، وتلا فاتحة القرآن، ثمّ قال وهو يشير إلى القبر:

- رأس يحيى عليه السلام.

ومضى ببصره إلى سهر الورد، وأضاف: يوحنا المعمدان.

ثمّ إلى كلينا:

- الريح.

طاعنيْن في صمتٍ، التيهُ بعضُ صوته، كنّا، سهر الورد وأنا. ولم يمهلنا الشيخ طويلاً لننجو بنفسيْنا من قاعه السحيق، فتابع يقول:

- ستعصف بالجامع والحجرة والمحراب.

وكما لو أنّها تحدّث نفسها قالت سهر الورد بصوت خفيض:

- يحيى، يوحنا!

فأومأ الشيخ برأسه أن أجل، ثمّ بإيماءة من يده تعني أن نقتعد السجّاد تحتنا كما سيفعل، ثمّ ما إنْ امتثلنا، وما كدتُ أجمع ساقيّ إلى بعضهما بعضاً، حتى أسرعتُ إلى القول:

- ما من أحد في حلب يا شيخ شهاب الدين يقول غير جامع سيدنا زكريا أو الجامع الكبير.

- بل يحيى، بل يوحنا المعمدان.

قال الشيخ، ثمّ مسح بكفّه على السجاد أمامنا، ثمّ رفع يده، فظهرت تحتها رقعة من جلد رقيق لونه مائل إلى الصفرة وممتلئ حتى الحوافّ منه بكتابة غاية في المهارة. أومأ الشيخ لسهر الورد أن تقرأ، فأخذت تقرأ بصوت يبلغ كلينا، الشيخ وأنا:

زكريا بن دان بن مسلم، وينتهي نسبه إلى يعقوب بن إسحاق. بعثه الله نبياً إلى بني إسرائيل، وصبرَ على إيذائهم له حتى طعن في السن. وكانت له قريبة اسمها حنّة واسم زوجها عمران، وكانت هرمت من دون أن تُرزق بولد، فدعتِ الله أن يهبها ولداً، ونذرته ليكون في خدمة بيت المقدس، فحملت بمريم عليها السلام، ثم مات زوجها قبل أن تلد.

وبعد أن وضعتْ مريمَ حملتها إلى بيت المقدس، فتكفّل زكريا بها، وما إن كبرت مريمُ حتى آواها إلى غرفة تتعبّد فيها الله، لا يُرقى إليها إلا بسلّم، وكان كلّما جاء ليتفقدها وجدَ طعاماً عندها، فسألها عن مصدره، فقالت إنه من عند الله، فدعا زكريا الله أن يرزقه ولداً كما يرزق مريم الطعام، فاستجاب الله دعاءه على الرغم من هرمه ومن أنّ زوجه، أليصابات، كانت عاقراً، وبشّره بغلام اسمه يحيى، لأنّه، وزوجه، كانا بارّين أمام الله، سالكين في جميع وصاياه. وبينما مريم تتعبّد في المحراب نقلَ الملَك جبريل إليها بشارة حملها بعيسى بنفحة من روح الله، وما إنْ وضعته، حتى توزّع بنو إسرائيل بين فريقين يتهم أحدهما يوسف النجار، خطيبها، بحملها، وآخر

يتهم زكريا، وسرعان ما أمسكوا بزكريا، ونشروه بالمنشار.

أمّا يحيى، فقد ولِدَ قبل مولد عيسى بنحو ثلاثة أشهر، وقيل بثلاث سنين. كان حسن الوجه والصوت. وكان وعيسى لا يفارق أحدهما الآخر إلا إذا جُنّ الليل، وكان أوّل مَن آمن به، وبشّر به قائلاً:

يسوع الناصريّ الذي كان ينبغي أن يأتي.

وقْعُ خطوات في صحن الجامع. تتوقّف سهر الورد عن القراءة. يمسح الشيخ براحتيه على رأسينا، فنكون في مقامه في بوابة القصب. يومئ لسهر الورد بمتابعة القراءة، فتقرأ: **وكان يحكم بني إسرائيل ملك اسمه هيرودس، وكان متزوجاً من امرأة ذهب جمالها بسبب تقدّمها في العمر، وكان لها من رجل آخر ابنة فائقة الجمال، هيروديا، وقع هيرودس في غرامها، فعرضت أمها عليه أن يتزوجها، فاستفتى يحيى، فنهاه، فأغضب ذلك الزوجة التي سرعان ما دبّرت مكيدة ليحيى، فزينت ابنتها وعطرتها وأدخلتها على هيرودس الذي ما إن ذهب الخمر برأسه، وحاولها، امتنعت عليه حتى يأتيها برأس يحيى في طبق، فأمر بقتله، وجيء برأسه إليه.**

ولم تكد سهر الورد تتوقف عن القراءة، حتى قالت:

- يحيى هو مَن عمّدَ يسوع.

وحتى قال الشيخ:

- **أعطني ههنا على طبق رأس يوحنا المعمدان.**

ثمّ أضاف ما أذكر أنني قرأت في الكتاب المقدّس:

- لم يقم بين المولودين من النساء أعظمُ من يوحنا المعمدان.

المؤيّد بالملكوت (8)

وحكى بعضُ فقهاء العجم: أنّ السهرورديّ كان في صحبته، وقد خرجوا من دمشق، قال: فلمّا وصلنا إلى القابون، القرية التي على باب دمشق في طريق مَن يتوجه إلى حلب، لقينا قطيع غنم، فقلنا للشيخ: يا مولانا نريد من هذه الغنم رأساً

نأكله، فقال: معي عشرة دراهم، خذوها واشتروا بها رأس غنم، وكان هناك تركماني فاشترينا منه رأساً بها، ومشينا قليلاً فلحقنا رفيق له وقال: ردّوا هذا الرأس، خذوا أصغر منه، فإنَّ هذا ما عرفَ يبيعكم، يساوي هذا الرأس أكثر من ذلك، وتقاولنا نحن و إيّاه، فلما عرف الشيخ ذلك قال لنا: خذوا الرأس وامشوا و أنا أقف معه وأرضيه، فتقدمنا نحن، وبقي الشيخ يتحدث معه ويطيّب قلبه، فلما أبعدنا قليلاً تركه وتبعنا، وبقي التركماني يمشي خلفه ويصيح به، وهو لا يلتفت إليه، فلمّا لم يكلّمه لحقه وجذب يده اليسرى، وقال: أين تروح وتخلّيني؟ وإذا بيد الشيخ قد انخلعت من عند كتفه، وبقيت في يد التركماني ودمها يجري، فبُهت التركماني وتحيّر في أمره، فرمى اليد وخاف، فرجع الشيخ وأخذ تلك اليد بيده اليمنى ولحقنا، وبقي التركماني راجعاً وهو يتلفت إليه حتى غاب عنه، ولما وصل الشيخ إلينا ر أينا في يده اليمنى منديلاً لا غير.

وفياتُ الأعيان وأنباءُ أبناءِ الزمان. ابن خلّكان.

* * *

سهر الورد (14)

يوماً بعد يوم كانت لجين تزدادُ جمالاً على جمال. يزداد تضاحكُ الحُمرة الشفيفة في وجهها كما تتورّد وجنات زهرة بيضاء عاشقة للحياة، والضوء في عينيها كما تتثنّى شمسٌ رؤوم على إيقاع فصل مفعم بالنضارة، والدم في جسدها كلّه كما يختال يمامٌ على صهوة غيم رقيق في سماء.

الحبّ، ولا تفسير سوى الحبّ. الذي قلبَ صيرورة الخلْق، فدفعَ آدم إلى عصيان الربّ، واستجاب لدعوة حوّاء له بمشاركته التفاحة التي قطفت من الشجرة التي حرّمَ الربّ عليهما. الذي كان سبباً في ألف حرب وحرب، ومتناً في ألف حكاية وحكاية، وبحثاً في ألف كتاب وكتاب.

ما إنْ بدأت الريح عصفها بحلب، حتى أخذت لجين تذوي شيئاً فشيئاً، تفقد

نضارتها التي كانت، وتزداد عزلتها بنفسها، يوماً بعد يوم. وكان السبب خوفها على إبراهيم الذي كان أخفى عنها خبر إلغاء تأجيله الإداريّ بعد تخرّجه استعداداً للالتحاق بأول دورة قادمة للضباط المجندين، وينتظر تبليغ شعبة التجنيد له ليسلّمها هويته المدنية ودفتر الخدمة الإلزامية.

عبثاً كنتُ أحاول ترميم الصدوع التي كانت تزداد تشققاً في جدار إيمانها بالسماء، وأردّد أمامها ما تردده أمي دائماً كلّما وجدت نفسها، أو أحداً منّا، في ضائقة على الرغم من يقيني الذي طالما كان بوصلتي في كلّ شأن في الحياة، يقيني بأننا نحن البشر مَن نرسم مصائرنا بأيدينا: **ليأتِ ملكوتكَ. لتكنْ مشيئتكَ كما في السماء كذلك على الأرض.** عبثاً كنتُ أحاول إقناعها بأنّ خيار إبراهيم هو الصواب، وأنّ الأمر لن يتجاوز أكثر من سنة وأشهر قليلة يؤدي إبراهيم خلالها خدمته العسكرية وتكون هي اكتسبت خلالها أيضاً خبرة جيدة في مهنتها لأنها ستجد نفسها بعد الزواج مرغمة، شأن معظم نساء الشرق، على إيثارها البيت والزوج والأولاد على نفسها.

قالت لي إنها ليست ضدّ خيار إبراهيم، ولكنها خائفة عليه، خائفة من أن تفقده بعد أن تجاوزت خوفها من اعتراض الأسرة عليه لأنه كاثوليك. خائفة من أن... ولم تكمل، بل رسمتْ إشارة الصليب على وجهها وصدرها، ثمّ ألقت برأسها على صدري، واستعادت عبارتها بينما صوتها يجهر بحشرجة دمع في عينيها: خايفة يا ورد.

أخذتُها إلى صدري وأنا أستعيد عبارة يحيى التي كررها غير مرة: حلب يا ورد، فرسالة الشيخ شهاب الدين إليه، وكنتُ، وأنا أحاول تهدئتها، أرتعد خوفاً من أن تصدق نبوءة الشيخ، فلا تكتفي الريح من قضم الأحياء الشرقية من المدينة، من شطرها إلى حلبيْن، بل تأتي على الجامع الأموي والمدرسة الحلوية حقاً، ثم تعصف بغير آبدة من أوابدها التاريخية، ومن ذلك كنائسها التي قد لا تسلم، شأن الأموي والحلوية، من طيش الريح.

هدأتْ قليلاً، ثم رفعتْ رأسها عن صدري، وباغتتني بسؤال لم أكن أتوقعه: ليش الحرب ليش؟ حرتُ في الإجابة، شعرتُ بالعجز عن الردّ، عمّا يجب أن أقول. أأستعيد معها تاريخ البشرية المتخم بالحروب كما لو أنّ هذه الأخيرة لازمة في الوجود شأن فصول السنة، الليل والنهار، البرد والحرّ، الهواء والماء والغذاء، أو كما لو أنّها لعنة لا

خلاص للبشرية منها منذ قابيل وهابيل حتى قيام الساعة.

كنتُ أحبّ إبراهيم لأنّ لجين تحبّه، وبعد أن علمت بقراره أحببته لأنه جدير بنفسه بالمحبة، لقوله للجين، كما قالت لي، إنّ أيّ نظرية، مهما كانت عظيمة، لا قيمة لها إنْ بقيت طيّ الأوراق التي كُتبتْ فيها، إنْ لم تصبح ممارسة، فكيف إنْ كانت النظرية تعني البلد، وكيف إنْ كان مَن يتغنّى بها كاتباً، شاعراً أو كاتب قصة أو رواية أو..؟

أحببت إبراهيم لأنه كان منسجماً مع ذاته، ومتصالحاً مع قيمه ومبادئه، ومخلصاً لصفة المثقف المبدع الشاعر فيه، ولأنه لم يحاول النجاة بنفسه كما فعل كثير من الشباب عندما أخذت الريح تهذي بنفسها أكثر، فالتهمت البحار غير قليل منهم، وحوّلت المنافي آخرين إلى متسولين على أبواب المنظمات الإنسانية وحكومات الدول التي فتحت أبوابها لهم لأسباب سياسية. أحببته لأنه اختار البقاء في البلد، فالمشاركة في حماية تنوّعها الإثني والديني والمذهبي في مواجهة ثقافة تتوهم أنّ الآخر المختلف ناقص الأهلية للوجود، وأنّها وحدها جديرة بهذا الوجود، وما سواها، اثنياً أو دينياً أو مذهبياً، محضُ إنسان من الدرجة الثانية. أحببتُه لأنّ فيه شبهاً كبيراً من يحيى الذي لم أر منه يوماً فعلاً يناقض قولاً سمعتُه منه، والذي كان يثبتُ لي، يوماً بعد يوم، أنّ الانتماء إلى الإنسان أصلٌ في الانتماء إلى النور، أو نور الأنوار حسب الشيخ شهاب الدين، وأنّ الهويّات التالية لهذا الجذر، الإنسان، لم تكن يوماً خياراً لأحد، بل هوية بالولادة والنشأة.

سألتني لجين عمّا يجب أن تفعله لتعتذر لإبراهيم عن رفضها الردّ على اتصالاته لأنه اتخذ قرار إلغاء تأجيله وحده، ولم أكن أتوقّع ذلك منها. لجين الرقيقة التي تنفجر بالبكاء لمشهد عصفور يرتجف من البرد، ولم تكن عيناها تبصران طريقهما إلى النوم قبل أن تصلها رسالة على جوالها من إبراهيم تستودعها الربّ، وتفرض عليّ واجباً شبه يوميّ في الإصغاء إليها وهي تقرأ بصوتها قصيدة جديدة له. قلت لها:

- حقّاً؟

فاكتفت بحركة من رأسها، كأنّها تكفّر بإيماءتها وحدها من دون كلام عن خطئها

بحقّ إبراهيم، ثم احتوتني بمطلق ذراعيها، وقالت بصوت ممتلئ بالطهر:

- اتصلي به.

- بل ستفعلين أنت.

إشراق (14)

شَوقي يَجلُّ عَنِ الوَسائل
وَهوَى ينـزّه عَن مُماثِل
شَوقي يُجدّدهُ الزَّمان
إِليكَ لا نَحوَ المَنازل
بُشّرتُ أَنّك قاتِلي
يا حَبَّذا إنْ كُنتَ قاتل
زَوّد فُؤادي نَظرة
مِن حُسنِ وَجهِكَ فَهوَراحِل
روحي فِداء مُبَشّري
إِن صَحَّ أنّكَ لي مُواصِل
مُستَشفِعٌ بِوَسائلٍ
وألذّ من إحدى الوسائل
سَهَري لِغَيرِكَ ضائِعٌ
وَتَيمّمي بِسِواكَ باطِل

كأنّ الريح (14)

أعولتِ الريح، صارت حلب حلبيْن: شرقية يبسط المسلحون سيطرتهم عليها، ويمنعون خروج أيّ سلعة منها إلى غربها، وغربية يزدحم النازحون من شرقها فيها، وبينهما معبر بستان القصر، معبر الموت.

أعولت، ثمّ امتدت إلى الجامع الأمويّ، ثمّ انهارت المئذنة، ثمّ سقط مشفى الكندي،

ثمّ.. ثمّ امتدت إلى الكنيسة الإنجيلية العربية في السبع بحرات، فإلى كنيسة القديس كيفورك للأرمن الأرثوذكس في الميدان، فإلى اختطاف المطرانين بولس يازجي ويوحنا إبراهيم.. أعولت، ولم ينجُ من جلجلتها أحد.

تأخرت سهر الورد، ولم تكد يدي تمتد إلى هاتفي الجوال، حتى رنّ الهاتف الثابت:

- دكتور يحيى، من فضلك تعال.

كان المتحدث مدير المركز الدكتور رياض، وما إنْ أكملت كلمة فوراً، حتى كانت سهر الورد تفتح باب المكتب وتدخل. حييتها على عجل، ووعدتها بالعودة سريعاً، ومضيت إلى مكتب المدير الذي ما إنْ أنهى ردّه على تحيتي، حتى دفع إليّ بورقة كانت أمامه وهو يقول:

- اقرأ.

قرأت، اكتفيتُ بما بعد يقرّر ما يأتي:

1. يُنهى تكليف الأستاذ الدكتور رياض حريري مديراً لمركز الأبحاث والدراسات، ويُعاد إلى عمله في معهد التراث.

2. تُكلّف الدكتورة نجاح الدهّان، الأستاذة في كلّية التربية، مديرة للمركز.

3. يبدأ العمل بمضمون هذا القرار من تاريخ صدوره.

كنت أعرف بعض علاقات الدكتور رياض مع المسؤولين في رئاسة الجامعة وفرع الحزب وبعض رؤساء الأجهزة وموظفي الارتباط بين هذه الأجهزة والجامعة، الذين طالما كان يستقبلهم بشكل شبه يومي في مكتبه، وكنت أتوقع ألا يطول أمر بقائه في المركز، ولكن لا ليُعاد إلى معهد التراث، بل ليكون في موقع أكثر أهمية ومكانة من إدارة المركز.

- أنت تعرف الدكتورة نجاح.

- أجل، كنّا موفديْن معاً إلى جامعة عين شمس.

- أعرف، ولكن ما الذي تعرفه عنها؟

- ليس أكثر ممّا قلتُ.

بصوت لا يراوغ قصده في الحسم قلتُ ذلك لأنني لم أشأ، كما اعتدتُ واخترتُ مبدأ في الحياة، أن أكون مصدر معلومات لأحد في إيذاء آخر مهما نالني من ظلم هذا الآخر.

فعلتُ ذلك لأنّ سؤاله لم يكن يعني غير رغبته في جمْع ما يستطيع من معلومات يمكن النفاذ منها، أو من بعضها على الأقل، إلى ما يعجّل بقرار مضاد يعيد الدكتورة نجاح إلى كلّيتها.

التقطَ الدكتور رياض دلالة الإيقاع في الصوت، فأسرع إلى القول:

- فهمتني خطأ دكتور، أقصد ما الذي تعرف عن صلاتها بأصحاب الشأن.

ولأنّه كان يعني المسؤولين ليقدّر حجم روافعها وحواملها وحصونها وقلاعها، ومن ثمّ يبني على ذلك محاولاته لاستعادة موقعه في المركز، فقد أسرعتُ إلى القول بصوت أكثر حسماً:

- لا أعرف شيئاً، وأرجوك ألا تسألني عن أيّ شيء.

ثمّ نهضتُ مصافحاً، ومتمنياً له، بصدق، التوفيق في مستقبله لأنني لم أر منه، طوال إقامتي في المركز، ما يؤذيني شخصياً على الأقلّ، على الرغم من أنني كنت أحزن عليه للهاثه وراء المناصب، وسعيه إليها، وحجّه اليوميّ إلى مكاتب المسؤولين في رئاسة الجامعة وفرع الحزب، وسواهما بكل تأكيد بسبب غيابه عن المركز أكثر من الوقت الذي يمضيه فيه.

أنا الذي أعرف، الأسرار الخافية والأمور الخبيئة حسب الملحمة الرافدية، عن الدكتورة نجاح من خلال السنوات الخمس التي أمضيناها معاً في جامعة عين شمس، ولاسيما كتابتها التقارير عن الموفدين إلى عدة جهات ترتبط بها في البلد، ولا سيما أكثر محاولاتها إيهام الآخرين بأنها يسارية وعلمانية وعلى قطيعة مع أفكار أسرتها التي ينتمي جلّ أفرادها إلى تنظيم إسلاميّ، ومنهم أخوها الأكبر الذي بلغ موقعاً متقدماً في قيادة التنظيم.

ولكن بالقدر الذي أحسست بالسعادة معه لاقتتال الرفاق الأعداء فيما بينهم، لهاثاً وراء المناصب على جثث بعضهم بعضاً، أحسست بالقلق بآن من أن يُلحق مجيء نجاح إلى المركز بي مزيداً من الإيذاء لأنني أعرفها ربّما أكثر ممّا يعرفها سواي، ولا بدّ ستسعى، بسبب ذلك، وبما أوتيتْ من مهارات في المكر والخداع، والدهاء أيضاً، إلى نقلي إلى مكان آخر، إمّا بكتابة تقرير لا يستطيع رئيس الجامعة دفعاً له، أو بمحاولاتها،

بغير وسيلة، لأتقدّم بنفسي بطلب نقل من المركز.

- تأخرتَ يحيى، خير؟

- انتظري، لا تضعي البنّ. تعالي.

* * *

سهر الورد (15)

حتى ذلك اليوم لم أكن أعرف تفسيراً لاستجابتي لأيّ طلب من يحيى من دون تردّد، بل من دون منحي فرصة لنفسي للتفكير كما اعتدتُ في شؤون حياتي كلها، حتى الصغير منها.

تعالي، فتركتُ كلّ شيء على حاله، ثمّ أسلمته يدي، ثمّ كنّا في البيت، بيته في الأعظمية. طوال الطريق إلى البيت، وكلما كنت أحاول الاستفسار منه عن شيء، عمّا حدثَ معه في مكتب مدير المركز، وإلى أيّ مكان نحن ذاهبان، و.. كان يضع يده على فمي، ويكتفي بكلمة واحدة:

- اصبري.

لم نكد نقف أمام باب البيت، حتى انفتح الباب بنفسه، وبينما عيناي تتسعان عن دهشة فيهما كانت عيناه تختالان بغبطة تمتلئ روحه بها، ثم لم نكد نبلغ الصالة، حتى رأيت السهروردي يتكئ بجسده إلى مقدّمة الأريكة التي تتصدرها، ثمّ وهو يقول:

- مباركان في الملكوت.

ثمّ أومأ لكلينا بأن نقتعد الأرض إلى جواره، فمدّ يحيى يده إلى يدي يساعدني في الجلوس وقد التقطت عيناه ارتباكي بضيق التنورة التي أرتديها، وما إن استقرّ جسدي على الأرض، حتى خلع الشيخ شهاب الدين عمامته، ثم بسطها فوق ساقيّ حتى آخرهما، ثمّ قال:

- تسمعان؟

وكان يقصد أصوات الرصاص التي كانت تأتينا من جهة حيّ صلاح الدين. أومأنا

برأسينا بالإيجاب، فتابع يسأل:

- أصوات أيّ شيء هذه؟

- رصاص.

قال يحيى، ففغرَ الشيخ عينيه دهشة في إشارة إلى أنه لم يحط علماً بالقصد ممّا قال يحيى الذي التقط كعادته الإشارة، فأسرع إلى القول:

- الرصاصة قطعة معدنية أسطوانية الشكل تُطلقُ من سلاح ناريّ، ويختلف حجمها من سلاح إلى آخر.

كان الشيخ يهزّ رأسه في إيماءة إلى إصغائه برهافة ليحيى الذي تابع يقول:

- اخترع الأسلحة النارية أمريكي اسمه صموئيل كولت قبل ما يزيد على مئة وخمسين سنة.

- أمريكي!

قال الشيخ مقاطعاً، فأضاف يحيى:

- أمريكا يابسة كبيرة خلف المحيط الأطلسي اكتشفها ملّاح برتغالي اسمه كريستوف كولمبوس، وهي مصدر الشرور في هذا العالم.

ثمّ أكمل:

- أصوات رصاص متبادل بين المسلّحين والجيش.

- الريح.

- أجل يا شيخ شهاب الدين.

- وأنتما؟ سهر الورد وأنت؟

أضرم سؤال الشيخ خوفاً مفاجئاً في خلايا جسدي كلّها، دهمني شعورٌ بأنّ قدَراً ما يتربّص بكلينا، يحيى وأنا، وبأننا لن ننجو من الريح، وما كنتُ أتساقط في جُبّ الخوف، ما كدتُ أبلغ قاعه، حتى قرّب الشيخ يده مني، أراحها على كتفي، ثمّ قال:

- **المولودُ من الجسد جسدٌ هو، والمولودُ من الروح هو روح.**

- السيد المسيح.

قال يحيى ذلك، فأومأ الشيخ برأسه مؤكداً، ثمّ قال وهو يمسح بكفيه على رأسينا:

- مباركان في الملكوت.

ولم يكد الشيخ يكون كأنْ لم يكن، حتى أسرع يحيى إلى القول:

- قهوة يا سهر الورد، قهوة.

- ليس قبل أن تحكي.

وكنت أقصد غيابه الطويل في مكتب الدكتور رياض، فأعاد:

- قهوة.

ثم أمسك بيدي، فمضينا نحو المطبخ، ثمّ وأنا أفتح صنبور الماء خاصرني، فأومضَ قبسٌ من نار في جسدي، ثمّ حسيس النار صار زمزمة وشفتاه تلثغان بغير قبلة من عنقي من الخلف، فمن كتفيّ اللذين أزاح القميص عنهما، ثمّ الزمزمة صارت أواراً وهو يدير جسدي نحوه، ويطبق بشفتيه على شفتيّ بينما يحتويني بمطلق أربعينه الصاخبة بالحياة.

صوت الماء المتدفق من الصنبور يؤكّد أنني لم أكن أحلم، أنّ يحيى حملني بين يديه، ثمّ مددني على السرير في غرفة النوم، أطلق أزرار قميصي من عُراها، وأخذ بأصابعه وشفتيه يرمح فوق وجهي وصدري وعنقي وتحت أذنيّ، ثمّ يحتوي نهدي بكفّه، يشاغبُ استدارته وامتلاءه، ثمّ يأخذ حبّة البندق البازغة منه إلى شفتيه، ولكأنّه سمع نداء الآخر له، فملأ كفّه الثانية به، ثمّ...

عارية في السرير، كما يحيى، كنتُ أضع رأسي على صدره، أتنسم فوْح العرَق الراشح منه، من جسده كلّه، وكان صوت خرير الماء يتابع نشيده على بُعد صبابة لجسدين كانا قبل قليل يستحمّان بماء الخلْق، يعبقان بعطر الحياة.

إشراق (15)

رَقّ الزُّجاجُ وَرَقَّت الخَمرُ
فَتشابَها فَتَشاكل الأَمرُ
فَكَأَنَّها خَمرٌ وَلا قَدح
وكأنّها قَدحٌ وَلا خَمرُ

كأنّ الريح (15)

لم يستجب ياسر لإلحاح أمّي، الذي لم يكن يعرف هدأة له يوماً. إلحاحها في أن تخطب له وتزوجه وتكحل عينيها برؤية ولد له قبل أن يحوم عزرائيل، بتعبيرها، حولها. وغالباً ما كان ياسر يكتفي بعبارتين: "العمر كلّه يامو"، "المَرَة ايمت ما كان بتجي بسّ (وهو يفرك ذؤابة إبهامه بتوءمها في شاهدته بينما يضحك) مو كلّ يوم موجود".

ياسر يشبه خالي مصطفى في نهمه للمال، ولكنّه يختلف عنه في قيمة لم يعرفها خالي في أيّ شأن من شؤون حياته، الصدق. صدقه مع الزبائن من جهة، ومن جهة ثانية صدقه في المعلومات الخاصة بمواصفات الأقمشة التي يستخدمها في صناعة هذا النوع أو ذاك من الألبسة. قطن مئة بالمئة يعني مئة بالمئة، أو حرير بنسبة أربعين بالمئة يعني أربعين بالمئة، أو صوف بنسبة ستين بالمئة يعني ستين بالمئة، أو..

بعد افتتاحه ورشة صغيرة بنحو سنة صارت الورشة اثنتين، وبعد نحو ثلاث سنوات صارت الاثنتان ورشة كبيرة في منطقة الليرمون، يعمل فيها ثلاثون رجلاً وامرأة، فأخرى أصغر في منطقة المعامل في بستان القصر، فيها ثلاثة عشر رجلاً وامرأة، بالإضافة إلى صالتيّ عرض لمصنوعات الورشتين، واحدة في السبع بحرات والثانية في شارع النيل.

أتت الريح على كلّ شيء سوى صالة شارع النيل. نُهبت الآلات في ورشة الليرمون، ففككها مسلحون كان بعض منهم من العاملين في الورشة وباعوها بأثمان بخسة إلى تجّار أتراك كما حكى ياسر لنا، واحترقت ورشة بستان القصر بغير قذيفة حوّلتها إلى حجارة يتعثر كثير منها بحطام الآلات التي صهرتها النيران أو كادت تصهرها تماماً، ولم يتبق من صالة السبع بحرات سوى أطلال صالة شأن معظم الصالات والمحالّ المتاخمة للجامع الأموي.

لم تختلج نقطة دم في ياسر. بكثير من البرود كان يستقبل المعلومات عن الورشتين والصالة، التي لم يعد بإمكانه الوصول إلى أيّ منها بسبب الاشتباكات، ويكتفي، كلّما بلغته معلومة جديدة، بعبارة وحيدة شأنه دائماً في اقتصاده بالكلام: "في الله"، وعلى الرغم من العرض الباهر الذي قدّمه خالي مصطفى إليه لمرافقته معه إلى مصر

لافتتاح معمل في مدينة أكتوبر، فإنه اختار البقاء في حلب.

قسمَ صالة شارع النيل إلى قسمين: داخلي صغير يتسع لماكينتي خياطة، وخارجي كبير مطلّ على الشارع للعرض والبيع، وعلى الرغم من تعرّض الصالة غير مرة لغير أذى بسبب قذائف جهنم التي كان المسلحون يرسلونها من حيّ بني زيد إلى شارع النيل، فإنه سرعان ما كان يعيد كلّ شيء إلى ما كان عليه، ويجدّد فيه أحياناً على نحو أحسن ممّا كان، وكانت لازمته كلّما سألته أمّي عن الأحوال: "الحمد لله".

ذات مساء عاد ياسر إلى البيت مبكّراً، في نحو السابعة، بسبب انهمار القذائف على الشارع، ولم تكد الأسرة تجتمع على العشاء الجاهز الذي أحضره معه من الخالدية كما يفعل بين وقت وآخر، ولم تكد الأيدي تُهرع إلى الأطباق المختالة بنفسها فوق الطاولة وهي تزكو بروائح الشواء المنبعثة منها، حتى أطلق "قذيفة" حجّرت كلّ شيء في مكانه:

- حواليك شي بنت عالم وناس أمّ ياسر؟

* * *

سهر الورد (16)

إبراهيم ليس شاعراً فحسب، بل شاعر رهيف، بل شديد الرهافة، وعلى الرغم من أنني لستُ مختصة بالأدب، ولا أعرف عنه سوى ما عرفتُه خلال سنوات الدراسة ما قبل الجامعة وفي الجامعة نفسها في مقرر اللغة العربية لغير المختصين، وسوى شعر السهروردي الذي التهمته في ليلة واحدة، والمجموع في كتاب بعنوان "ديوان شيخ الإشراق" كنت أخذته من يحيى، فإنني أقدّر أنّ شعره مختلف عما أقرأ ممّا تنشر الصحيفة التي أكتب فيها، وعمّا أسمعه من شعراء يتناوبون على شاشات الفضائيات بوصفهم نجوماً، كما أقدّر بأنّه سيكون له اسمه الذي سيؤرّق غير قليل من هؤلاء النجوم، ويدفعهم إلى حصاره من غير جهة، وبغير وسيلة، كما يحدث عادة في عالمنا العربيّ المزدحم بالضواري التي ترتعد فرائصها كلّما بزغ ضوء جديد تخشى مزاحمته الأضواء التي صنعتها لنفسها حقّاً أو زيفاً.

وإبراهيم قبل ذلك، رقّةً وعذوبةً وحساسية وذوقاً، أشبه بملاك هبط من السماء فكان على هيئة إنسان. كان سبقنا، لجين وأنا، إلى موعدنا معه في كافتيريا الشلال، ولم يكد يرانا من خلال الزجاج المطلّ على الشارع، حتى نهض من مكانه، وكان في استقبالنا عند الباب.

- أهلاً دكتورة ورد.

ومدّ يده مصافحاً لي، فاستعرتْ عينا لجين بضيق تلامح بأوّل لظاه فيهما سرعان ما أخمد إبراهيم جهره بنفسه بقوله:

- أهلاً لجين.

ثمّ نقل كفّه إلى كفّها، ثمّ تابع يقول وعيناه تضيئان بغبطة باذخة فيهما:

- أيّ كرم تغمرني السماء به هذا الصباح!

ثمّ إليّ بعد أن أخذ كلٌّ منا مكانه من الطاولة:

- ماذا تفضّلين حضرتك دكتورة ورد؟

- ألن تسأل لجين أيضاً؟

- أعرف مشروبها المفضل الذي صار بعد أول لقاء بيننا المفضل لديّ أيضاً.

- غير القهوة اختر لنا ما تشاء.

قلتُ ذلك لأنّ القهوة لم تعد تعني لي شيئاً من دون يحيى، وأضفت:

- كما ستشربان أنت ولجين.

كنتُ أصغي إلى إبراهيم أكثر ممّا كنت أتكلّم رغبة في معرفته أكثر ممّا حكت لجين لي عنه، وكان كلّما مضى في الحديث أزداد إعجاباً به ويقيناً بأنّ قلب لجين لم يخطئ خفقه باسمه، وأكثر من ذلك فرحاً بوعيه الذي يتقدّم على عمره، ولا سيما عندما أجاب عن سؤالي له عمّا يدفعه إلى إلغاء تأجيله، أي قوله إنّ الناس جميعاً يستطيعون الكلام أمّا الفعل فهو وقْفٌ على الحقيقيين منهم، وأضاف مستعاراً من الشاعر الألماني غوتة كما قال إنّ النظرية رمادية، أما شجرة الحياة فخضراء، وأضاف:

- أيّ وصف يليق بالشاعر الذي يتغزل بالجمال ويمارس القبح! دكتورة ورد، هذه الحرب اختبار للسوريين جميعاً، مسلمين ومسيحيين.

وبعد أن رشفَ قليلاً من عصير الليمون أضاف:

- دكتورة ورد، أثق بأنك التقطتِ ما قصدتُ، وما وراءه أيضاً.

- بالتأكيد.

ثمّ نهضتُ مودّعة وقد أزفَ موعدي مع يحيى، وتركتُ لجين هائمة في فضاء دهشة دهمتها وهي تراني آخذ إبراهيم إلى صدري، وأقبّله، وأقول:

- حماكَ يسوع.

إشراق (15)

وَلَو أنّ ليلى العامريّة سلّمت
عَليَّ وَدوني تربَةٌ وصفَائحُ
لسلّمتُ تسليمَ البشاشَة أوزَقَا
إِلَيها صَدى مِن جانبِ القبرِ صالحُ

كأنّ الريح (16)

تسابقُ يمنى الزمن لتحتفل بأوّل معرض فرديّ لها. تشاركنا بعض جلسات الأسرة لوقت قصير، ثمّ تنصرف إلى غرفتها لتنجز اللوحات التي كانت وضعتْ مخططات لها على الورق. ازدحمتْ غرفتها الصغيرة باللوحات، فتمنيتُ عليها الانتقال إلى بيتي لتستكمل ما تبقّى أمامها من العمل في لوحة كبيرة كانت ما تزال قماشاً مشدوداً على إطار من الخشب، لكنّ أمّي أقسمت بألا تخطو خطوة واحدة خارج البيت في هذه الظروف سوى ما يعني دوامها في المدرسة.

لم يكن من عادتي الغياب عن بيت الأسرة لأكثر من يوم. الاشتباكات التي اشتدّ عصفها مؤخراً لإيقاف زحف المسلحين نحو أبنية جديدة متاخمة لحيّ صلاح الدين أرغمتني على البقاء أسيراً في بيتي يومين كاملين، ولم يكد عصف الاشتباكات يهدأ قليلاً، حتى كنتُ هناك، ثمّ في غرفة يمنى التي لم تكد تراني، حتى هتفت:

- سمعتني؟ كنت أناديك بقلبي.

ثم وهي تومئ بفرح طفلة إلى اللوحة الكبيرة أمام عينيّ:

- والآن رأيك يا معلّم.

أدقّقُ في اللوحة. أبتعد عنها بضع خطوات. أتفحص مفرداتها: أمّ تحتضن طفلاً بيد وتمسك طفلة بأخرى وتركض نحو جهة غير محددة وثمة خوف باهظ يفترس ملامح وجهها، بينما الطفل والطفلة يبكيان بحرقة واضحة، وعلى بُعد خطوات من الثلاثة تتمدد جثة لرجل مثخنة بالدماء، وأشلاء من حجارة من بناء متهدّم، وفي الخلفية يبدو وجه فتاة ترمق بعينين حزينتين شيئاً لا يُرى.

الحرب، الريح الصرصر بتعبير الشيخ شهاب الدين. أستعيد في ذاكرتي مفردات جدارية بيكاسو، غرنيكا: الحصان والثور والنساء المقطعات الأجساد والجندي والمصباح، فألعنُ الحروب، مشعلي نيرانها، المتخمين بنهمهم للدماء والدمار والخراب، ..

- أعجبتك؟

جزَّ سؤال يُمنى ذاكرتي من عنقها، فسقطتْ مضرجة بدماء تشبه بحمرتها الباهظة تلك التي تنزف من جثّة الرجل في اللوحة، قلت:

- أيّ سرعة مدهشة هذه في إنجاز اللوحة؟ يومان فقط؟!

أعادت يُمنى السؤال:

- أعجبتك؟

- في ملامح الفتاة في الخلفية بعض من ملامحكِ.

- هي أنا.

سقطتِ الكلمتان على رأسي كما يفعل نيزكان معاً وبآن في أرض جرداء، ولم تمهلني يُمنى لترميم ما تصدّع من الزمان والمكان اللذين كنت أنتمي إليهما قبل أن تميدا الكلمتان بالأرض تحت قدميّ، إذ سرعان ما طوّحت بي خارجهما من جديد:

- سأموت يا يحيى.

- خلصْ يُمنى.

لم يحدث يوماً أن صرختُ في وجه يُمنى، بل لم يحدث قطّ أن رفعتُ صوتي فوق صوتها. صرختُ، ثمّ أحطتها بذراعيّ، شددتها إلى صدري، فألقتْ برأسها على كتفي كما تفعل عادة، وأخذت تنشج كما تفعل طفلة سرقَ أحدٌ دميتها الأثيرة من بين يديها، وقالت:

- ستكون معي في افتتاح المعرض؟

أبعدتُ رأسها عن كتفي، أحطته بكفّي، ثبّته أمام عينيّ، وقلتُ وأنا أكبحُ طيشَ دمع يهدر فيهما:

- خلصْ يُمنى خلص.

ولم أكد أستعيدها إلى صدري، ولم تكد هي تستعيد رأسها إلى كتفي، حتى ارتطمت إحدى قدميها بالطاولة الصغيرة التي تضع علب الألوان فوقها، وحتى أفلتت نفسها من ذراعيّ، وقالت وهي تشير إلى الألوان المبعثرة على الأرض:

- شفت؟

وكانت شاهدتها تومئ إلى الأحمر الذي كان يبتلع بكثرته الألوان جميعاً، فإلى حامل اللوحة الذي سقط هو الآخر على الأرض، فكاد يصير حطاماً على الرغم من قوّته التي أعرف، والتي ظلّ الخواجا هوفيك يحدثني عنها ساعة كاملة قبل أن أدفع ثمنه له، ثم أحمله إلى يمنى هدية بمناسبة تخرجها في المعهد.

حطام! يكاد كلّ شيء في حلب يصير حطاماً.

حطام.. حطام. تتكاثر الكلمة حتى تكاد تسدّ مجرى الهواء في فمي، تغيم عيناي ولا شيء في ذاكرة حدقتيهما سوى طيف صورتين: حطام هديتي الأحبّ ليمنى، وحطام مئذنة الجامع الأموي التي سقطت هذا الصباح.

نهر الذهب (3)

يعود تاريخ بناء مئذنة الجامع الأموي أول مرة، بل البدء ببنائها، إلى ما قبل نحو ألف سنة بأمر من قاضي حلب آنذاك، أبو الحسن محمد بن يحي ابن الخشاب، وتمّت عمارتها سنة أربعمئة و اثنتين وثمانين على يد بنّاء ماهر اسمه حسن بن معاذ

الساماني من حجارة معبد قديم للنار صار أتوناً لحمّام كان قرب الجامع، وعقدَ تلك الحجارة بالرصاص والكلاليب.

تقع المئذنة في الجهة الشمالية الغربية من الجامع. مربعة المسقط، يتراوح طول الضلع منها ما بين نحو خمسة أمتار إلى نحو أربعة أمتار ونصف، ويزيد ارتفاعها على خمسة وأربعين متراً، ويُصعد إليها من باب صغير يؤدي إلى درجات يبلغ عددها مئة وخمساً وأربعين درجة، وتتكون من أربعة أدوار، لكل دور زخارفه المميزة من سواه من الأدوار الأخرى.

ليلة الاثنين، الثامن عشر من شوال سنة خمسمئة وخمس وستين للهجرة أصابت حلب زلزلة عظيمة، فحرّكت المئذنة، ودفعت هلالاً كان على رأسها مقدار ستمئة قدم، وتشققت المنارة نفسها. وفي الرابع والعشرين من سنة ألفين وثلاث عشرة للميلاد، وبسبب عبوة تمّ تفجيرها في قاعدتها، انهارت المئذنة، وتحولت إلى ركام.

* * *

سهر الورد (17)

لا يمكن لامرأة أن تسبق نجاح، المديرة الجديدة للمركز، في شغفها بالأذى، وإلى الحدّ الذي يُعجز الجنّ عنه، كما يُعجز الإنس، في تصوّر، مجرّد تصوّر، أن تأثم امرأة به، امرأة شاءها الله أن تكون كالماء عذوبة، والندى رقّة، والضوء رهافة، أو أن تكون ثمة إنسان ينتمي إلى جنس النساء على هذا النحو الذي يشبه نجاح مهارة في تفتيق الأذى من تحت أظافر قدميها.

منذ نحو سنة، وبينما كنت أبحث في غوغول عن حكاية سفينة نوح، عثرت بكتاب للكاتبة المصرية سلمى مجدي بعنوان: "أسوأ النساء في التاريخ"، فاستوقفني العنوان، بل استفزني كثيراً ليقيني بأنّ المرأة أرقّ وأشفّ مخلوقات الله على الأرض، وعلى الرغم من أنني تجاوزت الكتاب إلى مواضع أخرى في محرّك البحث، فإنني سرعان ما وجدتُ نفسي مدفوعة إلى العودة إليه، فإلى حفظه لديّ، ثمّ قراءته، وما كنت أمضي من

صفحة إلى أخرى فيه، حتى كانت نجاح تقفز لي من بين السطور وهي تمدّ لي بلسانها ساخرة من مؤلفة الكتاب ومني بآن، لكأنّها تقول: لا والغة زوج نوح التي أبت مرافقته في السفينة واستعصت ولدهما عليه، ولا عنيزة التي حاكت المؤامرة لقتل ناقة النبي صالح، ولا دليلة التي خانت شمشون، ولا كاترين الثانية إمبراطورة روسيا، ولا.. يساوين شيئاً شعرة في رأسي.

حكيت ليحيى عن دعوتها لي إلى مكتبها بينما هو خارج المركز، فقولها بصيغة الأمر أن أختار مكتباً آخر غير الذي يجمعنا يحيى وأنا، فجوابها عندما سألتها عن السبب: "ما عندي وقت لأي سؤال". وليتني لم أحكِ، فلم أكد أكمل الحرف الأخير من كلمات سجاح، كما كان يحيى يسميها ولم أكن أعرف السبب ولا مَن سجاح هذه ولم يخطر لي مرة أن أسأله، حتى نهض من كرسيه بسرعة كما لو أنّ عقرباً لدغته، وغادر المكتب، ولم يستجب لأيّ نداء لحقت به خلفه.

حتى عودته ظللتُ أذرع أرض المكتب جيئة وذهاباً، وعندما تعبت ألقيت بجسدي فوق كرسيه، وحاولت نسيان الوقت بتقليب صفحات كتاب على طاولته، كتاب من تآليف الشيخ شهاب الدين عنوانه: "كلمات الصوفية"، وتوقفت مطولاً عند فقرة منه يقول الشيخ فيها: "**فإنّه إذا بُعثِرَ ما في القبور، وحضر البشر في عرصةِ الله تعالى يوم القيامة، لعلّ من كلّ ألفٍ تسعمئة وتسعاً وتسعين يُبعثون من أجداثهم وهم قتلى العبارات، ذبائح بسيوف الإشارات، وعليهم دماؤها وجراحها. غفلوا عن المعاني، فضيّعوا المباني. الحقيقة شمس واحدة لا تتعدد مظاهرها من البروج. المدينة واحدة والدروب كثيرة، والطرق غير يسيرة**".

قرأتُ الفقرة غير مرة، وتأملتها غير مرة. تفحصت معاني العبارات والكلمات، وقلّبت كلّ عبارة وكلّ كلمة على غير قصد ومعنى، وبين كلّ تقليب وآخر كنت أجد نفسي في مواجهة عبارة واحدة تبزغ من بين السطور، هي أنّ الإيمان واحد مهما تعددت الطرق إليه. وبينما أنا أضع ورقة صغيرة في الصفحة التي تحتويها الفقرة لأتثبت من يحيى عن صواب ما انتهيت إليه دخل يحيى، ولم يكد يدخل، حتى هُرع إليّ واحتواني بين ذراعيه على الرغم من أنّه لم يغلق الباب وراءه، وقال:

- ما دام فيّ قلب يخفق، فلن أسمح لمخلوق برميك بوردة.

- حبيبي.

وانتبهت إلى باب المكتب مشرعاً على آخره، فأفلتُ من ذراعيه، وأسرعت إلى الباب وأغلقته، ثمّ عدتُ إليه، وعانقته، وأطلقتُ لشفتيّ شغفهما بنبيذ شفتيه، وبينما أصابعي توغل في شعره أبعدني عنه على نحو مفاجئ وهو يقول:

- امشِ.

لم أسأل يحيى، كعادتي، عن المكان الذي سنمضي إليه. كنتُ إلى جواره في السيارة التي أعارها ياسر له وأكتفي بالنظر إليه، ووحدها أصوات الرصاص التي كانت تزداد صخباً كانت تشير إلى أنه يقود السيارة جهة بيته في حيّ الأعظمية.

ونحن نعدّ القهوة حكى يحيى لي عن نجاح، عن أشياء كثيرة عرفها خلال السنوات الخمس التي أمضياها في القاهرة وهما يعدّان لنيل شهادة الدكتوراه التي لم تستطع هي الحصول عليها إلا بعد ثلاث سنوات من انتهاء مدة الإيفاد، وكيف أنجزتها، وعن ضحاياها من الموفدين خلال ذلك، وقبل ما سبق كلّه وما بعده براعتها في إيهام الآخرين بالرّقة والدماثة واللباقة، بينما هي تخفي تحت قفازين من الحرير مخالب ذئب أو ثعلب، وعن خلعها الحجاب أحياناً ووضعه أحياناً ثانية، ثمّ عن علاقتها برجل من المخابرات المصرية يكبرها بنحو عشرين سنة. قلت:

- المهم.

- لا شيء، ذكّرتها بشيء، وانتهى الأمر.

- أيّ شيء؟

- تشربين قهوة من جديد؟

هجمت نحوه أدقّ بقبضة يدي على كتفه، وأردد:

- احكِ الآن، واللهِ إذا لم تحك...

ولم يدعني أكمل، بل قال من جديد:

- تشربين قهوة؟

ثمّ أمسك يدي، وشدّني إلى صدره، وأخذ شفتي بين شفتيه، وهو يقول:

- هنا أطيب قهوة في الكون.

وبين فنجان قهوة وآخر من شفتيّ، وكأس نبيذ وآخر من شفتيه، كنتُ أغمغم،

أشهقُ، أزفرُ: "يحيى، يوحنا، حبيبي"، وكان سرير يحيى في غرفة النوم يخفق على إيقاع جسدين يصخبان بالحياة، ويهزئان بأصوات الرصاص التي كانت تزداد عواء على بعد بنائين أو أكثر، وعندما يبلغان رعشهما معاً يتهاطل من غير مكان في الغرفة صوت يشبه صوت الشيخ شهاب الدين:

- أحدٌ أحدْ.

إشراق (16)

فُزبِالنَّعيمِ فَإِنَّ عُمرَكَ يَنفـدُ
وَتَغنَّم الدُّنيـا فَلَيسَ مُخَلّـدُ
وَإِذا ظَفرت بِلـذّة فَـانهَضْ بِها
لا يَمنَعنّك عَن هواكَ مَفنّـدُ
وَصِلِ الصّبوحِ مَع الغَبوق فَإِنَّما
دُنيـاكَ يَوم واحد يَتَـرَدّدُ

نهر الذهب (4)

في تاريخ حلب لمحمد بن علي العظيمي الحلبي أنّه في سنة أربعمئة وخمس وثلاثين للهجرة ظهر ببعلبك في حجر منقور رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام، فنُقل إلى حمص، ثم إلى حلب، ودُفن في جرن من الرخام في المقام الأعلى في قلعة حلب، ثم وضعَ الجرن في خزانة إلى جانب المحراب وأُغلقتْ. ثمّ سنة ستمئة وتسع وخمسين للهجرة أحرق التتار المقام، فنُقل الجرن إلى الجامع الأموي.

وفي إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء للطباخ في ترجمته لعليّ بن أسد الله بن عالي الذي كان متولياً على الجامع الأموي أنه لما أرادوا ترميم حيطان الجامع، وقشروا الكلس عن واحد منها، ظهرت رائحة تفوق المسك والعنبر، وإذا فيه صندوق من المرمر مطبق ملحوم بالرصاص مكتوب عليه: هذا عضو من أعضاء نبي الله زكريا عليه الصلاة والسلام، فاتخذوا له هناك في ناحية القبلة قبراً، وكان

ذلك سنة ألف ومئة وعشرين للهجرة.

وفي موقع آخرمن إعلام الطباخ أنّ عبد الرحمن بن مصطفى البكري الذي كان تولّى القضاء في حلب سنة ألف ومئة وعشرين للهجرة كتب في آخررسالة له يتحدث فيها عن تاريخ حلب أنهم عندما شرعوا في توسعة مكان المنبرظهر جرن من الرخام الأبيض بين حائطين، فلمّا حملوه فاحت منه رائحة طيبة، ثم وضعوه في خزانة، وقد حققنا، كما كتب البكري، أنّ المدفون هو رأس سيدنا يحيى عليه السلام لا سيدنا زكريا عليه السلام كما هو مستفيض ومشهوربين الناس.

كأنّ الريح (17)

سألتُ الشيخ شهاب الدين عن ابني جُهبل، زين الدين ومجد الدين، اللذين كانا أكثر فقهاء حلب تشنيعاً عليه، وإلحاحاً على إباحة دمه، فضحك حتى بانت نواجذه على غير عادته عندما يضحك أو يبتسم، وسألني بدوره عن شبيهيّ حاوية القمامة كما أسميهما، وليد وخزام، اللذين لم يكن من شاغل لهما في ليلهما ونهارهما سوى مطاردة أخباري، ومعرفة كلّ صغيرة وكبيرة من شؤون حياتي.

وما إنْ استجمعتُ على عجل ما سأحكي له عنهما، حتى بادرني بالقول إنه يعرف كلّ شيء، وإنّ وليد خاصة أكثر موجدة عليّ من خزام بسبب مزاحمتي له المكانة التي اصطنعها لنفسه، ولم يدعني أجيب، بل أسرع فور انتهائه من السؤال إلى القول وهو يعقد ما بين حاجبيه إنّ ثمّة شيئاً واحداً يجمع بين الأربعة هو الخوف من افتضاح أمر جهلهم بما يزعمون من العلم، وإنّ ذلك شرعة المتعالمين الذين لم ينالوا من العلم سوى ما يعني السطوح منه، والذين لا سبيل لبقاء سطوتهم على العامة وديمومة الامتيازات التي يحصلون عليها من وراء زعمهم العلم ببقاء العلماء حقاً. قلتُ:

- قرأتُ لك يا شيخ شهاب الدين قولك: **اعلمْ أنك ستُعارض بأعمالك و أقوالك و أفكارك، وسيظهرُ عليك من كلّ حركة فعلية أو قولية أو فكرية صورجانية، فإنْ كانت تلك الحركة عقلية صارت تلك الصورة مادة لمِلك تلتذّ بمنادمته في دنياك وتهتدي بنوره في أخراك، وإن كانت تلك الحركة شهوية أو غضبية صارت تلك**

الصورة مادة لشيطان يؤذيك في حال حياتك ويحجبك عن ملاقاة النور بعد مماتك.

قال:

- أجلْ.

وبعد أن صمت قليلاً تابع يقول:

- وليد وخزام اثنان فحسب من أحفاد ابني جهبل، من كثرة ابتُليت بهم الأرض منذ قال نور الأنوار لآدم وحواء: **اهبطا منها جميعاً بعضُكم لبعض عدوٌّ**.

ثمّ استأذنني في الغياب قليلاً لأمر لم يفصح عنه، فرأيتُني صريع وحشتين معاً، غياب الشيخ وحشد الصور التي كان رأسي ينوء بها من أقوال وليد وخزام وأفعالهما على الرغم من أنني لم أرمِ أيّاً منهما بشوكة صغيرة يوماً، بل على الرغم من أنّ صخبهما الزائف بنفسيهما لم يشغلني لحظة، لأنني كنت، وما زلت، مؤمناً بأنّ الميت وحده مَن يسلم من أذى الغيرة والحسد، وبأنّ العرب كانت على حقّ في المثل الذي قالت: "**لا مروءة لكذوب**" كما هما تماماً، ولاسيما صداحهما الدائم بالحقّ والخير والجمال وأفعالهما الضدّ لكلّ شيء يتصل بالحقّ والخير والجمال.

في الأمثال الشعبية أنّ مَن يسرق بيضة يسرق جملاً، وفي الواقع كان عليّ أن أعتبر بالمثل منذ قرأت لوليد زعمه أنه مختص في فلسفة العمارة ولم يكن كذلك، بل في نظم الإنشاء الهندسي. ولأنني لم أعتبر، فقد كان عليّ أن أدفع الثمن تلو الثمن لمحاولاته في تصدير نفسه بوصفه يتيمة دهره في عشق حلب والدفاع عن أوابدها الأثرية، وفي إبعادي عن أيّ فعالية علمية، مؤتمر أو ندوة أو تحقيق، ممّا يعني آثار المدينة التي حصلت على شهادة الدكتوراه بتفوق في مجالها، وليس أخيراً استماتته في إلغاء قرار لرئيس مجلس المدينة بتسميتي عضواً في لجنة حماية حلب القديمة.

ولم يكن خزام أقلّ ضغينة وحسداً وحقداً، بل، في غير شأن، كان يتفوق على وليد في المكر والدهاء والخداع، وفي إخفاء الذئب الهاجع فيه تحت قناع من الورع والتقوى، حتى لتصحّ فيه أمثال العرب جميعاً عن الذئب: أظلمُ من ذئب، وأغدرُ من ذئب، وأروغُ من ذئب... ولم يكن من سبب لضغينته وحسده وحقده سوى يقينه بأنّ وجودنا معاً في مجلس واحد يعني عدمه، وأنّ عدمي يعني وجوده، ولذلك كان شأن وليد لا يدخر

وسيلة لاستثنائي من أيّ لجنة للحكم في رسائل الماجستير والدكتوراه، وبتسمية مَن لا صلة لاختصاصه بموضوع الرسالة، مستقوياً بعلاقته مع أحد المسؤولين الذين يشبهونه في إيهام مَن حولهم بأنهم من جنس الملائكة بينما هم في الحقيقة أكثر نهماً للأذى من أبالسة الكون جميعاً.

وليد كان أبرع من خزام في إقامة العلاقات مع المسؤولين في حلب والعاصمة. كان يعود من المهمات التي يكلّف نفسه بها محملاً بأفخر أنواع العطور والخمور وساعات اليد والفراء وأغلاها ثمناً، ويوزعها على أولئك وزوجاتهم وعشيقاتهم، وعلى الرغم من العروض التي كانت تتدفق عليه ليكون في موقع أعلى من موقعه، فإنه كان يؤثر البقاء حيث هو، وكان يفسّر ذلك للمقربين منه بقوله إنه في موقعه يستطيع أن يفعل ما يشاء من دون أن يكون لأحد وصاية عليه، العيش في الظلّ الوظيفي واغتنام القليل، تلك كانت فلسفته، فالقليل فوق القليل يصبح كثيراً من دون أن تثير انتباه أحد.

عاد الشيخ، فاستعدتُ هدأة روحي بعد أن كانت تتقلّب على جمر غير صورة من أفعال وليد وخزام، ولم يكد يسند ظهره إلى جدار القبر، حتى سألني:

- ما أخبار الحلوية؟

باغتني السؤال الذي لم يكن ثمة ما يومئ إليه منذ استقباله لي، فاحتميت بالصمت الذي سرعان ما بدده بقوله وعيناه تغصّان بقهر باهظ فيهما:

- لعلّ الشيخ افتخار الدين يقوى على دفع الأذى عنها.

وبينما هو يمضي براحة يمينه إلى أعلى رأسي:

- ليس مِن حلب مَن يطعنُ حلب.

نهر الذهب (5)

ومن أبرز ما يميز المدرسة الحلوية محرابها الذي كان نور الدين الزنكي أمر بصنعه، وهو من خشب الصنوبر الحلبي، المرصع بالأبنوس والعاج والصَّدف، وفيه كتابة محفورة بخطّ ابن العديم، مؤرّخ حلب، بالإضافة إلى خزانة كتب عامرة، فالطائر النحاسيّ الذي كان يعلو قبّتها، ويدور مع الشمس.

كانت المدرسة من أعظم المدارس صيتاً، و أكثرها طلبة، وأغزرها دفعاً لرو اتب موظفي الدولة وخدّامها، وظلّت كذلك إلى أن استولى التتارعلى حلب، في العاشر من صفر سنة ستمئة وثمان وخمسين، ودخل صاحب سيس إلى الجامع الأموي، وقتل فيه خلقاً كثيراً، وأحرق الحائط القبلي منه، وامتد الحريق غرباً وقبلة إلى المدرسة.

تقع المدرسة أمام الباب الغربي للجامع الأموي في حلب، على بعد خطوات منه، في سوق المسامرية، الحدّادين، الذي كان يُسمى سوق الحلاوين نسبة إلى شهرته بكثرة بيع الحلوى، ويتصدرها باب خشبي كبير. وهي مربّعة الشكل، أو تكاد. تزيد مساحتها على ألف وخمسمئة مترمربّع، تبدأ ببو ابة خارجية على شكل إيوان صغير يتجه نحو الشرق، ثم ثلاث درجات ترتفع نحو صحن المدرسة، المربّع الشكل تقريباً، والذي تتوسطه بركة يتناوب حجارتها لونان، الأسود والأصفر، وعلى جو انب ثلاثة من باحتها تصطف قاعات للدراسة، وإلى جهة الغرب منه مسجد تعلوه قبّة، وإلى جواره قاعة ملحقة بشكل نصف دائرة، تحدّها أعمدة رخامية بتيجان، وتشبه أعمدة كنيسة مارسمعان العمودي في ريف حلب، وتعلو القاعة قبّة نصفية.

احتفظت المدرسة لقرون بواحدة من الشعرات الثلاث للرسول الكريم التي كانت في حلب، ثمّ نُقلت إلى الجامع الأموي، الكبير، إلى مقام النبي زكريا عليه السلام.

بعد أشهر قليلة من سيطرة المسلحين على الجزء الشرقي من حلب، ومن وصولهم إلى أحيائها القديمة المتاخمة للقلعة، تعرّضت المدرسة لو ابل من القنابل والرصاص والحر ائق التي هشمت أجزاء منها، و أتلفت أخشابها وزجاجها وحديدها بشكل يكاد يكون كاملاً، و أتت الحر ائق على الأعمدة والرواق الخارجي، وطال الدمار قبّة المسجد والمثلثات الحاملة لها، كما لحق الحريق والخراب والدمار بالمحراب الذي يعد أحد أبرزكنوزالفنّ الإسلامي عبرالتاريخ.

* * *

سهر الورد (18)

أكثر من شهرين مضيا على التحاق إبراهيم بالجيش لم تحكِ لجين خلالهما لي شيئاً عنه، ولم أسألها بدوري عنه، حتى هذا المساء الذي كنت مستغرقة فيه بين أطلال الكتب التي حملها يحيى إليّ عن تاريخ حلب، الذي كانت معرفتي به لا تتجاوز بضعة من المعلومات، والتي ما كنت أمضي من واحد إلى آخر منها، حتى كان إحساسي بالجهل فيما يعني المدينة التي ولدت فيها، وأنتمي إليها، كما ينتمي إليها أجدادي، يزداد تورماً، ويزاحم إحساساً آخر يزداد توقداً، إحساسي بالزهوّ بالانتماء إلى مدينة لم أكن أعرف أنها أقدم مدينة مأهولة في التاريخ.

في بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم لم أكد أقرأ قوله: **وفي جانب السورقلعةٌ في أعلاها مسجدٌ وكنيستان، وفي أحدهما كان المذبحُ الذي قرّبَ عليه إبراهيم عليه السلام**، حتى وجدت أصابعي تمضي إلى هاتفي الجوال، وتكتب للجين: تعالي، كما اعتدنا، لجين وأنا، عندما تترك لجين الغرفة وتمضي إلى غرفة الجلوس لكي لا تشغلني عن القراءة أو الكتابة.

- ما الأخبار؟

- أيّ أخبار؟

- إبراهيم.

علتْ صُفرة مباغتة وجه لجين، وأسرعتْ إلى القول:

- ورد في شي أبوس ايدك؟

- ويسوع أسأل فقط، أريد أن أطمئن عليكما.

وبعد أن هدأت روحها واستعاد وجهها حمرته الشفيفة حكت لي عن اتصال إبراهيم الأخير بها ظهيرة أمس، وقوله لها إنّه فور وصوله إلى اللواء الذي تم فرزه إليه سيتصل بها، وكانت قبل أن تصلها رسالتي تحاول الاتصال به، ولكنها لم تتمكن من وجود خطه خارج التغطية.

- ألم يقل لك اسم اللواء، مكانه؟

- لا، فقط وعدني بالاتصال فور وصوله.

وأضافت وقد استعادت الصفرة طيشها في وجهها:

- ورد في شي بدك تقوليه، قوليه بحياة الرب.

- والله ما في شي.

ولم أكد أكمل، حتى علا صوت رنين هاتفها الجوال، فامّحت الصفرة التي كانت دهمتْ وجهها قبل قليل، غابت كأنْ لم تكن، وكانت عيناها تضحكان وهي تقول:

- برهوم.

بعد ثوان قليلة من امّحاء الصُفرة عادت فاحتلّت وجهها من جديد، ثمّ سقط الهاتف من يدها، ثم سقطت هي على الأرض غائبة عن الوعي وهي تهذي بكلمة واحدة: برهوم.

صوت ارتطامها بالأرض أيقظ أمّي التي سرعان ما هُرعت إلينا، وأخذت تضرب على صدرها، وتنادي: "يا عدرا يا أمّ النور"، ثم تمدّ يدها إلى كأس الماء، وتملأ كفها بقليل منه، ثمّ تمسح به على وجه لجين، فتصحو لجين شيئاً فشيئاً، تدور بعينين زائغتين في فضاء الغرفة، تتلمس ذراعيها ووجهها، وتشهق وتزفر بأقصى ما تستطيع من صدرها ورئتيها، لكأنها تتأكد من نجاتها من كابوس لعين.

حكتْ، فقالت إنّ المتصل لم يكن إبراهيم، بل آخر من هاتف إبراهيم قال لها إنّه يتحدث باسم كتيبة الشهيد خلدون زين الدين، وإنّ إبراهيم، وعسكريين آخرين، ودائع لديهم حتى يفرج النظام عن المعتقلين من ناشطي الثورة في السويداء، أو..

ولم تكمل لجين كلامها، بل سقطت على الأرض، ولم تنفع ضراعة أمي: يا عدرا يا أمّ النور، ولم ينفع الماء الذي أخذت تمسح به وجهها، ولم يكن أمامي غير نقلها إلى المشفى وقد أخذ نفسها يضيق أكثر فأكثر، وكانت الساعة تجاوزت الواحدة ليلاً.

اتصلت بالإسعاف، فلم يردّ أحد، ولم تكد أصبعي تقفز نحو الرقم الثالث لهاتف يحيى في البيت، حتى فتحت لجين عينيها، واستعادت تنفسها شيئاً فشيئاً، وحتى أخذت تحكي من جديد:

- أو عشرين مليون ليرة، أو..

ولم تكمل، بل غطّت في نوبة بكاء مختلط بخوف كانت عيناها تجهران به، ولم أجد

نفسي إلا وأنا أمسكها من كتفيها، وأصرخ في وجهها:

- أو اشّو؟

- أو.. أو.. أو منشوفو جثة.

أخذت أمّي لجين إلى صدرها، وبينما هي تمسح على رأسها كانت تردد: يا عدرا يا أم النور، وبينما هي تفعل ذلك هُرعتُ إلى هاتف لجين، وبحثت عن آخر مكالمة واردة، ولم أجد رقماً، بل كلمتين:

الرقم الخاص.

إشراق (17)

أَحنّ لِذكراهُ إِذا ما ذَكَـرتُهُ

وَتَنهل عَبراتٌ تَفيض غُروبها

حَنينُ أَسيرِ نـازحٍ شدّ قَيدهُ

وَأَعوال نَفسٍ غابَ عَنها حَبيبها

كأنّ الريح (18)

سألتُ الشيخ شهاب الدين عمّا قرأتُ لابن خلكان في وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان منقولاً عن الشيخ سيف الدين الآمدي، أي قول الآمدي: اجتمعتُ بالسهروردي في حلب، فقال لي: لا بدّ أن أملك الأرض، فقلت له: من أين لك هذا؟ قال: رأيت في المنام كأني شربت ماء البحر، فقلت: لعلّ هذا يكون اشتهار العلم وما يناسب هذا، فرأيته لا يرجع عمّا وقع في نفسه، فتبسّم الشيخ، وقال:

- بلى، وأنا القائل أيضاً:

وبي أمـلٌ أنّي أسـودُ وكيف لا

وآل بويه بعدَ فقرهمُ سـادوا

وأحكمُ في أهل الزمـان كما أشـا

وأملك ما صانوا، وأهدمُ ما شـادوا

و أفعلُ ما أختارُ في كلّ فاسقٍ

من الصِيد حتى لا تراهم، وقد بادوا

فتحتُ عينيّ دهشة بتأكيد الشيخ، فباستعادته أبياته التي تعزّز التأكيد، فتبسّم الشيخ من جديد، وقال:

- تعجب؟

- ألستَ مَن زهدَ في الملبس والمأكل والمشرب؟

فاتسعت ابتسامته أكثر، وقال:

- الكلام ظاهر وباطن، حقيقة ومجاز. الأول للعوام والثاني وقفٌ على الخواص، وما قلتُ للشيخ الآمدي وما ذكرتُ لك مما قلتُ شعراً ظاهره المُلك كما تفهم العامة، وباطنه العقل. ما طمحتُ يوماً إلى زائل في الدنيا، ولذلك لم أمدح حاكماً، ولم أتقرّب من حاكم. لم أسعَ إلى الملك الظاهر بل سعى إليّ. ليس عالماً ولا فقيهاً مَن تعلّق بأذيال سلطان. كان لي شاغل واحد في نهاري وليلي، تحصيل العلم، أفما قرأتَ قولي إنّ السعادة منوطة بتحصيل العلوم، العلوم الحقيقية دون غيرها؟ تلك كانت سعادتي.

وكعادته التقطَ خيطَ الظمأ في عينيّ إلى المزيد من الفهم، فتابع يقول:

- ما عنيتُ بالمُلك والحُكم ما يعنيان في الظاهر، بل قوّة المعرفة التي تعيد أهل الزمان إلى ما كانوا عليه من صورة نور الأنوار، التي لو حكمت هذه الخليقة لما كان الدم، والموت، والخراب. العالِم لا يسعى إلى مُلك. مُلكُ العالِم ومملكته عِلمُه.

ثمّ على نحو مفاجئ سألني:

- ما أخبار إبراهيم؟

- إحدى ثلاث.

- مبادلة أو مال أو..

ولم يكمل الثالثة، بل اكتفى بحركة من رأسه لم أفهم القصد منها، ثم أطلق عينيه في فضاء المقام، ثمّ قال:

- الدمّ لغة العوام.

وبعد أن صمت قليلاً أضاف:

- قلْ لسهر الورد إنّ شهاب الدين سيكون الليلة عنده.

وما إنْ أتمّ قوله، حتى علا صوت رنين هاتفي، وحتى افترّت شفتا الشيخ عن ضحكة فارعة فيهما، وقال بينما هو يمضي بكفّه إلى رأسي ليمسح عليه: سهر الورد، وما إنْ رأيت نفسي خارج المقام، حتى أعدت الاتصال بسهر الورد بعد أن كنت لجمت صوت الهاتف عن متابعة رنينه في حضرة الشيخ، وفور أن فتحتْ الخطّ قلتُ: مشوار الطريق.

البيت يغطّ في وجوم فاحش الوجع، ولجين ممددة على الأريكة في غرفة الجلوس بينما أم ميخائيل إلى جوارها تمسح على رأسها بمنديل مبلل بالماء، وأبو ميخائيل يمسك يد ميخائيل الجالس على كرسيه المتحرك لكأنّه يخاف أن يفقده. أقسمت على الجميع ألا يتحرّك أحد من مكانه، وسحبتُ الكرسيّ الذي أشارت سهر الورد إليّ بالجلوس عليه قريباً من رأس لجين، وأخذت أحرّك رأسي يُمنة ويسرى ورنّمتُ بصوت خفيض: "برهوم حاكيني، زعلان سلّيني، من فرقـ"، ولم أتابع لأنّ لجين سرعان ما رفعت رأسها، ثمّ رمت به على صدر أمها، وأخذت في البكاء، وبآن كانت سهر الورد تسألني بعينيها عمّا إذا كنت عند الشيخ شهاب الدين، فأومأت بعيني بالإيجاب، فأسرعت إلى لجين، وأخذت رأسها من صدر أمها إلى صدرها هي، وقالت:

- شيخ شهاب لا يكذب.

ثمانية عيون معاً، عيون لجين وأمها وأبوها وشقيقها، كانت تنفر من محاجرها، تتراكض ما بين وجه سهر الورد ووجهي، تتساءل عمّا يكون شيخ شهاب، ثمّ تمضي إلى صورة مثبتة على الجدار، صورة مار جرجس والتنين، ثمّ صوتٌ واحد يمزّق الصمتَ الذي كانت الغرفة بلغت القاع منه:

- اجتْ الكهربا.

المؤيّد بالملكوت (9)

وحكى أحد فقهاء قزوين، فقال: نزلتُ برباطٍ بأرض الروم في وقت الشتاء، فسمعتُ صوت قراءة القرآن، فقلتُ لخادم الرباط: مَن هذا القارئ؟ فقال: شهاب

الدين السهروردي. قلتُ: إني منذ مدة سمعت به وأردت أن أراه، فأدخلْني عليه فقال: لا يدخل عليه أحد، لكن إذا علت الشمس يخرج ويصعد السطح ويقعد في الشمس فأبصره! فقعدت على طرف الصفة حتى خرج، فرأيته عليه لباد أسود وعلى رأسه أيضاً قلنسوة من لباد أسود، فقمت وسلمت عليه وعرفته أني قصدت زيارته، وسألته أن يجلس معي ساعة على طرف الصفة، فطوى مُصلّاه وجلس، فجعلتُ أحدّثه وهو في عالم آخر فقلتُ: لو لبستَ شيئاً غير هذا اللباد! فقال: يتوسخ. فقلت: تغسله. فقال: يتوسخ. فقلت: تغسله. فقال: ما حييتُ لغسل الثياب، لي شغل أهم من ذلك. آثار البلاد وأخبار العباد. القزويني.

* * *

سهر الورد (19)

من موقع للمعارضة إلى آخر، ومن صفحة إلى أخرى، أمضيتُ معظم الليل في محاولة معرفة شيء عن الكتيبة التي اختطفت إبراهيم وعسكريين آخرين بينما هم في طريقهم إلى اللواء الذي تمّ فرزهم إليه، القريب من مطار الثعلة، وبين المواقع والصفحات كنت أرتطم بما لم أكن أحسبُ أنّ قليلاً منه يمكن أن يكون في سورية التي اتسمت طوال تاريخها بالتعدّد والتنوع، والتي بدت لي من خلال تلك المواقع والصفحات سورية أخرى، سورية لا أنتمي إليها ولا تنتمي إليّ، كما لا ينتمي يحيى إليها ولا تنتمي إليه.

سيلٌ من القيح الاثني والديني والطائفيّ يملأ معظم المواقع والصفحات، ومن الشتائم واللعنات التي لا يمكن لأحد أن يصدّق أن تكون بشمة بهذه التخمة كلّها من البذاءات، والوعيد والتهديد بالقتل للآخر المختلف، وكنتُ كلّما قرأت أكثر ازددتُ حشرجة بالخوف ممّا يتربّص بالبلد من المزيد من جنون الدم والدمار والموت.

صباحاً لم أجد يحيى في المكتب، ومن عادته أن يسبقني إليه، فيبدأ إعداد لوازم القهوة التي صارت، منذ ذلك اليوم الأول لالتحاقي بالمركز، اليوم الذي أمسك يحيى في صباحه بيدي وأعادني إلى المكتب، طقساً لا يكون للصباح معنى في غيابه، ولا معنى

للحياة من دونه ومن دون يحيى فيه.

قدّرتُ أنّ سجاح، الدكتورة نجاح، طلبته إلى مكتبها، وتضرّعتُ إلى الممتلئة نعمة أن تكون معه، وما هي بضع دقائق حتى بزغ بقوامه الفارع في باب المكتب، ثمّ تسمّر عنده، ثمّ أومأ لي بأن أنهض، فامتثلتُ، ثمّ أومأ من جديد بأن أمضي نحوه، فمضيت، وما إنْ صرتُ على بعد قبلة من خدّه، حتى أومأ لي بأن أتوقف، فتجذرتُ في المكان الذي بلغت، ثم بأن أغمض عينيّ، فأسبلتُ جفنيّ كما لو أنني أغطّ في نوم عميق، ثمّ سمعتُه يقول: "عليكِ الأمان يا مليكة العصر والأوان"، فأطلقتُ عينيّ من كهف الظلمة الذي كانتا فيه، ورأيتُ فوق راحة يده مصحفاً وصليباً من الفضة معقودين بسلسال من الفضة أيضاً، فهتفتُ وأنا أحتويه بذراعيّ: "لي؟"، فقال وهو يدير جسدي نحو الخلف، ثمّ يرفع شعري الذي ينسدل فوق عنقي:

- إلهنا إلهٌ واحدٌ، آمين.

- أحبّك، أحبّك، أحبّك.

كنتُ أرنّم، ثم أمدّ يدي إلى باب المكتب ورائي، فأغلقه، وفجأة علا صوت رنين هاتف المكتب، فمضى يحيى إليه، وسمعته يقول:

- الله لا يردّها.

أمّا الهاء فتعود إلى سجاح كما قال يحيى على عجل، ثمّ أسرع إلى حقيبته وأخرج كومبيوتره المحمول، ثمّ فتحه، ثمّ كتب في الحقل الخاص بمحرك البحث اسم نجاح الدهان، وانتظرَ، وانتظرتُ معه، رحمة الشبكة الأكثر بطأ من سلحفاة، ثمّ أخذ يحيى يقرأ: "قبل ساعة من الآن. مسؤولة كبيرة في جامعة حلب تعلن انشقاقها عن النظام. التفاصيل في الفيديو".

تابعتُ ويحيى الفيديو، ولم يكد يبلغ منتصفه، حتى مضى بالمؤشر إلى يسار النافذة وضغط على إشارة الضرب في أعلاها، وهو يقول:

- العاهرة إذْ تحاضر في الشرف.

ثم نهض من كرسيه، ومضى إلى باب المكتب، وأعاد فتحه، وبينما هو يجلس وراء طاولته من جديد قال:

- صحيح أنّ في النظام مسؤولين ليسوا أقلّ عهراً، ولكن..

قاطعته متسائلة:

- وبعد يا يحيى؟

- لا بعد ولا قبل يا سهر الورد. لا يمكن لأحد، كما أقدّرُ، أن يعرف متى سيتوقف نهر العماء هذا. ما يحدث ليس حرباً بل حروب، مواجهة بين إرادات وقوى ومصالح، والدم سوريّ والموت سوريّ والدمار سوريّ.

لم يكن يحيى يتكلّم، كان يبكي. كانت روحه، بين الحرف والحرف، تعولُ بصمت، تئنّ بألف وجع ووجع، وتحشرج بغير شجو وشجن. قلتُ لأمسح عن روحه ما افترسها من كمد بينما أصابعي تضاحك سلسال الفضة في عنقي:

- أحبّك.

ثم نهضتُ نحوه، أخذتُ كفّيه بين كفّي، فصعقتني البرودة الباهظة فيهما، وشعرتُ بخوفٍ يشبه ذلك الذي اجتاحني عندما سقطت لجين على الأرض، واستعر الخوف أكثر عندما نسلَ كفّيه من كفّي وقال:

- سيحدث شيء يكسر الظهر يا سهر الورد.

قفزتُ نحو باب المكتب. أحكمتُ إغلاقه، وعدت إليه، وأخذت رأسه إلى صدري، ثمّ أمسكتُ المصحف والصليب المعلّقين في السلسال، ومررتُ بهما على شفتيّ، وأضفت:

- باسمهما يا يحيى لا تقل هذا.

إشراق (18)

بيني وبينك في المودّة نسبةٌ

مكتومةٌ عن سرّ هذا العالَم

نحنُ اللذان تعارفتْ أرواحُنا

مِن قبلِ خلْقِ الله طينةَ آدمِ

كأنّ الريح (19)

لحظة أخرجَ مستخدمو الطبابة الشرعية جثّة يُمنى فقدت القدرة على الوقوف، أحسستُ بأن الأرض تدور بي، وجدران غرفة ثلاجات الموتى تمشي نحوي، وسقفها يتطامن نحو رأسي، حتى كدت أترنّح لولا أمسك بي مدير الطبابة، ومضى بي إلى غرفته، ثم قدّم لي كرسياً، وأجلسني بنفسه، ثمّ هُرع إلى مبرّد الماء القريب من باب الغرفة، وعاد إليّ بكأس من جوفه، وتمنى عليّ أن أشرب ماءه حتى نهايته.

استعدتُ صحوي قليلاً، لكنّ عينيّ ظلّتا غير قادرتين على تمييز ما أرى، يغشاهما غبش فاحش، وبينما المدير يطلب إليّ أن أفتح فمي لأبتلع الحبّة التي أحضرها إليّ كان ثمة إحساس واحد يتردّد في رأسي هو بأنني لا بدّ سألحق بيمنى بعد بضع دقائق، كما لحقت بها عندما ولدتْ.

لم أكن خائفاً من الموت، لأنني كنت أعرف بأنه سيدركني ذات يوم ليس ببعيد، بل من الطريقة التي سيكون بها، انفجار سيارة مفخخة، أو قذيفة، أو رصاصة طائشة، أو طلقة من بندقية قنّاص، أو.. ففي حلب يصحّ قول الشاعر: تعددت الأسباب والموت واحد. الموت، ما لم يكن نهار واحد ينتهي، أو ليلة واحدة تنتهي، من دون أن يعود سيفه المجنون إلى غمده وليس على حدّه آثار دم بغير سبب، وفي غير حيّ من أحياء المدينة.

دفعَ المدير بورقة إليّ قائلاً إنها تقرير حول سبب وفاة المرحومة بتعبيره، فقرأت بعينين مرهقتين بالغبش: "ثلاث رصاصات قنّاصة متفجّرة استقرّت إحداها في الرأس وسببت تهتكاً كبيراً في الجمجمة، وثانية في نهاية الذراع اليمنى أحدثتْ تهشماً في عظام الرسغ وبتراً في الأصابع، وثالثة في أعلى الكتف الأيمن. حدثت الوفاة في تمام الساعة الواحدة وثلاث عشرة دقيقة من ظهر الاثنين...". وما إنْ انتهيت من قراءتها، حتى تابع يقول:

- يكاد لا يخلو يوم من دون شهيد أو اثنين يصلان إلى الطبابة، وفي بعض الأيام بلغ عدد الشهداء اثنين وثمانين في تفجير واحد كما تذكر، تفجير سيارتين مفخختين أمام كلية العمارة.

والمدير يتحدث كنتُ أغصّ بالسؤال عمّا دفعَ يمنى إلى الذهاب إلى منطقة السبع

بحرات، بل على الاقتراب منها وهي وما حولها ساحة حرب حقيقية بين الجيش والمسلحين، وقبل ذلك لماذا لمْ تخبرني كما اعتادت ألا تفعل شيئاً من دون أن تستعلم رأيي فيه، وكيف تمكنت من الوصول إلى هناك والطريق إلى السبع بحرات يعني الموت والموت وحده بسبب القنّاصة التي تزدحم بهم سطوح الأبنية المطلة على الساحة والجامع الأمويّ كما تزدحم بهم النوافذ الموصدة بأكياس من الرمل سوى فتحات صغيرة منها.

وبينما كنت أهمّ بالنهوض دخل رجل بثوب أبيض، ودفع إليّ بكيس من النايلون، وهو يقول إنّ في الكيس حقيبة قماشية وكاميرا للمرحومة بتعبيره أيضاً، الكلمة التي كلّما كنتُ أحاول أن أوصد أذنيّ أمامها كان بعض من العاملين في الطبابة يعيد إيقاد حرائقها فيّ، فيرفعني إلى أعلى ما يستطيع ثمّ يهوي بي بين أنياب صخر طائش الحوافّ.

الطرق إلى المقابر المعروفة في حلب محاصرة بالموت، موت يحاصر الموتى كما يحاصر الأحياء. كان علينا البحث عن قبر نواري جسد يمنى فيه، ولم يكن أمامنا سوى المقبرة التي أنشئت على عجل قريباً من قرية منيان التي تقع في الغرب من المدينة. أتممت وياسر ويعرب طقوس الدفن على عجل، ثم قلتُ لهما أن يسبقاني إلى البيت وإنني سألحق بهما بعد وصولهما بقليل، ولم أكد أصل إلى بيتي، حتى أسرعتُ إلى فتح الكيس، فإلى الكاميرا وأخرجت قرص الذاكرة منها، ووضعته في جهاز الكومبيوتر، وفتحت المجلد الأخير الذي يحمل تاريخ اليوم، ورأيت مجموعة من الصور التي كانت يمنى التقطتها قبل أن تخترق الرصاصات الثلاث جسدها. كاد الدم يجفّ في عروقي وأنا أرى صوراً لأطلال مكان أعرفه جيداً، وكنت زرته ويمنى غير مرة، جامع السلطانية، وعادت الأسئلة تنشب مخالبها في رأسي:

كيف وصلت يمنى إلى هناك؟ لماذا ذهبت إلى هناك؟ كيف تذهب والموت يحدق بالمكان، وبالطريق إليه، من مختلف الجهات؟ ألم تفكّر بمعرضها الذي لم يكن تبقى على افتتاحه سوى بضعة أيام؟

رنين الهاتف الثابت أوقف نهر الأسئلة عن فيضانه الرجيم، نهضتُ بتثاقل إليه، ضغطت على زر الصوت الخارجيّ، فانهمر صوت سهر الورد:

- يحيى، أين أنت؟ لماذا لا تردّ على هاتفك الجوال؟

إشراق (19)
لا تَأمَنِ المَوتَ الخَؤو
نَ وَخَفْ بَوادِرَ آفتـه
المَوتُ سَـهمٌ مُرسَلٌ
وَالعُمـرُ قَـدرُ مَسـافَته

نهر الذهب (6)

يبعد جامع السلطانية عن مدخل قلعة حلب بضع عشرات من الأمتار.

كان في أصله مدرسة عُرفت بالظاهرية نسبة إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الذي كان سنة ستمئة وثلاث عشرة للهجرة، ألف ومئتين وثلاث وعشرين للميلاد، أمر ببنائها، ثم توفي في السنة نفسها، فتابع ابنه الملك العزيز محمد ذلك حتى استوت كاملة سنة ستمئة وعشرين للهجرة.

المدرسة مبنية من الحجارة الهرقلية، ولها باب ضخم فوقه منارة كبيرة، ومصلّى بقبّة ومحراب من أجمل محاريب حلب وأعاجيب الدنيا، ويتكون من ثلاث عشرة حجرة من الرخام الملوّن، وفي طرفيه عمودان من الرخام الأزرق، وتعلوه أحجار ملونة مشتبكة. حاول تيمورلنك نقله، فقيل له إنّه في حال نقله لا يمكن أن يُعاد كما كان عليه، فتركه.

على يمين الباب ويساره خمس حجر صغيرة، وكان عن يمين المدرسة ويسارها حُجُر علوية وسفلية لطلبة العلم، ثم خُربت، بالإضافة إلى حوض ماء مثمن الشكل طاله الخراب أيضاً، وعن يمين القبلة صخرة كبيرة وعن يسار هذه الصخرة حجرة واسعة، ووسط صحن المدرسة أربعة قبور، أحدها هو قبر الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي. وحسب الغزي في نهر الذهب أنّ دار صلاح الدين الأيوبي كانت قرب المدرسة.

حتى مطلع القرن العاشر للهجرة، السادس عشر للميلاد، كانت المدرسة حاضرة

علمية لها شأنها بين المدارس الدينية في المشرق كلّه، ثمّ بدأت جدرانها تتوهن وحجراتها تتهدم بسبب إهمال البناء.

الأحد، السابع من كانون الأول سنة ألفين وأربع عشرة للميلاد، تحولت المدرسة إلى ركام من الحجارة بسبب تفجير من داخل نفق كان المسلحون قاموا بحفره تحت بنائها للوصول إلى مدخل القلعة.

*   *   *

سهر الورد (20)

مرمياً على أرض الغرفة كان يحيى وإلى جواره جهاز الهاتف الثابت. سقطتُ قربه، وهززت كتفيه وأنا أصرخ: يحيى، حبيبي. ثمّ أرهفتُ أذني إلى خفق قلبه، ثمّ أنهضتُ رأسه، وأسندته إلى صدري، وأخذت أمسح براحتي على وجهه، وأرجوه أن يصحو.

سمعتُ صوت صرير باب، ازددتُ خوفاً على خوف، استدرتُ جهة الصوت، فرأيت الشيخ شهاب الدين وهو يدلف نحو الداخل، ولم يكد يصير على بعد خطوة مني ومن يحيى، حتى افترّت عينا يحيى عن ضوء صحو فيهما، ثمّ ما إنْ أخذ الشيخ رأسه إلى حضنه، حتى صار الضوء شمساً، وحتى أجهش يحيى في البكاء، وهو يردد: يمنى.

وبعد أن رتّل الشيخ بضع آيات بصوت يكاد لا يبلغ سواه وهو يمسح براحته على وجه يحيى قال لي بينما كان ينهض:

- اعتنِ به ريثما أعود.

دقائق لم تبلغ الثلاث ما بين صوت باب البيت وهو يُفتح وصوته وهو يُغلق عاد الشيخ، فاقتعدَ الأرض كما كان يفعل، ثمّ أخذ رأس يحيى مني إلى صدره، وأومأ إليه بأن يفتح فمه، ففعلَ على الرغم من أنّ الغيبوبة كانت ابتلعت بعضاً من قمر صحوه قبل عودة الشيخ. أخرجَ الشيخ زجاجة صغيرة من جيب داخليّ في ثوبه، فتح غطاءها، ثمّ نقّطَ منها في فم يحيى بضع نقاط من سائل نبيذيّ اللون، ثمّ سكبَ بضعاً أخرى في باطن يده، ثمّ دهنَ بها راحتيه، ثمّ مسح بهما وجه يحيى، وما هي ثوان، حتى استعاد

يحيى صحوه، وأخذ يحرّك عينيه ما بين وجهي ووجه الشيخ، ثمّ يفتح كفيه وهو يومئ لكلينا بأن نساعده على الجلوس، ولم يكد يجلس، ثمّ يسند ظهره إلى الأريكة وراءه، حتى أخذ يرتّل الآيات نفسها التي سمعتُها من الشيخ وهو يمسح براحته على وجهه قبل أن يغادر البيت، وعندما بلغ نهايتها نهض مستقيماً على قدميه، وقال بينما عيناه تغيمان بدمع على وشك الهدير:

- أيّ ريح يا شهاب الدين هذه، أيّ ريح!

- إنّما الدنيا على قرْنِ الفنا.

قال الشيخ وهو يداري وجهه عن وجه يحيى، ثمّ عاد فثبّته نحوه، ثمّ بيد أمسك بيده، ووضع راحة الثانية عل كتفه، وأضاف كأنّما يقرأ من كتاب:

- لا تكتمل النفس إلا بمفارقتها البدن، فإنْ كانت شقية نزلت إلى عالَم البرازخ لتنال جزاء ما اقترفتْ من آثام، وإنْ كانت فاضلة صعدتْ إلى عالَم النور، وحظيت بمشاهدة أنوار الحقّ، ومن الثانية كانت نفس لجين. لجين نور، ومقام النور عند نور الأنوار. سيرة التاريخ هي سيرة الدم منذ هابيل، إلى سقراط، وهيباتيا، ومعبد الجهنيّ، وأبو ذر الغفاري، وغيلان الدمشقي، والجعد بن درهم، وجهم بن صفوان، والحسين بن منصور الحلاج، و...

والشيخ يتكلّم ويعدّد كنتُ أعاند صوت سؤال يتعالى صخبه في رأسي، ويزداد ضجيجاً كلّما حانت نظرة مني إلى الزجاجة الصغيرة التي أخرجها الشيخ من جيبه، ثمّ نقّطَ بضع قطرات من سائلها الذي بلون النبيذ في فم يحيى، وأخرى في كفيه..

ولم يكد الشيخ يبلغ آخر الكلام، حتى نظر إليّ، وتبسّم، وقال:

- في البيت الرابع والعشرين والآخر الذي يليه من الحائية الخبرُ اليقين.

التقطتُ قصده الذي يعني قصيدته التي مطلعها: أبداً تحنّ إليكمُ الأرواح، والتي كنتُ قرأتها غير مرة، حتى كدت أحفظها عن ظهر قلب، وعندما رآني ساهمة في وجهه قال:

- هيَ.

ثمّ إلى يحيى:

- انهض، فليس مِن ترياق لمجيدة الآن مثلك.

ثمّ إلى كلينا وهو يخطو نحو باب البيت:

- دمتما في كنف النور.

إشراق (20)

من كَرمِ أَكرام بدنّ ديانَة
لا خَمرَةَ قد داسَها الفَلّاحُ
هيَ خَمرةُ الحُبِّ القَديمِ وَمُنتَهى
غَرض النَديم فَنعم ذاكَ الراحُ

كأنّ الريح (20)

إلّا يُمنى يا سهر الورد، إلّاها. الآن تضيق بي الأرض كما لو أنني رهين زنزانة تطبق بجدرانها الواطئة وعتمها عليّ، ولولاكِ لما كان لهذه الحياة أيّ معنى. أنتِ الآن معناها، كما حلب معناها، كما البلاد من أقصاها إلى أقصاها على الرغم ممّا تكابد من الموت والدمار، وممّا يلوّثها من الفاسدين والانتهازيين وأكلة كلّ شيء.

بعد مغادرتكِ البيت استسلمَ كلّ شيء فيه للصمت، العيون وحدها كانت على قيد الحياة، أبي وأمي وياسر ويعرب وأنا، بينما سواها من الحواس الخمس تغطّ في غيابة موت رجيم، لكأنّ الجميع موتى في شبهة حياة.

فجأة نهضتْ أمّي، ثم مضتْ خارج الغرفة، ثمّ عادت وبيدها مفتاح، ثمّ وهي تمسكه بذؤابتي إصبعيها وترفعه إلى أعلى قالت: "ستبقى مقفلة"، ثمّ أتبعت الكلمتين بثلاث وهي تغرق في نوبة بكاء جديدة: "حتى تعود يُمنى"، وإليّ قبل أن تسقط مرتطمة بالكرسيّ جوارها، فلا تتم الكلمة: "يحـ..".

لم يكن من ملاذ، وقد غابت عن الوعي، وثمّة دم ينزف في جرح من رأسها بسبب ارتطامها بالكرسيّ، سوى الدكتور بسّام. اتصلت به على الرغم من الساعة كانت تجاوزت الواحدة، فلم يتردّد، وكان خلال أقلّ من نصف ساعة في البيت مصطحباً معه حقيبة جلدية.

ضمّد الجرح النازف من رأسها، ثم أمسك بإبهام يمينه وشاهدته يدها من الرسغ،

ثمّ نظر إلينا وهو يعني أنّها بخير، ثم أخرج جهاز قياس الضغط، وما إنْ انتهى من تفريغ الهواء منه، حتى قال إنّ الضغط منخفض جداً، ولكن ليس في وضع الخطر، وبعد أن أعاد الجهاز إلى الحقيبة أخرج زجاجة صغيرة لا يزيد حجمها على عقدة أصبع، وأفرغ، بإبرة، سائلها في الوريد من ساعدها، ثمّ دفعَ إلي بعلبة دواء، وقال لي:

- عندما تصحو أعطها حبة، ثم أخرى بعد ثلاث ساعات.

الآن، وبعد أن أنهك الحزن الجميع ومضى إلى النوم، أكتبُ لكِ. أعرفُ أنّكِ، مثلي، لم يُغمض لكِ جفن، ولكن ما لا أعرفه فيما إذا كنت سأقوى على النوم، بل على احتمال ما حدث.

أيّ لعنة هذه الحرب! أيّ نهر دم هذا الذي لا يتوقف عن جلجلته بين وقت وآخر! أمكتوب على حلب أن تمضي من دم إلى دم! أتذكرين نهر الدم الذي جرى في نهاية السبعينيات؟ حادثة مدرسة المدفعية آنذاك، فحادثة المشارقة، وسواهما من سيرة الدم؟

لم نتعلم يا سهر الورد، وأخشى ألا نتعلم بعد أن تنتهي هذه الحرب، فتنشب ثانية بعدها، وثالثة و... حتى تصبح البلاد كلها، لا حلب وحدها، مضرب المثل في متواليات الدم.

كم أحتاجك الآن! كم روحي مثخنة بالقهر! كيف لي أن أتابع حياتي ويمنى ليست فيها ومنها! لماذا يمنى! أيّ ذئاب هؤلاء القنّاصة الذين تسابقوا إلى قتلها! لو أنهم أمعنوا النظر في وجهها، ولو كان لهم بعض إحساس، لكانت أصابعهم تيبست عند الزناد قبل أن يطلق أحدهم رصاصة واحدة نحوها.

يمنى نهرٌ من الطهر والصفاء والنقاء، ولذلك كانت تكره كلّ ما يشير إلى الدم، ولذلك أيضاً لم يكن الأحمر مفرداً بنفسه يحوز أيّ مساحة من لوحاتها، على حين كان لون البنفسج، بدرجاته المختلفة، هو الأثير لديها، ولذلك حدست بموتها، ورددت الحديث عنه غير مرة، وكنتُ، كلّما فعلتُ ذلك، أدعو في سرّي ألا يفصل بين موتها وموتي سوى ما كان يفصل بين لحظتيّ خروجنا من رحم أمي إلى هذه الحياة.

قلتُ الحياة! أيّ حياة هذه المتخمة بالفقر والقهر واللصوص والفاسدين

والشعارات الزائفة وهذه الذئاب كلها في هيئات بشر، التي تجعل الحياة شبهة! أيّ حياة هذه التي يحكمها ويتحكم بها من يملكون القوة والمال! أيّ حياة وأمثال وليد وخزام وسجاح وزيد وسواهم كثير يأمرون وينهون كما يحلو لهم من دون أن يحاسبهم أحد أو يلجم نهشهم الأخضر واليابس أحد!

أيّ حياة وثمّة بشر يأكلون الأكباد، ويقطعون الرؤوس، وينهبون المعامل، ويفجرون البيوت، ويقتلون الآخر المختلف بدم بارد!

أيّ حياة وأمثال ابني جهبل يتكاثرون كالخنازير البرية التي يقول العلماء إنها تأتي بعد الأرانب في عدد مرات التكاثر في السنة الواحدة، أربع مرات!

أيّ حياة هذه ويمنى ليست فيها ومنها!

إشراق (21)

وَما أمّ خشفٍ طولَ يَومٍ وَليلةٍ

بِبلقعةٍ بَيداء ظَمآن صادِيا

تَهيم وَلا تَدري إِلى أَين تَبتَغي

مولّهة حُزناً تَجوزُ الفَيافِيا

أَضرَّ بِها لفْحُ الهَجير فَلَم تَجِد

لغلّتها من باردِ الماء شافيا

إِذا اِنقَلَبَت عَن خَشفها اِنقَطَعَت لَهُ

فَأَلفتهُ مَلهوفَ الجَو انِح طاوِيا

بأوجعَ مِنّي يَوم شَدّوا حُمولهم

وَنادى مُنادي البَيَن أَن لا تَلاقيا

* * *

سهر الورد (21)

ذبحتني رسالة يحيى من الوريد إلى الوريد. كنت، وأنا أمضي من عبارة إلى أخرى منها، أغصّ بألف حزن وحزن، وأنشجُ بألف قهر وقهر. أبكي روح يحيى المكلومة، كما أبكي يمنى، كما أبكي إبراهيم، وكما أبكي حلب التي استوطنها جراد لم يسلم من جنونه شيء حتى الحجر.

حاولتُ غير مرة الاتصال بيحيى، ولكن ما إنْ كنت ألمس علامة الاتصال في شاشة الجوال، حتى كنت أتوقف عن متابعة الاتصال. ارتديت ثيابي غير مرة عازمة على الذهاب إليه في بيت أسرته، ثمّ رميت بها على الأرض. حاولتُ أن أنام، فلم أقو على إغماض عينيّ. توسلت للفجر أن يبدأ مطلعه، للظلمة الحالكة التي تسكنني أن ترحل، للعجز الذي يسلبني المقدرة على فعل شيء أن يرأف بي، ولكن ما مِن شيء أشفقَ عليّ، فارتطم الحزن بالحزن، والقهر بالقهر، حتى أحسستُ بأنّ يدين من حجر تطبقان على عنقي، ثمّ تزدادان هوجاً لمنع الهواء عن الوصول إلى رئتيّ.

ضغطت زر التشغيل في جهاز الكومبيوتر لأرى فيما إذا كان موقع الصحيفة التي أكتب فيها بين وقت وآخر عاد إلى العمل بعد أن اخترقه "الجيش السوري الإلكتروني الحرّ"، وكتب في أعلاه: "تمّ الدعس، الثورة السورية"، وفيما إذا كانت الصحيفة نشرتِ المقال الذي كنت أرسلته إليها، ولم أكد ألمس علامة الموقع في شريط العلامات، حتى فتح الموقع بسرعة. ولأنني لم أجد المقال منشوراً، فقد مضيت إلى الصفحة الأخيرة، صفحة المنوعات، لأقرأ ما ينأى بي، ولو قليلاً، عن أخبار الخطف والقتل والموت، ولم أكد أفعل، حتى توقفت عيناي عند عنوان مقال في أعلى الزاوية اليسرى من الصفحة، بُردة الناصريّ، ثمّ لم أكد أتجاوز الأسطر الأولى منه، حتى وجدتُ نفسي مرغمة على المضيّ حتى نهايته، ثمّ أغطّ في بكاء كتيم.

- سهر الورد.

صوت يأتي من حيث لا أعرف. أتلفتُ حولي في الغرفة المعتمة سوى ضوء شاشة الكومبيوتر فلا أرى أحداً. أنهض إلى سرير لجين، فأراها تغطّ في نوم عميق. أنظر إلى باب الغرفة، فأراه محكم الإغلاق، وأعود إلى سريري مؤكدة لنفسي أنني بلغتُ، بكلّ

تأكيد، قاع الإعياء والرهق والحزن.

عاد الصوت أكثر وضوحاً، فارتجفتُ، ورددت: بسم الآب والابن والروح القدس. ولم أكد أكمل، حتى شفّ الصوت أكثر، وحتى هتفت بصوت أسمعه بقلبي:

- شهاب الدين!

- أجل.

- لا أراك.

- يكفي أن تريني بقلبكِ.

استويتُ جالسة في السرير، وقلتُ:

- أكاد أختنق يا شيخ شهاب الدين.

- يحيى كذلك أيضاً.

- كنتَ عنده؟

- أجل، وقد نام الآن.

- وخالتي أم ياسر.

- بخير.

ثمّ شعرت بوجهه قريباً من وجهي، ثم بشفتيه تطبعان قبلة على جبيني وبينما يمسح براحته على رأسي يقول:

- نامي الآن.

نمتُ، ولولا يد لجين وهي تهزني من كتفي وصوتها وهي تدفع بهاتفي الجوال إليّ قائلة إنّه يرنّ للمرة الثالثة، لظللتُ مستغرقة في النوم، ولم تكد عيناي تستضيئان باسم المتصل، حتى هتفت روحي: حبيبي.

- أراكِ في المركز.

- بل البيت.

بيت يحيى، معبدنا، وأضفتُ:

- نصف ساعة وأكون هناك.

المؤيّد بالملكوت (10)

وكان جالساً على طرف بركة مع جمع، فتحدثوا في معجزات الأنبياء فقال بعضهم: فلْقُ البحر أعجبُها. فقال الشهاب: ليس ذلك شيئاً بالنسبة إلى معجزات الأنبياء. وأشار إلى البركة فانشقّ الماء فيها نصفين حتى رأوا أرض البركة. آثار البلاد وأخبار العباد / القزويني.

إشراق (22)

شَـرّدَ نومي دنِفـا
يرقّ عَلى الغَـور نَفا
ذَكَّرَني وَميضـه
طيبَ لَيـالٍ سَلَفـا
وا أسفي على الحِمى
وَأَهلِـه وا أسَـفا
يا لَيتَ حادي عيسِهِم
لَمّـا سَـرى تَوقَّفـا
هيَّجني لَمّا حَـدا
وَمَـرَّعَنّي مُعسـفا
والعِيسُ مِن أَشو اقِها
قَـد رَقَصَت تَلَطّفا

كأنّ الريح (21)

استعادتْ أمّي بعضَ عافيتها، وفي أوّل جلسة جمعتِ الأسرة، سوى يعرب، ألقتْ ما يشبه الصاعقة فوق رؤوسنا، فعقدتْ ألستنا جميعاً، وهوت بنا إلى قاع صمت سحيق. التفتتْ إلى ياسر وطلبت إليه أن يذهب في الغد إلى بيت خطيبته، كندة، ويتفق معها ومع أسرتها على موعد الزواج، ولمّا رأتنا غرقى في الصمت، بمن فينا ياسر نفسه،

تابعت تقول وهي تعاند دمعاً باهظاً في عينيها:

- الغالية راحت، بسّ هاد حقّك يا مو.

كان أبي مثلنا جميعاً كمَن لمسَ فجأة شريط كهرباء أعزل، فسقط مغشياً عليه، ولا بدّ أنه مثلنا جميعاً أيضاً كان يتساءل بينه وبين نفسه عمّا إذا كان ارتطام أمّي بالطاولة قبل أيام أحدثَ هذا الأثر في رأسها الذي طالما كان، بتعبيره، بألف من رؤوس الرجال. ولأنّه لم يكلّف نفسه يوماً التعقيب على رأي لها، بل التسليم به، يقيناً منه، كما كان يردد، بأنّ مجيدة لا تقول ولا تفعل إلا كلّ ما هو لمصلحة الأسرة جميعاً، فقد غادر الغرفة تاركاً ثلاثتنا، ياسر وياسمين وأنا، صرعى المفاجأة، ولا شيء فينا على قيد الحياة سوى عيون تستغيث أخرى في تفسير ما حدث.

وكما فجأة ألقتْ بنا في قاع الصمت نهضت فجأة أيضاً، وغادرت الغرفة، ثمّ عادت بعد أقلّ من دقيقتين، ودفعت إليّ برزمة من الأوراق النقدية، وطلبت مني أن أسلّمها إلى أم سعيد، المستخدمة في مدرسة يمنى، وأضافت قائلة وهي تجلس على الأريكة إنّها ادّخرتها ممّا كانت يمنى تعطيه لها مطلع كلّ شهر من راتبها، ثمّ أكملت وهي تسند ظهرها إلى ظهر الأريكة:

- كانت الغالية تحبّها كثيراً.

غير مرة كانت يُمنى حكتْ لي عن أم سعيد بإعجاب جمّ، ومن ذلك أنها تعيل سبعة من الصغار أكبرهم في الرابعة عشرة بعد أن فقدت زوجها الذي كانت مجموعة مسلحة أعدمته بسبب رفضه الانضمام إليها حسب أمّ سعيد، والتواصل مع النظام حسب المجموعة، ومن ذلك أيضاً أنّها سرعان ما غادرت حيّ الفردوس، حيث كانت تسكن، خوفاً على أولادها ونفسها، وسكنت معهم في غرفة من غرف القبو في المدرسة، ورفضت أن يترك سعيد، ابنها البكر، الدراسة ليساعدها في إعالة أخوته، ليقينها، كما قالت ليمنى، بأنّ الشهادة حِرْز ضدّ الفقر.

تزوجت فاطمة، أم سعيد، وهي في الخامسة عشرة. أرغمها أبوها على الاكتفاء بالصف الذي وصلت إليه على الرغم من تفوقها في الدراسة، وزوّجها لأكرم، ابن عمّها، ليحفظها، كما قال، من الشباب الذين كانوا يلتهمونها بعيونهم، ويضايقونها بألسنتهم،

في طريق ذهابها إلى المدرسة وإيابها إلى البيت، بسبب ما خصّها الله به من الجمال الذي لم يفارقها إلى الآن على الرغم من إنجابها سبعة أولاد، وعلى الرغم أيضاً من قسوة الحياة التي عاشتها مع أكرم الذي لم يكن يحبّ العمل، ويقضي معظم أيّامه في البيت، يدخن ويشرب القهوة والشاي وينتقل من مسلسل تلفزيوني إلى آخر.

- يا مو يحيى، أخوك تأخر كتير.

لم يكن طلب أمي إلى ياسر ما عقدَ ألستنا فحسب، بل ما جعلنا أيضاً ننسى أمر يعرب الذي كان غادر البيت قبل ساعات نحو معبر بستان القصر ليشتري بعض الخضار التي لم تعد تصل إلى أحياء حلب الغربية بعد أن حاصر المسلحون المدينة من جهاتها جميعاً، والتي كان بعض الناس يهرّبونها من الأحياء الشرقية إلى المعبر، ويبيعونها بأسعار عالية.

هتفتُ ليعرب، فتواصل رنين هاتفه من دون ردّ. أعدتُ الاتصال، فلم يردّ، ثمّ في الاتصال الثالث كان خطّه خارج التغطية. سألتني أمّي عمّا إذا كنت أتصل به، فكذبت:

- لا أمي، هذا زميل لي في الجامعة.

- يرضى عليك اتصل بأخوك.

زعمتُ أنني مضطر للذهاب إلى الحمّام، وأنني سأفعل فور عودتي، وأومأتُ لياسر بحركة سريعة من عينيّ بأن يلحق بي، وعندما صرنا معاً في المطبخ قلت له إنّ هاتف يعرب خارج التغطية، فطلبَ إليّ أن أعود إلى الغرفة، وأشاغل أمي بأيّ حديث، ريثما يذهب بسيارته إلى المعبر فوراً.

- يا مو وين أخوك ياسر؟

مرة ثانية وجدت نفسي مدفوعاً إلى الكذب، فقلت إنّ يعرب اتصل به قائلاً له إنّه ينتظره بسيارته عند المعبر لأنّه يصعب عليه وحده حمل الأكياس الكثيرة من المعبر إلى حيّ الفيض فيتسنى له العثور على سيارة أجرة، وكنتُ خلال ذلك أدفع الكلمة وراء الأخرى متصنّعاً الصدق، ومحاولاً إخماد نار القلق الذي أخذ يصخب في رأسي، ثمّ يضرم لظاه في جسدي كلّه، بينما عيناي ترقبان الساعة المصلوبة على الجدار أمامي، وترتعشان مع كلّ حركة لعقاربها التي كانت تمعن في يباس دمي كلّما مضت نحو الأمام

من دون أيّ خبر عن يعرب أو اتصال منه أو من ياسر.

* * *

سهر الورد (22)

ما يزيد على نصف يوم، فيوم بتمامه، وما مِن خبر عن يعرب، وما مِن مجموعة من المجموعات المسلّحة في بستان القصر وفي الأحياء المجاور له تعرف شيئاً عنه، ولا الحاجز العسكريّ عند المعبر يعرف شيئاً. وعلى الرغم من أنّ ياسر كان استنفر معارفه جميعاً وزبائنه خلف المعبر، ومن أنّ يحيى لم يدع أحداً من الباعة عند المعبر نفسه من دون أن يعطيه أوصافه، فإنّ كليهما لم يعودا إلى أم ياسر بما يبلّ ظمأ روحها إلى أيّ خبر عنه. لم تعرف، كما لم يعرف أحد، طعماً للنوم لنحو يومين.

- ضربتان يا ورد.

ثمّ رمى يحيى برأسه على صدري، ومثل طفل صغير أخذ ينتحب، وكان يعني موت يمنى واختفاء يعرب. أخذتُ رأسه إلى صدري أكثر، فأمعنَ في البكاء أكثر، وأضاف بصوت صاخب بالقهر أكثر:

- كيف لقلب أمي أن يحتمل؟ كيف لي؟ متى ستنتهي هذه الحرب؟ أيّ بشر هؤلاء الذين يقتلون، ويخطفون، ويحفرون الأنفاق، ويفجرون ويدمرون الآثار، ويقطعون الرؤوس، ويأكلون الأكباد، ويسرقون المعامل، ويشطرون حلب إلى حلبيْن؟ أيّ ريح هذه؟ هذه ليست ريح يا شيخ شهاب الدين، هذه جهنم، وحش، غول..

- اهدأ يحيى، اهدأ أرجوك.

- ليتني كنت يمنى، ليتني كنت يعرب.

- يحيى.

ولم أكد أكمل توسّلي إليه، حتى سقطتُ مثله في لجّة بكاء لا صوت له فيسمعه هو، وله ألف صوت وصوت يضجّ بألف مخرز ومخرز في جسدي كلّه، ومن أقصاه إلى أقصاه، حتى لم أعد أميز مَن منّا عليه أن يهدهد الآخر، فينقذه من عصف الحزن

والقهر والبكاء، ومن سقوط صخرتين معاً على الرأس، موت يمنى فغياب يعرب.

بُمّ م م.. ثمّ أخرى، ثمّ صارتا قذائف تتساقط قريباً من البناء، وربما في البناء نفسه وليس بعيداً عنه كما كانت عندما دخلت ويحيى إلى البيت. احتضنت يحيى أكثر، التصقتُ به حتى كدت أصيره، ثمّ نهضنا معاً، وهرعنا إلى الممر الصغير عند المدخل لنحتمي من انهيار محتمل للبناء، فننهرس تحت الحجارة، أو نختنق، أو نخرج من بين الركام من دون قدم أو اثنتين أو ذراع أو كليهما معاً أو...

الحياة على حافة موت، أو موت على بُعد قذيفة أو رصاصة أو شظية من تفجير تغتصب الحياة، وجهان لحقيقة واحدة في حلب منذ بدأت الريح طلعها المُهلك، وقصفها المحموم، فالتهمت المدينة القديمة كلّها، ومعظم الأحياء من جهات ثلاث، فألقتْ بعمّي إدوارد وأسرته، وآلاف غيرهم، طعاماً لحيتان المتوسط، واختطفت يمنى، و... وقد تختطفني ويحيى الآن..

بُمّ م م.. بُمّ.

أمسكت بكتف يحيى، وصرخت أستغيث بالحياة:

- لا أريد أن أموت، لا أريد.

ولكن يحيى بدلاً من أن يفتح باب البيت، فنهبط درج البناء بأقصى ما نستطيع من السرعة، فننجو من موت محتم تنبئ به القذائف التي أخذ البناء يرتجف تحت وقْع انهمارها. بدلاً من ذلك أمسكني من يدي، ومضى بي إلى منتصف البيت، وشدّني إلى صدره، وقال: تعالي نرقصْ. وقبل أن أكمل سؤالي: يحيى جنّيت؟ حملني بين ذراعيه، وأخذ يرقص، ويردّد: أيها الموت إنْ كنت رجلاً، فتعال. ثمّ، والقذائف تزداد طيشاً والبناء يزداد رجفاً، حطّ بقدميّ على الأرض، وظلّ يحتوي جسدي بذراعيه، ثمّ أطبق بشفتيه على شفتيّ، فأضرم ناره في دمي، ثمّ صارت النار لظى وهو يمضي بشفتيه إلى خدّيّ إلى.. فاللظى سعيراً وهو ينضو القميص عني، فالسعير جحيماً شهياً وأنا أتثنى بين يديه وشفتيه فوق السرير الذي صرنا إليه من دون أن نعرف كيف حدث ذلك ومتى، فالجحيم حرائق من خفق أصابع وشفاه، وحُميّا صبوات وصليل رغبات، وصهيل دم في العروق، وحرث وزرع، وهمهمة وأخرى تستحمّان بعرَق نافر من جسدين

يسبّحان باسم الحياة، وفي اللحظة نفسها التي يبوحان معها ومعاً بأسرار الخلْق تبهت أصوات القذائف، ثمّ تتلاشى كأن لم تكن.

ينظر يحيى في وجهي، أنظر في وجهه، أتحسس جسدي كما يتحسس يحيى جسده كأنّ كلاً منا يسأل الآخر ماذا حدث؟ أكان ما حدث حقيقة؟ أكنا ننتصر بالحبّ على الموت؟ بالجسد على الفناء؟ أكنا نعاند حرائق الدم والرصاص والقذائف بماء الشغف؟ نردد معاً ما كان يحيى ردّد وهو يرقص متحدياً الموت: أيها الموت إنْ كنت رجلاً تعال؟ ...

ينفتح باب البيت بنفسه، فنُهرع إلى ثيابنا المتناثرة حول السرير، نرتديها على عجل، وما إنْ نبلغ الصالة، حتى نباغت بالشيخ شهاب الدين جالساً على الأريكة كما لو أنّه كان في انتظارنا منذ وقت، وثمة ابتسامة تزيد حُمرة وجهه حُسناً، وحتى سمعناه يقول:

- سيصل يعرب إلى البيت بعد قليل.

أفلتَ يحيى يده من يدي التي كان ممسكاً بها فور مغادرتنا غرفة النوم، وهُرع إلى شهاب الدين، واحتضنه، وأخذ يقبله، وبينما هو يفعل ذلك دفعه الشيخ برفق عنه، ثمّ أشار إليّ بأن أقترب منه، وعندما فعلت ثبت عينيه نحو وجهي، وقال:

- وإبراهيم في طريقه إلى مقرّ اللواء.

إشراق (23)

وَإِذا الحُسن بَدا فَاِسجُد لَهُ
فَسُجودُ الشُّكرِ فَرضٌ يا أُخَيّ
هَذِهِ أَنوارُ لَيلى قَـد بَدَت
فَلِسَلبِ العَقلِ يا صاحي نهي
كُلُّ حَيٍّ في هَواهـا مَيّت
إِنَّمـا ميتُ هَواها ذاكَ حيّ

المؤيّد بالملكوت (11)

قال الموفّق يعيش النحويّ: لمّا تَكلّموا فيه (السهروردي)**، قال لَهُ تلميذه: إنّكَ تقولُ: النبوَّة مُكتسبَة، فانزحْ بنَا. قال: حتى نأكل بطّيخ حلب، فإنَّ بي طرفاً منَ السلّ، وهو يو افقه، ثمّ خرج إلى قرية دويران الخشاب، وبها محفرة تراب الراس، وبها بطِّيخ مليح، فأقام بها عشرة أيام، فجاء يوماً إلى المحفرة، وحفرَ في أسفلها، فطلع له حصًى، فأخذه ودهنه بدهن مَعَهُ، وَلفَّه في قُطْن، وتحمّله في وَسطه ووسط أصحابه أيّاماً، ثُمَّ أحضرَ مَن يحكّ الحصى، فحكّه، فظهر كُلّه يَاقُوْتاً أَحْمَر، فبَاع مِنْهُ، وَوهبَ، ولمّا قُتلَ وُجد منه شيءٌ في وسطه.** سيرُ أعلام النبلاء. الذهبيّ.

كأنّ الريح (22)

عودة يعرب إلى البيت استعادت إلى أمّي، إلينا جميعاً، بعض روح الحياة التي كانت تبدّدت أو تكاد برحيل يمنى. أقسمتْ أمي عليه ألا يتحدث عن شيء، أيّ شيء، بل أن يأكل أولاً من الحلوى التي أحضرها ياسر بينما هو ويعرب في طريقهما إلى البيت، فيستعيد بعض الدم إلى جسده بعد أن أمضى نحو أسبوع مكتفياً بالماء وقطع صغيرة من الخبز وبعض البطاطا المسلوقة.

يعرب ملك الفوضى كما يصف هو نفسه بذلك، لا وقت محدداً لديه لمغادرة البيت، ولا موعد محدداً لعودته، ولا موعد لطعام أو ساعة نوم أو يقظة منه. كلّ شيء، وشأن، في الحياة بالنسبة إليه ابن اللحظة، ولذلك، وإلى الآن، ما مِن أحد في الأسرة يصدّق أنه حصل على شهادة جامعية، وعندما كان أحد يسأله عن ذلك كان ينهض من مكانه، ويدسّ رأسه في صدر أمي، ويقول: رضا الحنيْنة. وكانت أمي تنهضه عن صدره، وتستعيد لازمتها له وهي تضحك أيضاً: بلّاف.

كان، وما يزال، على النقيض من ياسر ومني يملأ البيت بالفرح، ما إن كنا نجتمع، حتى كان البيت يعبق بالضحكات بسبب سرعة بديهته في استثمار كلّ كلمة أو موقف بروح ساخرة، بما في ذلك الحرب نفسها التي شبهها ذات يوم بالأفعى التي تأكل نفسها

عندما لا تجد ما تأكله، أو النمر الذي يأكل صغاره إذا لم يجد ما يأكله، وأتبع تشبيهه بقوله إنّها لن تتوقف إلا عندما لن تجد ما تأكله. وعلى عادته في تحويل كلّ شيء إلى مادة للسخرية، وبعد أن شفط، بتعبيره، خمس قطع من الحلوى، حكى عن الأيام الستة التي قضاها في ضيافة الشباب منذ لحظة سؤال اثنين من عناصرهم عند المعبر عن بطاقته الشخصية، فلم يعثر عليها في جيبه حتى لحظة قول ملاك من ملائكتهم له إنه بإمكانه أن يحلّ عن سمائهم بعد أن تأكد لهم أنه ليس مطلوباً إلى أي جهة، وإنه عليه ألا يدع الحبيبة، بطاقته، بمفردها في المنزل عندما يريد مغادرته لأنّ أولاد الحرام لا يتركون شمطاء من أذاهم.

لم يكن لأيّ منّا نفْس، بتعبير أمّي، لنضحك، بل لنبتسم، فلمّا يزل جرح يمنى فاغراً شدقيه على آخرهما، الجرح الذي لن يندمل مهما تباعدت بيننا وبين دمه الأيام. كنا نكتفي بالإصغاء إلى يعرب وهو يتحدث ويأكل بآن كأنّ ما حدث له ومعه عاديّ، بل عادي جداً. أن يغادر البيت من دون بطاقته الشخصية في هذه الظروف عادي. أن يمضي إلى معبر بستان القصر أكثر نقاط التماس بين المسلحين والجيش خطورة ويعرض نفسه لرصاصة طائشة من أحدهما عادي. أن يمسك به عنصران من الأمن ويصفعانه أمام جمع من الناس عادي. أن يدفعا به بقدميهما إلى صندوق سيارة طاعنة في الموت عادي. أن يفترش بطانية مهترئة ويلتحف مثلها طوال ستة ليال في هذا الشتاء المجنون عادي... أن... أن... كلّ شيء عادي لديه مهما كان كبيراً وفادحاً وقاسياً، فالإنسان، حسب فلسفته كما يردد وهو يضحك، منذور منذ هبوطه إلى الأرض للتكفير عن المعصية التي ارتكبها آدم وحواء، ولذلك، فإنّ عليه أن يغنم من الحاضر كلّ شيء، أن يستثمر اللحظة حتى الثمالة منها في الفرح.

- ستة أيام حتى تأكدوا أنك غير مطلوب لأيّ جهة؟

سأله أبي، فقال ضاحكاً وهو ينظر إليّ:

- وفي اليوم السابع استراح من جميع عمله الذي عمل.

قلت:

- من يعرف سعة ثقافتك يقول إنّ لديك شيزوفرينيا.

- يعني أنني شخص سويّ تماماً، متكيّف مع هذا العالم المصاب هو نفسه

بالشيزوفرينيا أيضاً.

لو كنتُ روائياً لاخترت يعرب بطلاً لرواية خاصة به، فشخصيته ممتلئة بكثافة نفسية عالية، ومتعددة انفعالياً، فهو طفل صغير يبكي لمرأى عصفور يرتجف من البرد أحياناً، وأحياناً ثانية لا يتردد في الضحك في موقف يدعو للنحيب، وأحياناً ثالثة يبدو مثل شيخ عجوز لا يعنيه شيء حتى لو رأى إنساناً يسقط من شاهق، لكأنّ السنون وقد طعنته بألف خنجر وخنجر لبّدت مشاعره، فأتت على كلّ خلجة منها.

- يامو ياسر حكيت مع بيت حماك؟

سقط السؤال المباغت لأمي على رؤوسنا كما يفعل نيزك في أرض طاعنة في الموات، وكما هي عادتها في المضيّ بالجلسة إلى ما تشاء، فأنهضنا النيزك من سبات يقظة كنّا نغطّ فيه جميعاً. ردّ ياسر قائلاً:

- أي أمي.

واكتفى بالكلمتين اللتين يبدو أنّهما لم ينديا بعض يباس توقها إلى معرفة ردّ كندة وأهلها على ما كانت طلبت إلى ياسر قبل أيام، ولذلك أسرعت إلى سؤاله من جديد عن التفاصيل، فقال إنّ كندة وأهلها استمهلوه الإجابة عن تلك التفاصيل إلى الغد أو ما بعده.

كنت أعرف أن ياسر يكذب ليرضي أمي، بل ليهدّأ من عصف الحزن بروحها، وتأكد لي ذلك عندما نهض من كرسيّه، وزعم أنّ له موعداً مع صديق، وكان قبل نحو نصف ساعة من وصولي إلى البيت اتصل بي، واستعجلني الحضور لأنّ لديه حديثاً خاصاً بيننا فور أن ننتهي من حفلة الاحتفاء بعودة يعرب، حديثاً يخصّ عمله الذي صار يشكو منه كثيراً في الأيام الأخيرة، ولاسيما عدم وفاء كثير من الزبائن لوعودهم بسداد ما عليهم من ديون له عندهم.

إشراق (23)

إذا المَرء لَم يَحتل وَقَد جَدّ جَدّه

أَضاعَ وَقاسى أَمره وَهوَ مدبرُ

وَلَكِن أَخو الحَزم الَّذي لَيسَ نازلا

بِهِ الأَمرُ إِلا وَهوَ لِلقَصد مبصرُ

فَذاكَ قَريعُ الدَّهرِما عاشَ حوله
إِذا سدّ مِنهُ منخرٌجاشَ منخرُ

* * *

سهر الورد (23)

مثل طفلة تتلعثم بالباء والميم كانت لجين تفتح ذراعيها لي، ثمّ تأخذني إلى صدرها، وتردد وهي تبكي: برهوم، برهوم. شددتها إلى صدري أكثر، وعانقتها، وقبلتها من عينيها، بينما كنت أستعيد عبارة الشيخ شهاب الدين: وإبراهيم في طريقه إلى مقرّ اللواء.

قلت للجين وأنا أضحك:

- أعرف.

ولأنها كانت، كما يبدو، هائمة في عالَم آخر، عالَم يعني إبراهيم وحده، لم تعلّق على ما قلتُ، بل تابعت تقول وهي تحتويني بذراعيها أكثر: برهوم، برهوم بخير. ثمّ فجأة أفلتت ذراعيها، وثبتت وجهها في وجهي وقالت:

- نعم؟! تعرفين؟!

ضحكتُ، وأومأت برأسي وعيني بالإيجاب، وقلتُ:

- وهو الآن في مقرّ اللواء.

وأضفت بسرعة:

- وغير ذلك لا أعرف شيئاً، التفاصيل عندك.

وبسرعة أكثر:

- وأنا سأعدّ لك القهوة بنفسي.

وبينما استدرت لأخطو نحو الباب أمسكتني من كتفي، واستحلفتني بالربّ أن أصدقها القول إذا كنتُ ما قلت لها صحيحاً، أي أنني أعرف بتحرير برهوم قبل أن تعرف هي، أم أنني أمزح، فقلت وأنا أضحك من جديد:

- قبل القهوة أم بعدها؟

- ورد.

- عيون ورد. قصدي عيون برهوم.

- خلص ورد.

زعمتُ أنّ حدسي هو ما قال لي ذلك، ووعدتها ضاحكة بأن أصغي إليها في حال كانت القهوة التي ستعدّها بنكهة قصائد برهوم لها، وما إنْ غادرتِ الغرفة، حتى هتفت ليحيى أطمئنه إلى أنّ برهوم بخير، وأنني أتوق إلى زيارة الشيخ شهاب الدين بصحبته في الغد.

في الأيام الأخيرة التي مضت لم يعد الطريق الممتد من جادة الخندق، حيث قبر السهروردي في آخرها، إلى أول الجميلية آمناً بسبب سقوط غير رجل وامرأة شهيداً بطلقات قنّاص باب النصر الذي يبسط المسلحون سيطرتهم عليه، والذي يشرف القنّاص منه على الجادة كاملة ومعظم الشوارع المتفرعة منها حتى ساحة سعد الله الجابري وأوّل الجميلية، ومن أولئك شابة أعرفها اسمها نور أصلو، مدرّبة لناشئات كرة السلة في نادي الجلاء.

- هاتي لجين، أسمعكِ.

قالت لجين إنّ برهوم لم يكن قادراً على شرح تفاصيل تحريره وزملائه من أيدي الكتيبة المسلحة التي قامت باختطافهم، وإنّه وعدها بأن يفصّل لها ريثما يكون الوقت مناسباً لذلك. وبعد أن رشفت قليلاً من فنجان قهوتها قالت وثمة خوف يتعثّر بنفسه في عينيها:

- وبعدين يا ورد؟

حرْتُ فيما يجب عليّ أن أقول لها، كيف أجيبها عن السؤال الذي يبدو أنْه ما مِن إجابة عنه إلى الآن، ولا المستقبل القريب على الأقلّ، ولا سيما بعد أن قضم المسلحون ما يزيد على نصف حلب، وبعد أن تعددت مجموعاتهم وتكاثرت حتى كادت تضيق بأسمائها وأسماء مموليها وراياتها صفحات، ولاسيما أكثر، وقبل ذلك، هذا الصديد الذي تفصد من جسد البلاد ولم يكن لأحد، مهما أوتي من براعة الخيال، أن يحدس بقليل منه. أأقول لها إنه ما مِن بعد وما مِن قبل ما دام بيننا هؤلاء الفاسدون كلهم،

اللاهثون وراء ما يعنيهم لا ما يعني البلاد، الملوثون باللهاث وراء مزيد من المال الدنس، والنساء الدنس، والمناصب الدنس؟ أأحدّثها عن عميد الكلية الذي رمى بي إلى مركز ليس له من اسمه أيّ نصيب على الرغم من أنني لم أرتكب أيّ خطأ؟ أمحبة الطلاب لأستاذتهم خطأ أو خطيئة؟ أأحدثها عن رئيس القسم الذي يصفق لهذه الثورة الموت والخراب والدم، وكان على شهادته أن تحصنه ضدّ الزيف والقبح وشهوة الدم؟ عن أولئك الذين يصدحون بحبّ الوطن جهراً وينهشون لحمه ليل نهار؟ عن الذين باعوا حبرهم بثمن بخس من كتاب وإعلاميين ومفكرين؟ عن الذين انشقوا عن النظام بعد أن كانوا يرتعون في أحضانه لعقود وسنوات؟ أأقول لها إنّ هؤلاء وأولئك وجهان لشيء واحد هو هذا الموت والخراب والدم؟

- ورد.

ولولا صوت لجين الذي انتشلني من غيابة الغياب عن الزمان والمكان اللذين كنتُ فيهما قبل أن تطلق لجين على رأسي رصاصة ذلك السؤال العلقم، لما كنت لأمسك روحي عن هدير حزن غائم فيها، حزن كانت ستفضحه عيناي وهما تحاولان حبس الدمع الموشك على النزيف منهما. قلتُ:

- مبارك حبيبتي، مبارك لك ولبرهوم.

- ورد.

وما كادت لجين تكمل الكلمة، حتى وجدت نفسي أندفع نحوها، وأحتضنها، وأبكي بصوت لا تسمعه بينما روحي تصخب بخوف أكثر مما كانت تصخب به فيما مضى من سنوات الحرب، خوف على كلّ شيء، ولا سيما بعد أن تمكّن المسلّحون من احتلال الكليات العسكرية الثلاث جنوبي حلب، الفنية الجوية والمدفعية والتسليح.

إشراق (24)

رَأَيتُ خَيالَ الظلِّ أَكبرَ عبرَةٍ

لِمَن كانَ في عِلمِ الحَقيقَةِ راقي

شخوصٌ وَأَشباحٌ تَمُرُّ وَتَنقَضي

سَريعـاً وَأَشكالاً بِغَيرِ وِفـاقِ
تَجيئ وَتَمضي تـارَةً بَعدَ تـارَة
وَتَفنى جَميعـاً وَالمحرّك باقي

كأنّ الريح (23)

ينفتح باب المسجد، فندلفُ، سهر الورد وأنا، إلى حجرة الشيخ شهاب الدين، فنراه على نحو لم نره من قبل، حاسر الرأس، وليس على جسده سوى قطعة قماش واحدة غير مخيطة، ومُثبتاً عينيه نحو شيء في مواجهته ولا نراه، ومكتفياً بإيماءة من يده بأن نجلس مثله على الأرض، ونمتثل لهدأة الصمت الذي كان يبتلع فضاء المكان.

كنت وسهر الورد نتبادل النظرات لاهثيْن وراء تفسير لما رأينا الشيخ عليه هيئةً وهدأةً واستغراقاً في عالم لا ندرك كنهه، ثمّ فجأة رفع الشيخ رأسه، ونظر إلينا، وقال بصوت مثخن بالشجن:

- هما بخير الآن، ولكن حلب ليست بخير.

وعلى الرغم من أنني عرفتُ، ولا بدّ أن سهر الورد عرفتْ أيضاً، مَن يعني بالضمير هما، فإنني قلتُ:

- يعرب وإبراهيم.

أومأ بحركة من رأسه بالإيجاب، ثمّ استعاد عبارته:

- ولكنّ حلب ليست بخير.

ثم التفت إلى سهر الورد، وأضاف وهو يحاول معاندة الشجن الذي يغصّ صوته به:

- أيّ معنى لحلب من دونكما معاً!

وإليّ:

- تكتملُ بسهر الورد، وتكتملُ بكَ.

ثمّ إلى كلينا معاً:

- نورُ الأنوار واحد.

ثمّ عاد، فثبّتَ عينيه نحو الشيء الذي لا نراه، ثمّ قال:

- **الراؤون بعيونهم يرون ما يراه المبصرون، أمّا مَن يرى بعينيّ قلبه، فذاك هو البصير.**

مستسلمين للصمت كنتُ وسهر الورد نحاول الإمساك بالقصد من عبارات الشيخ الذي ما إنْ رآنا مضرّجيْن بدم الحيرة والارتباك، حتى نهض واقفاً، ثمّ مدّ ذراعيه نحو ذراع كلّ منا، وأمسك بهما، فتبعنا خطوه جهة الشيء الذي كان يثبت عينيه نحوه، ولم يكد يبسمل، حتى رأيتني وسهر الورد والشيخ أمام القلعة، ثمّ ينفتح بابها الأوّل بنفسه، فندلف منه وراءه حتى نبلغ باب البرج الكبير، فينفتح هو الآخر بنفسه، ثمّ يتوقف الشيخ عند ضريح إلى يمين المدخل منه، ويقول:

- الخضر، أو مار جرجس. آتاه نور الأنوار رحمةً من عنده، وعلّمه من لدنه علماً. قيل إنّ اسمه بلياء بن بلكان من صلب آدم، ثمّ سُمّي الخضر لأنّه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء. العامة تسمي الباب الذي دخلنا منه باب الحيّات، والصواب أن يُقال باب التنين، لأنّ النقش النافر الموجود في أعلى الباب هو للتنين.

ثمّ إلى سهر الورد:

- الريح الصرصر، الوحش، التنين.

ثمّ أشاح بوجهه عن كلينا وهو يقول بصوت يزداد جهراً بالشجن:

- حلب ليست بخير.

- وبعدُ يا شهاب الدين؟

- ليس قبل أن يروي قابيل نهمه للدم.

- أأكثر من هذا يا شهاب الدين؟

- كأنّ هذا قدر هذه المدينة منذ كانت يا يحيى.

ولم يكد ينتبه إلى أنّ قطعة القماش التي يستر جسده بها تكاد تسقط عنه، حتى سوّى أمرها بيديه، ثمّ سألني:

- حلب أقدم مدينة في التاريخ.

قلتُ:

- يعود تاريخها إلى ما يزيد على اثني عشر ألف سنة قبل ميلاد السيد المسيح، وهي تسبق أريحا الفلسطينية بنحو ألف وستمئة سنة، ودمشق بنحو ثلاثة آلاف.

- منذ ذلك التاريخ وهي مغلولة إلى أنهار من الدماء كان أكثرها فيضاناً وهمجية ووحشية أيام التتار.

ثم استدار جهة سهر الورد، وقال:

- كان هنا في هذه القلعة دير للنصارى، وكان من المنقطعين فيه للعبادة امرأة سدّتْ بابها عليها لسبع عشرة سنة. وفي سفح جبل الجوشن كان دير يُسمّى دير مارت مروثا فيه مسكنان أحدهما للرجال والآخر للنساء، وقلّما مرّ به سيف الدولة إلا نزل به، وكان يقول: كانت والدتي محسنة إلى أهله وتوصيني به خيراً.

وقْعُ خطوات على درج القلعة، فيتوقف الشيخ عن الحديث، ثمّ يمسح على رأس سهر الورد فرأسي معاً، ثمّ نجد أنفسنا في حجرته كأننا لم نغادرها، ثم يغيب الشيخ عنّا قليلاً، ثمّ يعود وقد شدّ قطعة القماش التي يغطي بها جسده بحبل رفيع في وسطه، ثمّ يدفع إليّ بجلد رقيق، ويومئ لي بأن أقرأ، وقبل أن أفعل يشير بشاهدته إلى الموضع الذي عليّ أن أبدأ منه، فأقرأ:

زحفُ التتر على مدينة حلب وتشتت شمل أهلها:

حادثةٌ لم يحدث مثلها فيما مضى، ولن يحدث نظيرها فيما يأتي على ما يظنّه بعض علماء التاريخ، وقد كان لمدينة حلب أوفر نصيب من شرّها ومستطير شررها، فقد هاجمتها جنود ذلك الطاغية عدة مرات، في كلّ مرة منها كانت تدكّ حصونها، وتهدم منازلها، وتحرق معابدها ومعاهدها العلمية، وتزهق أرواح أهلها، وتفعلُ من الفظائع والعظائم ما يرتعد القلم لذكره، إلى أن كانت الهجمة الأخيرة وذلك في حدود سنة 700 هـ 1300 م فقضت على هذه البلدة العظيمة القديمة بأن تكون خراباً يباباً، وأن تقفر من أهلها الذين أصبحوا ما بين قتيل وأسير ومشرّد وهائم على وجهه لا يعرف إلى أين انتهى مسيره ولا في أيّ هاوية كان مقرّه ومصيره.

وقبل أن أتمّ قراءة ما تبقّى من كتابة في الجلد طلب الشيخ إليّ أن أكتفي بالنقطة

التي بلغتُ، ثمّ قال وصوته يجهر برعدة تقشعر لها روحه:

- نهر الدم الذي ما إنْ يجفّ، حتى يهدر من جديد.

وبينما هو ينهض، فيمضي براحتيه إلى رأسيْنا، سهر الورد وأنا، قال:

- هل استجمعتَ كلّ ما كتبتُ؟

- أجل يا شهاب الدين.

- فكم بلغَ؟

- ثمانية وأربعين بين كتاب ورسالة.

ولكأنني، والشيخ يكاد يلمس براحته رأسي، لمحت حيرة دمع في عينيه، ولكأنّه قرأ في عينيّ ما يشبه حيرة دمعه أيضاً، فقال:

- لستُ نادماً يا يحيى، ولكني حزين.

المؤيّد بالملكوت (12)

من أول مؤلّف للشيخ شهاب الدين السهروردي: "بستان القلوب" ولم يكن تجاوز العشرين من عمره إلى ما قبل مقتله ولم يكن تجاوز الثامنة والثلاثين ألّفَ ثمانية وأربعين كتاباً ما بين مؤلّف كبير ورسالة أكثرها بالعربية وقليل منها بالفارسية، وينطوي معظمها تحت عباءة ثلاثة علوم فلسفية: المنطق والطبيعيات والإلهيات.

أمّا الكتب، فهي: المشارع والمطارحات، والتلويحات، وحكمة الإشراق، واللمحات، والألواح العمادية، وهياكل النور، والمقاومات، والرمز الموحي، والمبدأ والمعاد، وبستان القلوب، وطوارق الأنوار، والتنقيحات في الأصول، وكلمة التصوف، والبارقات الإلهية، والنفحات السماوية، ولوا اقح الأنوار، والرقم القدسيّ، واعتقاد الحكماء، وكتاب الصبر.

وأمّا الرسائل، فهي: رسالة العشق، ورحالة طفولية، والمعراج، ويوميات جماعة صوفية، وعقل، وأجنحة جبريل، ورسالة لكَ، ولغة موران، وغربة الغربية، وصفير سيمرغ (طائر خرافي)، والطير، وتفسير آيات من كتاب الله وخبر عن رسول الله،

وغاية المبتدى، والتسبيحات ودعوات الكواكب، وأوعية متفرقة، والسراج الوهاج، والدعوة الشمسية، والواردات الإلهية، ومكاتبات إلى الملوك والمشايخ، والسيمياء، والألواح، وتسبيحات العقول والنفوس والعناصر، والهياكل، وشرح الإشارات، وكشف الغطا لإخوان الصفا، و..

* * *

سهر الورد (24)

ليست الماء، ولا الكهرباء، ولا الحصار، ولا حلب شرق وحلب غرب، ولا القذائف، ولا رصاص القنّاصة، ولا تفجير الأوابد الأثرية، ولا الأنفاق التي كادت تصير مدينة تحت مدينة، ولا.. ولا.. ما يجعل مَن بقيَ في حلب، طوعاً أو كرهاً، يفوق أيوّب في الابتلاء، وسواه ممّن ضُرب بهم المثل في الصبر واحتمال الشدائد واختبار السماء.

ليست تلك وحدها، بل مضافاً إليها هذه الشبكة السلحفاة، العجوز، التي ما إنْ تكاد تطلّ برأسها من صندوقها الصخريّ، حتى تعود إلى سباتها فيه، ولا أدري كيف أرسلُ إجابتي عن استبيان الصحيفة التي أكتب فيها حول مستقبل الرواية العربية بعد الربيع العربيّ.

عبثاً كنت أنتظر أن تطلّ السلحفاة برأسها. مضى أكثر الليل ولم تفعل غير مرتين، وعندما كانت تفعل كانت تبدو خائرة القوى، ولا حول لها لتدفع برأسها أكثر إلى الأمام، ولذلك أطفأت الكومبيوتر، ومضيت إلى الكتاب الذي حمله يحيى إليّ من كتب الشيخ شهاب الدين، "قصّة الغربة الغربية".

قصة! أجل هي كذلك، ولا أعرف إذا كان المختصون في الأدب سمعوا بها، وهي تالية لقصة حيّ بن يقظان المأخوذة عن قصة سلامان وأبسال كما يقول الشيخ شهاب الدين في مقدمته لها. قصة رمزية سعى الشيخ من خلالها إلى تصوير المفارقة بين عالمين، مادي وروحي، أرضيّ وسماويّ. عالم طاعن في زيفه وآخر مترف بنورانيته.

في يومٍ انطلقتُ من حجرة النساء، وتخلّصتُ من بعض قيود ولفائف الأطفال،

كان ذلك في ليلةٍ انجابَ فيها الغسق الشُهيّ الشكل، مستطيراً عن قبّة الفلك اللازورديّ، وتبددتِ الظلمة التي هي أختُ العدم، على أطراف العالم السفلي، وبعد أن أمسيتُ في غاية القنوط من هجمات النوم، أخذتُ شمعاً في يدي متضجراً، وقصدتُ إلى..

كنتُ أعيد قراءة القصة من جديد، ثم وجدتُ نفسي أتوقف عن القراءة، وأكتب رسالة إلى لجين: تعالي. ولم أكد ألمس إشارة الإرسال، حتى كانت أمامي كما لو أنها كانت تقف وراء الباب وتنتظر بفارغ الصبر أن تصلها رسالتي المعتادة ما إنْ أفرغ من شيء، قراءة أو كتابة: مقالي الأسبوعيّ في الصحيفة أو بحث لمجلة أو إجابة عن أسئلة لأحد محرري الصفحات الثقافية، أو فصل جديد في رواية جديدة.

- وبعدين مع هالنت؟

- لا بعد ولا قبل، مثله مثل الماء والكهرباء و...

وأضفتُ وأنا أرغم ابتسامة وليدة على عدم الجهر بنفسها:

- تحبّينه؟

وكنت أعني إبراهيم لأنني كنت أعرف السبب الذي يدعوها إلى الضجر من حال الشبكة، بل الشيء الوحيد الذي يدعوها إلى الضجر. وعلى نحو لم أتوقعه، ولم يخطر لي يوماً أن أسمعه قالت:

- اي.

لجين التي ما يزال خداها يتوردان خجلاً عندما تسمع كلمة حبّ، التي كلما سألتها عن حالهما، إبراهيم وهي، اكتفت بكلمتين لا تزيد عليهما حرفاً: "الحمد للربّ"، تقول "اي"، وبسرعة، لكأنها كانت تريد أن تصرخ بملء صوتها: أكثر من الحبّ.

- عرفتِ؟

أعادني سؤال لجين المباغت إلى الأرض بعد أن كنتُ صرت خارج المكان الذي أنتمي إليه، أطير بين طيف ذكرى وأخرى عن لجين منذ كانت طفلة لا تشبه سواها من البنات ممّن هنّ في مثل عمرها، حتى دخولها إلى الجامعة، فحصولها على الشهادة، فـ..

- ورد.

- أي حبيبتي.

- إبراهيم قال لي..

- دقيقة.

قاطعتُ لجين فور أن أضاء هاتفي الجوال باسم يحيى الذي لم يمهلني لأردّ التحية له، وأسرع إلى القول:

- افتحي على قناة...

نهر الذهب (7)

وفي العشرين من تشرين الثاني سنة ألفين وست عشرة أعلن الجيش السوريّ وحلفاؤه عن البدء بعمليات عسكرية لتحرير الأحياء الشرقية لحلب بعد سيطرة المجموعات المسلحة عليها لما يزيد على أربع سنوات.

وحسب قناة.... في الخامس والعشرين من الشهر نفسه تمكّن الجيش وحلفاؤه من استعادة مساكن هنانو الأكثر تحصيناً من المجموعات الإرهابية، وفي السادس والعشرين من تحرير عدة أحياء: الحيدرية، والصاخور، وجبل بدرو، والهلّك، وبستان الباشا، وفي السابع والعشرين من استكمال عزل القسم الشمالي من الأحياء الشرقية ومن استعادة أكثر من ثلاثة عشر حياً خلال اثنتين وسبعين ساعة. وفي الرابع من كانون الأول تمّ تأمين مطار حلب الدولي بعد السيطرة على مناطق السكن الشبابي، ومساكن البحوث، وحي كرم الطراب، وكرم الميسر، وجورة عواد، وكرم الجزماتي، وغيرها من الأحياء وسط انهيار كبير في معنويات الإرهابيين. وفي الحادي عشر من الشهر نفسه تمت السيطرة على حي الصالحين، وباب المقام، وحي الدعدع، ثم حيّ الشيخ سعيد معقل جبهة النصرة، فالفردوس، والجلوم، وبستان القصر، والكلاسة. وفي الثاني والعشرين تمّ الإعلان عن تحرير كامل المدينة.

وحسب قناة... الرئيس الروسي بوتين، أحد أبرز حلفاء دمشق، يصفُ سيطرة الدولة على كامل مدينة حلب بالخطوة المهمة، ويقول في اتصال هاتفي مع نظيره السوريّ إنّ هدف روسيا في سورية بات التركيز على مساعي السلام.

مراسل التلفزيون السوريّ في حلب: أكثر من ألف ومئتين من المسلحين سلّم نفسه وسلاحه إلى الجيش، وعشرة آلاف وخمسمئة تم إجلاؤهم إلى ريف حلب الغربي ومحافظة إدلب، منهم ثلاثة آلاف مسلّح.

ووفقاً لتقرير لمنظمة اليونسكو أنّ العمليات القتالية طوال السنوات الأربع التي مضت تسببت في دمار شديد لمدينة حلب القديمة، إحدى أبرز مواقع التراث العالمي حسب المنظمة نفسها، وأنّ نحو ثلاثة وثلاثين ألف وخمسمئة مبنى لحقت بها أضرار جسيمة، وبعض منها تم تدميره كاملاً.

وحسب رسالة ماجستير في الهندسة المعمارية في جامعة حلب عنوانها "إعادة إعمار المباني التاريخية في مدينة حلب القديمة" أنّ الحرب دمّرت ما يزيد على سبعين بالمئة من المركز التاريخي لمدينة حلب.

كأنّ الريح (24)

باستثناءات قليلة لم أسمع أبي يوماً يدلي برأي له حول أيّ شيء يعني أحداً من الأسرة. وإنْ فعل، فلا يزيد ذلك على بضع كلمات غالباً ما تكون سؤالاً وليست رأياً. ولطالما كنتُ أسأل نفسي عمّا إذا كان سبب ذلك يقينه بأنّ في دم أمّي بعضاً من دم الملكة ضيفة خاتون التي حكمت حلب لنحو ست سنوات، وتصرّفت خلال تلك السنوات كما يتصرف السلاطين الحكماء، أو بأنّه يفعل ذلك، تسليمه شؤون البيت والأسرة لها، وفاء منه للدم الذي نزف من رأسها عندما هوى جدّي بأخمص مسدسه عليه، وكادت بسبب تمسكها به تدفع حياتها ثمناً لذلك.

فجأة، وعلى نحو لم يكن لأحد أن يتوقعه، وقبل أن تمتد أيدينا إلى طعام العشاء التي كانت ياسمين أعدته من حواضر البيت، التفتَ أبي نحو ياسر، وسأله عمّا إذا كان سيقيم عرسه في صالة أم سيكتفي بحفل صغير في منزل الأسرة، وفجأة أيضاً، وقبل أن يجيب ياسر عن السؤال، تدخلت أمي قائلة على عجَل: صالة.

وأضافت بينما كنا جميعاً ننوء تحت وطأة مفاجأتين معاً، سؤال أبي غير المعتاد، فانتفاضتها هي:

- وما بصير ينقص شي.

أمّا المفاجأة الثالثة، فكانت من صاحب الأولى، أبي، الذي، على غير عادته أيضاً، أسرع إلى القول بينما ثمة دمع يلغط بنفسه في عينيه:

- الله يرحمك يا بنتي بتقل ما عليك تراب.

وأكملت أمي المفاجآت إلى أربع عندما أسرعت إلى التأكيد: عرس يعني عرس، ولا ينقص شيء. وأضافت بسرعة أيضاً وهي تشير إلى طاولة الطعام أمامنا: يا الله.

كان أبي يأكل ولا يأكل، وبين شبهة لقمة وأخرى يتناول رشفة من كأس الماء أمامه، ويحبس دمعاً ما يزال يلغط بنفسه في عينيه، وكنتُ أرقبه من طرف عيني بينما رأسي يضجّ بألف سؤال وسؤال عن الرجل الذي أكتشف الآن ما لم أكن أعرف عنه من قبل. أجل الآن بعد ما مضى من عمري كلّه، ومن ذلك أنّه يخفي وراء صمته المعهود قارّة من الأحاسيس الأكثر صفاء وعذوبة من ماء فرات، وأنّ أمّي كانت على حقّ عندما أحبّته، وكادت تضحي بحياتها من أجله. صحيح أنه لا يتكلم كثيراً، ولكن تحت جلده تتلاطم أمواج من الكلمات والعبارات التي تنوب ملامح وجهه بالنطق بدلاً منها، والتي لو تجسدت على هيئة رجل لأغرمت به نساء الكون جميعاً.

أجل الآن بعد ما مضى من عمري كلّه أشعر بأنّ السماء لم تكرمني بأمّ تكاد تكون استثناء من النساء فحسب، بل، أيضاً، بأب يكاد يكون استثناء من الرجال، كان عليّ، علينا جميعاً، أن ننتبه إلى ملامح وجهه بدلاً من أن ننتظر كلمة منه أو عبارة في هذا الشأن أو ذاك.

- سأستأذن يمنى.

مفاجأة خامسة نزعَ ياسر صاعقها بيننا، فتحجرت الأيدي الممدودة إلى الطعام في أمكنتها التي كانت فيها، وأتبعتها أمي بسادسة عندما استدارت برأسها جهة أبي، وقالت إنّ علينا جميعاً أن ننفذ مجمل ما يراه أبي بشأن العرس. وأضافت وهي ترمقه بعينين ممتلئتين بالبِشر:

- عبدو تاج راسنا جميعاً.

في أيام قليلة كان كلّ شيء تمام التمام بتعبير ياسر لأمي التي ما إن انتهى من حديثه

عن التفاصيل، حتى التفتت إليّ قائلة:

- وأنت يا مو يحيى؟

قلتُ مبتسماً:

- مصرّة؟

فضحك يعرب، وفتح كفيه كأنه يقرأ من كتاب، وقال:

- أصرَّ يُصرُّ إلحاحاً.

- مسيحية.

دفعتُ بالكلمة بسرعة مترقّباً وقْعها عليها، وبسرعة أيضاً كانت عيناي تمضيان من وجه إلى وجه، تلاحقان الوقْع نفسه، وقبل أن تبلغا وجه أبي سألتْ أمّي:

- اشّو يعني؟

- يعني مسيحية.

قلتُ، وظلّت عيناي تتفحصان الوجوه التي ازدادت وجوماً، ولا سيما وجه أبي الذي، على غير عادته أيضاً، كان أوّل مَن تحرّر من صمته، فسأل:

- وأهلها؟

ثمّ تبعته أمّي، فسألت أيضاً قبل أن أجيب عن السؤال:

- بتحبّك؟

كان سؤال أبي أكثر رأفة بي، أمّا سؤالها فقد عصف بي لأنني كنتُ أتوقّع نقيضه، أي ما يعنيني أنا لا ما يعني ورد، ولأنّه أعادني إلى حكايتها مع أسرتها، ولا سيما جدّي الذي كانت تحدّت إرادته لأنّها أحبّت أبي، ومن دون أن تنتظر إجابتي قالت:

- الله يفرّحني فيك يا مو.

ومن دون أن ينتظر أبي إجابتي أيضاً قال:

- الله يسمع منك يا مجيدة.

إشراق (25)

ما عَلى مَن باحَ مِن حَرَجٍ

مِثل ما بي لَيسَ يَنكتِمُ
زَعَموا أَنَّني أُحِبّكُم
وَغَرامي فَوقَ ما زَعَموا

* * *

سهر الورد (25)

تغصّ ساحة سعد الله الجابري بالناس الذين تدافعوا إليها في وقت مبكر من الصباح. استجبتُ لرغبة لجين، بل لإلحاحها في الذهاب إلى الساحة التي طالما كنت أهرب منها بسبب المسيرات التي كنا نُرغمُ على المشاركة فيها ونحن طلاب. ولم نكد، لجين وأنا، نبلغ منتصفها، حتى تسمّرت قدماي في المكان. رأيت الدكتور زيد وهو على رأس مجموعة من الرجال والنساء يمسك بعضهم بأيدي بعضهم الآخر وهم يرقصون الدبكة، ثمّ زيد نفسه وهو يلوح بسبحة بيمينه، ثمّ يُفلت يده من يد المرأة التي إلى جواره، ثمّ يُهرع إلى أمام كاميرا التلفزيون، ويغتصب الميكروفون من يد المذيع، ويقول بصوت عال، وبلغة فصحى تخفي لهجة مدينته:

- نحن هنا منذ الصباح الباكر لنعبر عن فرحتنا بتحرير حلب من الإرهاب والإرهابيين، ولنشكر الجيش العربي السوريّ، ولنعاهد السيد الرئيس على المضي خلف قيادته..

لا أدري كيف أطلقتُ قدميّ من قيدهما إلى الأرض، ثمّ مضيت نحوه، وأتخمتُ فمي بما استطعت من اللعاب، ولولا صوت لجين الذي علا فجأة يستنجد بي، لكنت ملأت وجهه به.

هُرعتُ إلى لُجين أساعدها في النهوض عن الأرض بعد أن دفع أحدهم بها إليها وهو يزحم كلّ مَن يراه في طريقه ليبلغ موضع الدبكة، ثمّ أمسكتُ بيدها حتى بلغنا باب الحديقة العامة، وارتميت بجسدي المنهك على أول مقعد، ثم أخذت أساعد لجين في تنظيف معطفها وبنطالها من التراب والماء اللذين علقا بهما، بينما روحي منهكة

بإحساسين متناقضين: الرثاء لزيد الذي قفز من خندق المصفقين للثورة إلى خندق المصفقين للنظام فور أن تمّ الإعلان عن تحرير حلب، والحزن على البلد التي يحكم بعضَ مؤسساتها وإداراتها زيد وأمثاله من الانتهازيين، والمتلونين، والمتمايلين مع الريح حيث تميل.

في الظهيرة على الغداء تناولتُ بضع لقيمات على عجل، وتذرّعت بألم في بطني، ثمّ مضيتُ إلى غرفتي أستنجد "غوغل" في أن يسعفني بكلّ ما يحفظ من نصوص وردت فيها كلمة انتهازيّ، وعلى الرغم من أنّ الشبكة كانت تشبه طيراً مقصوص الجناحين، فإنّ "غوغل" في خاتمة المطاف وضع أمامي ما يزيد على عشرة آلاف إحالة، ما بين كتاب ومجلة وصحيفة وموقع إلكتروني، وكان أوّلها نظرية ميكافيللي: "الغاية تبرر الوسيلة"، فما ورد في إنجيل متى عن الفرّيسين: "**ويلٌ لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة، وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكلّ نجاسة**"، فقول لشكسبير: "**أعطاكَ الله وجهاً، فلماذا تصنع لنفسك وجهاً آخر؟**"، فحكاية الحجاج مع الوليد بن عبد الملك عندما دعاه الأخير ليشاركه شرب النبيذ، أي قول الحجاج له: "يا أمير المؤمنين، الحلالُ ما حللتَ"، فحكاية أبي موسى الأشعري الذي كان يصلي مع عليّ ويأكل مع معاوية، وعندما يشتد القتال يقف على التلّ ويقول: "**الصلاة مع عليّ أتمّ والطعام مع معاوية أدسم، والوقوف على التلّ أسلم**"، وقبل ما سبق كلّه حكاية رجل عاش بين الجاهلية والإسلام يدعى شبث بن ربعيّ الذي كان مطلع حياته مؤذناً لسجاح التي ادعت النبوة، ثمّ أسلم، ثم شارك في قتل عثمان، ثم كان في صفّ عليّ، وعندما أرسله عليّ إلى معاوية ورأى قوته التحق بالخوارج، فـ...

قرعٌ خفيف على باب الغرفة، فصوت لجين الذي كنت أحتاج لأغادر جحيم تاريخ متخم بأمثال زيد، ثمّ أستعيد حكاية الشيخ شهاب الدين الذي كان من الممكن أن يراوغ حاسديه، فيكسب محبة الملك الظاهر له، ويظلّ مقرّباً منه، ثمّ ينجو بنفسه، ولكنه لم يفعل، بل آثر الموت على أن يجيب عن سؤال الفقهاء بما يوافق حدود معرفتهم بالنصّ.

- اي لجين حبيبتي.

- الدكتور يحيى على الهاتف.

انتبهت إلى أنّ هاتفي الجوّال مطفأ بسبب نفاد طاقته، فنهضت على عجل، وأسرعت إلى غرفة الجلوس.

إشراق (26)

أَقول لِجارَتي وَالدَّمعُ جارٍ
وَلي عَزم الرَّحيل إِلى الدِيارِ
ذَريني أَن أَسيرَوَلا تَنوحي
فَإِنَ الشّهبَ أَشرَفها السّواري
فَسَيرُ السائرينَ إِلى نَجاحٍ
وَحالُ المترَفينَ إِلى بوارِ
وَ أَنّي في الظَّلامِ رَأَيت ضوءاً
كَأَنّ اللَيل بُدّلَ بِالنَهارِ
فيأتيني مِنَ الصَّنعاءِ برْقٌ
فَذكّرني بِهِ قُرب الدّيارِ
وَكَيفَ يَكونُ للدّيدانِ طَعمٌ
وَفَوقَ الفَرقَدينِ عَرفتُ داري

المؤيّد بالملكوت (13)

وكان سببُ قتل السهرورديّ.. أنّه لمّا خرج من الروم إلى الشام دخل إلى حلب وصاحبها يومئذ الملك الظاهربن صلاح الدين.. وكان محبّاً للشيخ يعتقدُ فيه، وكان جمعٌ من العلماء بحلب يجتمعون به ويسمعون كلامه. وكان يصرّح في البحوث بعقائد الحكماء ويناضل عنها ويسفّه رأي مخالفيها ويناظرهم فيقطعهم في المجالس. و انضمّ إلى ذلك ما كان يُظهره من العجائب بقوّة روح القدس، فاجتمعت

كلمتهم على تكفيره وقتله حسداً ونسبوا إليه العظائم وقالوا: إنه ادّعى النبوة وهو بريء من ذلك.. وحضوا السلطان على قتله، فامتنع، فكاتبوا والده صلاح الدين، وقالوا في جملة ما قالوا: إنْ بقيَ أفسدَ الدين. فكتب إليه يأمره بقتله. ثم كتب إليه مرة أخرى يأمره بذلك، ويتهدده بأخذ حلب إن لم يقتله. ورأيتُ الناس مختلفين في قتله، فزعم بعضهم أنه سُجن ومُنع الطعام، وبعضهم منعَ نفسه حتى مات، وبعضهم خُنق بوتر، وبعضهم قُتل بسيف. وقيل إنه حُطّ من القلعة وأُحرق..

قال فخر الدين المارديني: ولمّا فارقنا من المشرق وتوجّه إلى حلب وناظر بها الفقهاء ولم يجاره أحدٌ، فكثُر تشنيعهم عليه، فاستحضره الملك الظاهر واستحضر الأكابر والفقهاء والفضلاء المتفننة ليسمع ما يجري بينهم من المباحث، فتكلّم معهم بكلام كثير وظهر أن له فضلاً عظيماً وعلماً باهراً وحسُنَ موقعه عند الظاهر وقرّبه وصار مكيناً عنده مختصاً به، فازداد تشنيع أولئك عليه، وعملوا محاضر بكفره وسيّروها إلى دمشق إلى صلاح الدين وقالوا: إنْ بقي أفسدَ اعتقاد الملك، وإن أُطلق أفسدَ أيّ ناحية سلك، وزادوا عليه أشياء كثيرة، فبعث إلى الظاهر بخطّ القاضي الفاضل أن هذا شهاب الدين لا بدّ من قتله، ولا سبيل إلى إطلاقه بوجهٍ. ولما تحقق شهاب الدين الحال اختار أن يُترك في بيت ويُمنع الطعام والشراب إلى أن يلقى الله عزّوجلّ. ففُعل به ذلك ونقِمَ الظاهر عليهم بعد ذلك.. والذي وجدتُ أنّ عمره نحو ست وثلاثين، وكان عمره في بعض الروايات ثماني وثلاثين سنة، وقيل خمسين. نزهة الأرواح وروضة الأفراح. الشهرورزي

كأنّ الريح (25)

لم تصدّق سهر الورد عندما اتصلت بها، كما لم أكن صدّقت، ما نقله الدكتور تمّام، نائب رئيس الجامعة، إليّ عن إعفائه من مهمته وتسمية الدكتور مفيد تاج الدين مكانه.

أمضيتُ ليلة بتمامها وأنا أتقلّب على جمر لا يترمّد مهما امتد به الوقت، أتساءل عن القوى التي تقف وراء ما كان يحدث في البلد، وما يزال يحدث على الرغم من مضي

سنوات من الحرب. القوى النابذة للكفاءات والباحثة عن الولاءات، الطاردة لأصحاب الضمير والرافعة من شأن موتى الضمير، التي تنهي مهمة الدكتور تمام قبل انتهاء المدة التي نصّ عليها مرسوم تسميته نائباً لرئيس الجامعة، وتستصدر مرسوماً آخر يسمّي الدكتور مفيد بدلاً منه. القوى التي تقصي الدكتور تمام مكافأة له لاختياره البقاء في الجامعة بعد أن غادرها الكثيرون مع بدء الحرب، والتي تقف وراء تعيين الدكتور مفيد مكانه فور عودته إلى البلد بعد أن أمضى سنوات الحرب في الجامعة الحكومية للدولة التي كانت من أكبر الدول الداعمة لعشرات المجموعات المسلحة بالمال والعتاد والإعلام.

الدكتور تمام الذي قاوم مجمل التهديدات باغتياله وتصفيته جسدياً إذا لم يعلن انشقاقه عن النظام، ولم يتغيب يوماً واحداً عن مكتبه على الرغم من سقوط العشرات من القذائف قريباً منه، ومن اختراق بعض شظاياها للمكتب، والدكتور مفيد الذي ما إنْ بدأت الأحداث جهرها بنفسها، حتى كان هناك في تلك الدولة، وحتى بدأ، على نحو مفاجئ كما قالت سهر الورد، يصدر الرواية تلو الرواية التي لم يكن له أيّ صلة بها من قبل، والتي كانت تحتفي بها مواقع المعارضة، ثمّ يعود إلى البلد معززاً مكرّماً بتعيينه نائباً لرئيس الجامعة، والسماء وحدها تعرف وتلك القوى معها تعرف ما الذي ينتظره من مناصب ومسؤوليات ومواقع أعلى بعد ذلك. أيّ مفارقة هذه! أيّ مفارقة!

يكاد رأسي ينفجر. أكاد ألعنُ الساعة التي اخترتُ فيها البقاء في البلد ورفض العروض التي تدفقت عليّ من عشرات الجامعات، لا لأنني أطمع بمنصب، كما كنت طوال حياتي، بل حزناً على الدكتور تمام الذي عاجلني بالقول وهو يلمح في حديثنا الهاتفيّ إحساسي الفادح بالقهر:

- فرق كبير يا دكتور يحيى بين أن تكون مختلفاً مع فاسدين وحيتان في البلد وأن تكون مختلفاً مع البلد نفسه. لستُ نادماً، ولن أكون.

ثمّ أنهى المحادثة بقوله:

- أخبرتك بالقرار لتنتبه إلى نفسك، فما يزال كتّاب التقارير يطاردونك، وآخر تلك

التقارير ما وصلني هذا الصباح من رئيس الجامعة للتحقيق بشأنه، وموضوعه علاقتك مع الدكتورة ورد.

ورد أشرف من آبائهم وأمهاتهم، أطهر من زوجاتهم وبناتهم. ورد لم تؤذ نملة في حياتها. لم يكن لها شأن في الحياة غير العلم والمعرفة والكتابة، بينما هم لا يعرف أحد كيف حصلوا على شهاداتهم، وكيف اشتروا تلك البيوت الفارهة في حلب الجديدة والشهباء، فتلك السيارات الحديثة التي يملكون. ورد الكافرة بتعبير بعضهم أكثر صلة بالسماء من كثير منهم ومن شيوخهم وبطاركتهم الذين كان بعض منهم وراء المناصب التي بلغوها على غفلة من الحقّ والحقيقة، وأصدق منهم في قول الحقّ وهم بين يدي هذا المسؤول أو ذاك.

ورد الطهر والصدق والنقاء والصفاء. الوجه الواحد الذي يأبى الأقنعة، والصوت الواحد الذي لا يتعدّد بتعدّد الحال والمقام، والموقف الواحد الذي لا يتلّون كما تفعل الحرباء. ورد ليست حبيبتي فحسب، بل، أيضاً، يقيني بأنّ الحياة لو لم يكن فيها سواها لكان لها المعنى الحقّ للحياة مهما يكن من أمر ما يثخنها من الذئاب والضباع في هيئات بشر. ورد الحياة التي تمنح الحياة شمسها الساطعة أبداً مهما ادلهم فيها من الظلمات، العطر الذي ينشر فوحه الاستثناء مهما يكن من أمر ما يحدق بالعالم حوله من روائح العفن والعطن والقيح. ورد صورة الشيخ شهاب الدين الذي ينازعها مكانة في القلب، الذي لم يكن يعنيه من الحياة سوى الدار التي لا يطؤها القوم الجاهلون بتعبيره، والذي كتبَ في هياكل النور قائلاً إنّ النفس الناطقة أحديةٌ، صمدية، لا تقسمها الأوهام. تلك هي ورد المفردة كما لو أنّ السماء أبدعتها من صلصال لا نظير له في الخلق، لا في الأرض ولا في السماء.

إشراق (27)

هبّتْ عليّ صبَا تكادُ تقولُ
إنّي إليكَ من الحبيب رسولُ
صرّفتُ أخباري، فقلتُ أحبّها
في قصّتي طولٌ و أنتَ ملولُ

* * *

سهر الورد (26)

أيّ امرأة هذه أمّ يحيى! المجيدة كما تليق باسمها. استقبلتنا، أمي ولجين وأنا، عند مدخل الصالة، ومضت بنا إلى الصدر منها وهي تردّد: "ميت السلامة، زارتنا البركة".

انتبهتُ إلى الصليب الذهبي والسلسال الذي كان يحيى أهداه لي، فمددتُ يدي إليهما لأنزعهما من عنقي وأضعهما في حقيبتي ريثما نعود إلى البيت بعد انتهاء العرس، فأطفئ بذلك فضول العيون التي كانت تستطيل نحوي، فجهتنا جميعاً، أمي ولجين وأنا، وقبل أن أفعل اقتربت خالتي أم يحيى مني، ودعتني إلى الرقص مع ياسمين، ثم بينما هي تضاحك بأصابعها الصليب والسلسال همست في أذني معاندة ضجيج الأصوات في الصالة:

_ أبوس روحك وكل شي فيك.

كنت، وأنا أرقص محاولة تقليد ياسمين، أستعيد ما كان يحيى حكاه لي عن أمّه في غير لقاء، وما قرأته ممّا يعنيها من غير بوح له في هذه الرواية، وأردد لنفسي: أي امرأة هذه المجيدة! امرأة تعرف ما تريد، وتفعل ما تريد. امرأة بألف امرأة، بألف رجل، بألفٍ ممّن يحملون، يحملن، شهادات عالية على ظهورهم، ظهورهنّ. امرأة تستجيب لنداء قلبها، روحها، إرادتها هي لا إرادات سواها، على الرغم من أنها لم تطأ بقدميها مدرسة سوى للاطمئنان على دراسة أبنائها وبناتها. امرأة تؤمن بالله بفطرتها أكثر من إيمان كثير من رجال الدين. ولا أدري كيف أفلتُ من يدي ياسمين، وهرعتُ إليها، وأمسكتُ بيديها،

ثم احتضنتها، وقبلتها من جبينها، فأخذتني إلى صدرها وهي تستعيد عبارتها نفسها:

- أبوس روحك وكل شي فيك.

كان علينا العودة إلى البيت في أقصر وقت ممكن من أجل ميخائيل الذي تركناه وحيداً مع أبي، وقبل أن يمضي المساء بعيداً عن بدايته لأنّ المدينة لم تعتد بعد الحياة الطبيعية التي كانت قبل بدء الحرب. كانت ما تزال تحت وطأة الخوف من مجهول يتربص بها بين وقت وآخر، ولا سيما أنّ المسلحين الذين غادروها إلى الغرب منها ظلوا يمطرونها بالقذائف التي كانت تتساقط خبط عشواء في غير مكان، الجميلية وشارع النيل والحمدانية.

لم نكد نغادر الدرج المؤدي إلى الشارع، حتى بدأت القذائف تنهمر غير بعيد من مبنى الصالة، وحتى هرعنا عائدين إلى المبنى نحتمي به، وسرعان ما رأينا خالتي أم يحيى وهي تمضي نحونا لكأنها كانت في انتظارنا، ثمّ تقودنا إلى الداخل، ثمّ ما إنْ ترى الصالة طاعنة في الصمت والخوف والقلق والترقب، حتى تصرخ بغضب قائلة:

- ليش سكتوا؟

ثمّ تطلق هنهونة:

أويها عريسنا يا واحد،

أويها عروسنا يا تنين.

أويها اللي ما بتزلغط،

أويها تعدم العينتين.

ثمّ تتبعها بزغرودة، ثمّ تمسك عروس ياسر من يدها، وتمضي بها إلى منتصف الصالة، وتطلب إلى الفتاة المسؤولة عن جهاز التسجيل الذي كانت الأغاني تنطلق منه أن ترفع صوته إلى آخره، فيصدح الجهاز بالغناء، وتعود الصالة تصخب بالحياة كأنْ ما مِن قذائف كانت تتساقط قريباً منها.

كنتُ أرقب المشهد، وأغوص أكثر في تفاصيل الحكايات التي كان يحيى حكى لي عن أمه، بينما رأسي يزدحم بغير سؤال: كيف لقلب هذه المرأة الأمّ أن يبتكر هذا الفرح كلّه ولم يمض على رحيل يمنى سوى بضعة أشهر؟ أهي تحاول إخماد لظى الحزن بما تستطيع من فرح تستمطره من حيث لا يدري سواها مكاناً للغيم الذي يتنزل منه؟ أتقاوم وحشة غياب يمنى، قهرها وكسرها للروح، بأُنس الضحكة المسروقة على غفلة

من ملك الموت؟ أكان أبوها، وربّما أمها، يحدس بما ستكون عليه فاختار لها اسم مجيدة، الذي من معانيه الرفعة والسموّ والكمال؟ كم امرأة في مجتمعنا تشبه هذه المرأة؟

- ماما ورد، صار لازم نمشي.

نهضتُ مستجيبة لنداء أمّي بينما رأسي ما يزال يصخب بغير سؤال وسؤال، وبينما خالتي أم يحيى تحتضنني مودعة وهي تستعيد عبارتها التي لن أنسى: أبوس روحك وكل شي فيك.

إشراق (28)

ولولاكمُ ما عرفنا الهوى

ولولا الهوى ما عرفناكمُ

كأنّ الريح (26)

ولولا أمسكتُ نفسي، لكنت فتحت في رأس حسان ألف جرح. قلت:

- تفضل، الله معك.

ولم يكد يغادر المكتب، حتى هتفت لياسمين أعلمها بزيارته لي، وطلبه بأن أتوسط له في عودتها إليه، واستعداده لتلبية أيّ شرط تريده، بما في ذلك تسجيل البيت باسمها، ومهما يكن من أمر المقدّم والمؤخر اللذين تراهما، وكمّ المصاغ الذي تشاء، وقبل أن أتمّ حكاية ما دار من حديث بيننا سألتني:

- عندك؟

- لا، غادر قبل دقائق، ليش؟

- أستطيع أن أزورك الآن؟

وما إنْ أغلقتُ الهاتف، حتى دخلت ورد، فحكيت لها ما حدث، ولم تدعني هي أيضاً أكمل الحكاية، بل أسرعتْ إلى سؤالي عمّا قلتُ له، فقلت:

- طردتُه.

- قبل أن تأخذ رأي ياسمين؟

- مثلكِ لم تدعني أكمل لها الحديث، وقالت إنها ستأتي بعد قليل.

- أخطأتَ، أقصد تسرّعت.

ثمّ، وهي تلمح العقدة التي نبتت بين عيني فجأة، أضافتْ مرغمةً ابتسامة على الحياة بين شفتيها:

- محروم من القهوة.

قلتُ ضاحكاً:

- قهوة المكتب أم قهوة البيت؟

- الاثنتان.

- لم أحكِ لكِ كلّ شيء عن حسّان، وقبل ذلك عن أبيه، ولو حكيت، لما قلتِ لي أخطأت أو تسرّعت. أبوه اعتُقل لأيّام قليلة بسبب ثبوت دعمه بالمال لإحدى المجموعات المسلحة، ثمّ أفرج عنه بعد دفعه مبلغاً كبيراً لرئيس الجهاز الذي اعتقله، ثمّ هرب إلى تركيا، وهرّبَ حسّان له أرصدته في سورية إلى هناك عن طريق أحد البنوك في بيروت.

وقبل أن أكمل:

- ومع ذلك محروم من القهوة.

- ورد.

- روح ورد.

- أتعتقدين أنّ ياسمين يمكن أن توافق!

- حقّها، وهي مسؤولة عن ذلك.

- وبعد ما سمعتِ أيضاً؟

- وأكثر منه إذا كان هناك أكثر. ليس يحيى من يصادر على أخته رأيها.

- أريد قهوة.

- أيّ قهوة؟

نهضتُ مسرعاً نحو باب المكتب، لأغلقه، فأعرّفها إلى قهوة لم تعرف من قبل، وما إنْ بلغتُ الباب، حتى كانت ياسمين في مواجهتي، وحتى نهضت ورد من وراء مكتبها،

وهُرعت نحوها، واحتضنتها، ثمّ التفتتْ إليّ ضاحكة بروح طفلة وهي تقول:

- أطيب فنجان قهوة لأحلى ياسمين.

وكما لم تدعني ياسمين أكمل لها الحديث بيني وبين حسان، لم تدعني أعيد حكايته أيضاً، بل أسرعت إلى التعبير عن خوفها من أن تكون حركة حسان هذه ما وراءها، ومن ذلك وضعها بين فكّي خيارين لا ثالث لهما في حال رفضها: أخذ الطفلين من حضانتها بدعوى أنها غير متفرغة لهما بل للدوام في الجامعة، أو قطعه الطريق عليها إذا ما كان ثمّة أحد، الآن أو لاحقاً، تفكّر في الارتباط به.

- افترضي ذلك.

قلتُ لها، وأنا أرقب ضجيج القلق في عينيها.

- حتى لو وضع وزني ذهباً.

ثمّ وهي ترغم نفسها على عدم البكاء:

- نذل، وسيضايقني في الجامعة.

- لا تخافي، سأعرف كيف أحميك.

* * *

سهر الورد (27)

كما اعتدتُ كتبتُ رسالة إلى لجين: تعالي.

لم أستطع النوم، ساعات وأنا أحاول ولكنه لم يرأف بي، لم يمنحني طرفاً من أصبعه لأمسك بيده، فيقودني إلى ظلال شجره المشتهى. كنتُ أدفع، ما استطعت، عن رأسي وجه يحيى وهو سيقرأ دعوة جامعة "نورمال سوبيريير" الفرنسية لي للعمل فيها بصفة أستاذة زائرة للدراسات العليا لمدة عام. كيف سيكون ردّ فعله عندما سيعرف أنني لست مترددة في قبول الدعوة لأنني بلغت درجة اليأس من إعادة الاعتبار لي، من إنصافي من الظلم والأذى الذي ألحقهما بي حفنة من الحاقدين والحاسدين والأقزام علماً وقيماً، الذين لا يرعون عن ممارسة فعل القتل بالمعنى الحقيقي إذا عجزوا عن

تحقيق ذلك بالمعنى المجازي.

ها هي ذي أربع سنوات وتزيد هنا في هذا المركز الخراب وما مِن أمل في عودتي إلى الكلية لأمارس وظيفتي التي تضمنها قرار تعييني بعد عودتي من الإيفاد، عضواً في الهيئة التدريسية. أربع سنوات وأنا مرمية في مركز للموتى لا للبحوث والدراسات، ولولا يحيى الذي قلب حياتي رأساً على عقب، الذي منحها معنى جديداً وساحراً، لكنت غادرت البلد منذ اليوم الأول الذي صدر فيه قرار نقلي إليه.

كنت أؤمل أن تكون هذه الحرب درساً لنا لنعيد التفكير في غير شأن ممّا كان سبباً في تصدّع الكثير من المؤسسات، بل في خرابها، ولا سيما التربية والتعليم العالي اللذان هما الأساس في بناء الإنسان. الإنسان الذي لو أحسنت هاتان المؤسستان بناءه لما كانت هذه الحرب، ولما تفصد المجتمع عن هذا القيح كله، ولما ازداد الفساد توحشاً بدلاً من أن يتصاغر. كيف للبلد أن يستعيد عافيته ولمّا يزل كثير من القرارات محكوماً بألف شيء سوى الكفاءة والنزاهة والضمير الحيّ؟ أيّ أمل إذا كان أحدهم لم يستطع الحصول على الشهادة الثانوية إلا بعد تقدمه لامتحاناتها ثلاث مرات، وعندما حصل عليها، ولا أحد سواه يعرف كيف حدث ذلك، لم تؤهله درجاته للتسجيل في أيّ فرع من فروع الجامعة، ثمّ حصل على شهادة من جامعة بيروت العربية، ولا أحد سواه أيضاً يعرف كيف حدث ذلك، ثمّ تمّ تعيينه حاكماً بأمره في وزارة لا تمت إلى شهادته بأيّ صلة، ولا يعرف شيئاً من أيّ شأن من شؤونها؟ وزير دفعة واحدة، كما غير وزير في غير وزارة، وليس رئيس قسم، أو مدير إدارة، أو.. بل وزير، أجل وزير.

لا أمل. أخطأ سعد الله ونوس عندما قال إننا محكومون بالأمل. وأخطأ الطغرائي الأصفهاني قبله عندما قال: ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل! وأصاب القائل إنّ خيبات الأمل غالباً ما تكون أكثر من ضربات الألم. أجل أصاب، ولاسيما إذا كان يقصد واقعاً مثل واقعنا الذي نعيش، عالماً مثل عالمنا الذي يزداد استلاباً وقهراً لمثلي ومثل يحيى، وربما كثير من الآخرين سوانا، وإمعاناً في قتل كلّ مَن لم يرتض لنفسه صفة المسبّح بحمد الباطل والزيف والقبح في هيئة امرأة مُتخمٌ وجهها بالأصباغ.

فرصة قد لا تتكرر. للفرنسي فرنسيس بيكون قوله: "الرجل الحكيم يصنع من

الفرص أكثر ممّا يجد"، فكيف إنْ وجد؟ كيف إن جاءته الفرصة تمشي مختالة بنفسها على قدميها إليه؟ فرصة لأصفع من خلالها وجوه أولئك الذين لوثوا سجلي الوظيفي بالتقارير التي ما من كلمة واحدة فيها ابنة الحقيقة، بل محض كذب وتلفيق وافتئات وافتراء، لأقول لهم: هذه جامعة لا يحلم أكثركم بدانة بشحم القول الكذب والفعل الجعجعة بلا طحين بصفة مراسل فيها، فكيف بصفة أستاذ محاضر في الدراسات العليا؟

- خير ورد؟

فتحتُ جهاز الكومبيوتر، فبريدي الإلكتروني، وقلتُ للجين أن تقرأ كتاب الجامعة إليّ، ولم تكد تفعل، حتى أسرعتْ إلى سؤالي:

- يعني؟

- ما رأيكِ؟

- وماما، وبابا، وأنا، وميخائيل؟

ولم تكد تلفظ اسم ميخائيل، حتى قلتُ:

- فرصة لمعالجة ميخائيل.

أعترف بأنّني لم أكن أقصد العبارة، بل وجدت في اسم ميخائيل فرصة لأقنع نفسي بضرورة عدم التردد في اتخاذ قرار بالموافقة على دعوة الجامعة، أو لأدفعها، وأدفع أبي وأمي، إلى عدم التردد أيضاً.

- والدكتور يحيى.

- فرصة أيضاً لنتزوج من دون التعقيدات التي تعرفين هنا.

ولأنها لم تقلْ شيئاً، بل اكتفتْ بالتحديق في وجهي كأنها تنتظر أن أنزع عنه قناعاً لم تره من قبل، بل لم يكن من شأني يوماً، قلتُ:

- فرصتان...

ولم تدعني أكمل، وعلى نحو لم أتوقعه لكأنّها ليست لجين التي أعرف، نهضتْ، ثمّ مضتْ نحو باب الغرفة، وهي تقول:

- تصبحين على خير.

كأنّ الريح (27)

المحبّة من لوازم المعرفة، وإن كانت المعرفة قليلة. وكلُّ معرفة توجبُ محبّةً وإن كانت قليلة. فإذا كملتِ النفس بها فذلك نورعلى نور، والمحبوب مَن يكون لنفسه فطنة وحدس قوي ينال دون تعب عظيم ما لا ينال غيره، والرجل لا يصير أهلاً إلا بالمعارف والمكاشفات العظيمة.

قرأتُ عبارات الشيخ شهاب الدين في كتابه "كلمات الصوفية" غير مرة، ثمّ ما إنْ وضعتُ الكتاب جانب السرير لأحاول النوم، حتى أضاءت الغرفة بنور ليس من مصباح فيها.

الشيخ شهاب الدين بثوبه الذي رأيت، وسهر الورد، آخر مرة، فالنور، وهو يقترب مني، يزداد خيلاء بنفسه، فالشيخ يجلس على طرف السرير، ثمّ يضع راحته على جبيني، ثمّ يرفعها عنه، ويقول:

- المحبّة من لوازم المعرفة، ولكن ما مِن لازم يصحّ أن يكون كذلك إنْ لم يكن محمولاً على ضرورة، وهذه الضرورة هي المرأة، فإنْ عرفتَ المرأة سلكتَ في طريق المعرفة.

لم أكن قرأت في مجمل ما كُتب عن سيرة الشيخ ما يشير إلى تعلّق قلبه يوماً بامرأة على الرغم من أنّ ديوانه، بنسخه المختلفة، يحفل بنصوص متفاوتة في عدد أبياتها تشير إلى ذلك، بل تؤكده، بل تفصح عن غير جوى اكتوى قلبه به. قلت:

- فما الذي منعك من الضرورة يا شهاب الدين؟

فضحك الشيخ حتى كاد صوته يخترق سكون الليل، ثمّ استعاد هدأته، ثمّ قال:

- **صورُ المرآة مظهرُها المرآة، وصورُ الخيال مظهرُها التخيّل.**

- قرأتُ هذا في حكمة الإشراق.

- فلا تبحثن عن الصور في المرايا.

ثمّ نهض من طرف السرير، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ثمّ قعد على الأرض، وأطرق رأسه فيها قليلاً، ثمّ أنهضه نحوي، وأضاف:

- المرايا تعكس الهيئة، ولكنها لا تنفذ إلى الجوهر. الهيئة متحولة بفعل الزمن، لكن

الجوهر غالباً ما يكون ثابتاً.

- أتعني...

ولم يدعني أكمل السؤال، بل تابع يقول:

- سهر الورد بضعة من روح النور، فما أنت فاعل؟

- ورد؟

- أجل.

- كنت أقدّر بأنها ستعتذر، ولكنها لم تفعل.

- والآن؟

- اختارتْ وانتهى الأمر، وليس لي من حقّ لأمنعها.

- ستمنع نفسها.

وعلى الرغم من أنني لم أسمع من الشيخ يوماً قولاً لا يعنيه، بل كلمة واحدة لا يعنيها، فإنني لم أكلّف روحي عناء التفكير فيما قال، لأنني كنتُ أقنعتُ نفسي بضرورة التسليم بالخيار الذي اتخذته ورد، ولا سيما بعد أن أرتني صورة التأشيرة التي أرسلتها السفارة الفرنسية في بيروت لها على بريدها الإلكتروني، ولاسيما أكثر أنّها كانت تستعجل مغادرة المكتب كما لو أنّها تريد الخلاص من ماضٍ كان شديد الوطء على حياتها، ماضٍ عمره نحو أربع سنوات، منذ الساعة التي التقينا فيها في مكتب مدير المركز حتى تلك اللحظة التي دفعتُ إليها بورقة براءة الذمّة بعد أن وضعتُ عليها توقيعي في الحقل الخاص بالقسم الذي كنتُ، وما أزال، رئيساً صورياً له.

- يحيى.

- نعم يا شيخ شهاب.

- نمْ قرير العين.

ولم يكد يمسح على جبيني، حتى عادت الغرفة تغرق في بحر الظلمة الذي كانت فيه.

* * *

سهر الورد (28)

تمّ كلّ شيء بسرعة لم أكن أتوقّعها، إجراءات السفر والتأشيرة وبطاقة الطائرة، كما لم أكن أتوقّع ما سبق ذلك، أن يستقبل يحي حديثي له عن دعوة الجامعة بكثير من البرود، وأن يكتفي بالقول: خيارُكِ، وليس لي من حقّ لأمنعكِ. وعندما سألته: وأنت؟ قال: يحيا يحيى في حلب.

كأنّ الريح (28)

حلبُ الرحمُ والمنتهى، السرّ والجهر. حلبُ مجيدة، المرأة والأم التي تكاد تكون استثناء ممّا خلق الله من النساء. عبد الرحمن، الرجل والأب الذي لم يكن يتردد في البكاء كلّما وجد نفسه عاجزاً عن شراء ما نحتاج ونحن صغار. ياسر الذي غادر مقاعد الدراسة ليعمل عند خالي، فيكفينا وطأة الفقر والحاجة والجوع. ياسمين التي عاندت القهر مثل حلب ثم نهضت إلى الحياة من جديد. يمنى الهاجعة في سرير الأبدية وهي تبتسم في عليائها بينما تقول لي: خفّف الوطء ما أظنّ أديم هذه الأرض.. يعرب الذي يسخر من الحياة بالحياة.

حلب عاصمة مملكة آرمان في الألف الثالثة قبل الميلاد، فعاصمة مملكة يمحاض في الألف الثانية، فمركز عبادة الإله حدد في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. حلب مار سمعان العمودي، ومار مارون، وأبو عبيدة بن الجراح وسيف الدولة وضيفة خاتون...

حلب العرب والأكراد والأرمن والشركس و.. القلعة، والأسوار، والأبواب. المدارس الدينية والجوامع والكنائس والبيمارستانات والخانات والحمامات والزوايا والتكايا.

حلب الشهباء البيضاء الخصيبة، الما يزيد على ألف كتاب عن تاريخها. المتنبي وأبو فراس وكشاجم والصنوبري وابن خالويه والفارابي وابن نباتة الخطيب وأبو المحاسن بن شدّاد وابن النحاس وابن العديم وابن الشحنة وخير الدين الأسدي و..

حلب علوة وخولة وماريانا المراش و..

حلب السهروردي والنسيمي والخصيبي.

حلب المتحف في الهواء الطلق، القدود والموشحات ورقص السماح. اسق العطاش وملكتم فؤادي وهيّمتني و.. المكتبة المارونية والمكتبة الأحمدية والمكتبة الوقفية و..

يحيا يحيى في حلب مهما يكن من أمر المحمومين بشهوات حلْبها حتى يكاد ضرعاها ييبسان، مِن أمر مَن أطعمتهم من جوع وآمنتهم من خوف فبصقوا في الصحن الذي أطعمتهم منه وأبدلوا بأمنها خوفاً، من أمر الريح الصرصر التي افترست الآلاف من أبنائها، وجعلت معظم أوابدها محض سطور فحسب في كتب التاريخ، من أمر القذائف التي ما تزال تنهمر عليها، من..

- يحيى.

سمعتُ صوت شهاب الدين، فقوله أيضاً:

- نمْ قرير العين.

- وأنت لِمَ لمْ تنمْ؟

- **نِعمَ الرفيقان الجوع والسهر، يُضعفان أعداء الله من القوى بعقْرِ مطاياها، ويعِدان المستشرف لِسنَا الإشراق.**

- قرأتُ لكَ هذا.

رأيت الشيخ وسمعته، ثمّ رأيته وهو يدسّ جسده الناحل إلى جواري في السرير، وسمعتُ صوت أنفاسه وهو مستغرق في النوم، ثمّ صوته وهو ينهض مع آذان الفجر، ويقرأ القرآن، ثمّ يدنو مني، ويمسح على جبيني ويقول:

- تقدّسَ عبدٌ أحبَّ حلب.

نهر الذهب (8)

بلدةٌ قدرها خطير، وذكْرها في كل زمان يطير، خطّابها من الملوك كثير، ومحلّها من التقديس أثير، فكم هاجت من كفاح، وسُلّتْ عليها من بِيض الصفاح، لها قلعةٌ شهيرةُ الامتناع، بائنةُ الارتفاع، معدومةُ الشبه والنظيرفي القلاع، تنزهتْ حصانةً أن تُرام أو تُستطاع، قاعدةٌ كبيرة، ومائدةٌ من الأرض مستديرة منحوتةُ الأرجاء، موضوعةٌ على نسبة اعتدالٍ واستواء، فسبحانَ مَن أحكمَ تقديرها وتدبيرها،

و أبدعَ كيف شاءَ تصويرها وتدويرها، عتيقةٌ في الأزل، حديثةٌ وانْ لم تزل، قد طاولتِ الأيام والأعوام، وشيّعتِ الخواص والعوام.. هذه حلبُ. كم أدخلتْ مِن ملوكها في خبركان، ونسختْ ظرف الزمان بالمكان، أنّثَ اسمُها فتحلّت بزينة الغوان، ودانت بالغدر فيمَن خان..

هيهات! هيهات! سيهرمُ شبابها، ويَعدمُ خطّابها ويُسرعُ فيها بعدَ حينٍ خرابُها، وتتطرّقُ جنباتُ الحوادث إليها، حتى يرثَ الله الأرضَ ومَن عليها. ابن جُبير

إشراق (29)

وَمِمّا شَجاني أَنَّها يَومَ وَدّعت
تَوَلَّت وَماءُ العَينِ في العَينِ حائرُ
فَلَمّا أَعادَت مِن بَعيدٍ بِنَظرَةٍ
إِلَيّ اِلتفاتاً أَسلَمَته المَحاجرُ

* * *

سهر الورد (29)

السيارة تنهبُ طريق خناصر أثريا على الرغم من ضيقه ووعورته وتخمته بالحفر والمطبّات، أطلبُ إلى السائق أن يتمهل ليس خوفاً من الموت الذي رأيتُه بنفسي فاغراً شدقيه عشرات المرات في حلب، بل لأنّ ثمة متسعاً من الوقت لوصولنا إلى دمشق حيث ينتظرني سائق آخر لأمضي معه إلى بيروت.

أرقب الطريق المنبسط على جانبيّ السيارة، سفوح شاسعة جرداء، وبقايا دبابات وعربات عسكرية محترقة، وقرى طينية خاوية على عروشها، وآثار دماء لعشرات من أهالي حلب الذين قضوا بغير حادث على الطريق، وثمة صور يزاحم بعضهُا بعضَها الآخر في رأسي: أمّي وأبي ولجين وميخائيل وهم يلوحون لي بأيديهم أمام مدخل البيت. إبراهيم وأنا أقول له مودعة قبل أن يلتحق بالجيش: حماك يسوع. يحيى منذ أول لقاء

لي به في المركز، فغير صبوة جسدين في بيته، فغير لقاء في غير مكان بصحبته مع الشيخ شهاب الدين. الشيخ نفسه وهو يقول ليحيى ولي: مباركان في الملكوت. أم يحيى، وياسمين، و.. وبين صورة وأخرى يتعالى في داخلي نداء بأن أطلب من السائق أن يتوقف، ثمّ ينعطف بالسيارة، فنعود إلى حلب، فآخر بأن أطلب إليه أن يزيد من سرعة السيارة، فأخلّف ورائي فحيح أفاع وعواء ذئاب ونعيب غربان تداعت عليّ فور عودتي من الإيفاد.

ينظر السائق إليّ في المرآة أمامه، يطلب مني أن أعطيه بطاقتي الشخصية لأننا على مشارف حاجز أثريا. أفتحُ حقيبتي وأخرجُ البطاقة منها، ثمّ أعيد إغلاقها وأعيد البطاقة إليها، ثم أعيد فتحها و.. ثمّ أعيد إغلاقها.. ثمّ.... ثم تحين مني نظرة خاطفة إلى البطاقة، فتتجمد يدي عند حافّة الحقيبة. لم أكد ألمح صورتي على البطاقة، حتى رأيت أخرى مكانها، صورة يحيى، ثمّ ثالثة، صورة الشيخ شهاب الدين، ثمّ رابعة..

دوارٌ يعصف برأسي. ينقر شاب بثياب عسكرية على زجاج النافذة إلى يساري. أنظرُ إليه، ثمّ إلى السائق، ثمّ إلى البطاقة ملاحقة شريط الصور التي كانت تزداد عدداً، بينما السائق يتابع تحديقه في وجهي عبر المرآة، وأصابع الشاب تتابع تمتمتها على النافذة. وما يكاد الشاب ينتهي من التدقيق في بطاقتي ويعيدها إليّ، حتى أطلب إلى السائق أن يستدير بمقود السيّارة بزاوية مئة وثمانين درجة، وثمة صوت يضجّ بدمه في دمي:

الآن، أشتاقُ:

يحيى كما تشتاق أرضٌ مرهقةٌ باليباس مطراً يعيد إليها الحياة.

السهرورديّ كما تشتاق طفلةٌ قبلةً من أبيها تعني لها الحياة.

حلبَ كما تشتاق حلبُ الحياة.

الآن، أشتاق أصابع يحيى، رعشَ صوته وهو يطلق عصافير شغفه من أقفاصها بعد كلّ ملحمة للخصب كنّا نسرقها على غفلةٍ من الموت الذي كان ينشبُ مخالبه في جسد حلب. يحيى الذي ظلّ، طوال ما مضى من الحرب، يرفض مغادرة حلب وكانت لازمته لي:

- يحيا يحيى في حلب.

إشراق (30)

أَبـــداً تَحــنُّ إِلَيكُـــمُ الأَرواحُ ... وَوِصالُكُم رَيحانُهـا والـــراحُ
وَقُلوبُ أَهلِ وِدادكم تَشتاقُكُم ... وَإِلى لَذيـذ لقـائكــم تَرتــاحُ
وَا رَحمــةً للعاشِـقينَ تَكلّفــوا ... سرّ المَحبّةِ وَالهَـوى فَضّــاحُ
بِالسرّ إِن باحوا تُباحُ دِماؤُهم ... وكَذا دِمـاءُ العاشِقين تُبــاحُ
وَإِذا هُم كَتَموا تَحَـدّث عَنهُـم ... عِندَ الوشاةِ المَدمعُ السَفّـاحُ
أحبابنـا مـاذا الَّذي أَفسـدتـمُ ... بِجفائكم غَيرالفَسادِ صَـلاحُ
خَفضَ الجَناح لَكُم وَلَيسَ عَلَيكُم ... لِلصَبّ في خَفضِ الجَناح جُنـاحُ
وَبَدَت شَواهِدُ للسّقـامِ عَلَيهِـمُ ... فيهـا لِمُشكــل أمّهــم إيضــاحُ
فإلـى لقـاكم نَفسـهُ مُـرتـاحــةٌ ... وإِلى رضاكُـم طَرفــه طَمّــاحُ
عودوا بنورالوصل من غَسَق الدُّجى ... فَالهَجرُلَيلٌ وَالوصالُ صَباحُ
صافـاهُمُ فَصَفـوا لَهُ فَقُلـوبهم ... في نُورِها المِشكــاةُ وَالمِصباحُ
وَتَمَتّعوا فَالوَقتُ طابَ لِقُربِـكُم ... راقَ الشّــراب وَرَقّتِ الأَقـداحُ
يا صاحِ لَيسَ عَلى المُحبّ مَلامَـةٌ ... إِن لاحَ في أُفق الوِصالِ صَباحُ
لا ذَنبَ لِلعُشّاقِ إِن غَلَبَ الهَوى ... كِتمانَهُم فَنما الغَرامُ فَباحـوا
سَمَحـوا بِأَنفُسِهم وَما بَخِلوا بِها ... لَمّا دَروا أَنّ السَّمـــاح رَبــاحُ
وَدعاهُـمُ داعي الحَقـائقِ دَعــوة ... فَغَدوا بِها مُستَأنسين وَراحـوا
رَكِبـوا عَلى سنَنِ الوَفـا وَدُموعهُم ... بَحرٌوَشِدّة شَـــوقهم مَـلّاحُ
وَاللَّهِ ما طَلَبـوا الوُقـــوفَ بِبابِهِ ... حَتّى دعـوا فَأَتـاهُم المفتـــاحُ
لا يَطــربونَ بِغَيرِذِكـرحَبيبِهِـم ... أَبَـداً فَكُــلُّ زَمــانِهِم أَفـراحُ
حَضَـروا وَقَد غابَت شَواهِدُ ذاتِهِم ... فَتَهَتّكوا لَمّــــا رَأوه وَصـاحوا
أَفنـاهُم عَنهُـم وَقَـد كشفَت لَهُم ... حجبُ البقـا فَتَلاشتِ الأَرواحُ
فَتَشَبّهوا إِن لَم تَكُونـوا مِثلَهُم ... إِنَّ التَّشَـبّه بِالكِــرامِ فَـلاحُ
قُـمْ يا نَديم إِلى المُــدامِ فَهاتِها ... في كَأسِهـا قَد دارَتِ الأَقــداحُ
مِـن كَـــرمِ أَكـرام بدنّ ديـانَةٍ ... لا خَمـــرة قد داسَهـا الفَلّاحُ

هيَ خَمرةُ الحُبِّ القَديمِ وَمُنتَهى غَرض النَديم فَنعم ذاكَ الراحُ
وَكَذاكَ نوحٌ في السَّفينة أَسكَرَت وَلَهُ بِذَلِكَ رَنَّةً وَنِياحُ
وَصَبَت إِلى مَلَكوتِهِ الأَرواحُ وَإِلى لِقاءِ سِواه ما يَرتاحُ
وَكَأَنَّما أَجسامهُم وَقُلوبهُم في ضَوئِها المِشكاةُ وَالمِصباحُ
مَن باحَ بَينَهُم بِذِكرِ حَبيبِهِ دَمهُ حَلالٌ لِلسّيوفِ مُباحُ

نضـال الصـــالح

- مواليد: حلب / سورية 1957م.
- درس في حلب، وحصل على الشهادة الثانوية (الفرع العلمي) 1975، ثمّ تخرج في دار المعلمين (الصف الخاص) سنة 1976 بتقدير ممتاز.
- حصل عام 1983، بالدراسة الحرة، على الشهادة الثانوية (الفرع الأدبي)، وعام 1987 على الإجازة في اللغة العربية، بتقدير جيد. وعام 1988 على شهادة دبلوم الدراسات العليا بتقدير ممتاز، وعام 1992 على شهادة الماجستير بتقدير امتياز، وعام 2000 على الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، النقد الأدبي الحديث، من جامعة حلب، بتقدير امتياز.
- مدرّس النقد الأدبيّ الحديث في جامعة حلب (2001 – 2014) وفي جامعة دمشق (2015 - 2022).
- أستاذ زائر في جامعة نزوى (سلطنة عُمان) سنة 2007.
- مدير معهد تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في سورية (2014 – 2015).
- المشرف العام على مناهج اللغة العربية وتطويرها في وزارة التربية في سورية.
- عضو اتحاد الكتّاب العرب منذ عام 1991.
- عضو مجلس اتحاد الكتّاب العرب (2010 - 2019)
- رئيس اتحاد الكتاب العرب في سورية (2015 – 2019).
- مساعد الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب (2015 – 2018).
- نائب الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب (2019 – 2021).
- حصل على أكثر من عشرين جائزة في القصة، والرواية، والنقد الأدبيّ، داخل سورية، وعلى المستوى العربي، ومنها جائزة القدس التي يمنحها الاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب.
- شارك في عشرات المؤتمرات العلمية والندوات والمهرجانات الثقافية داخل سورية وخارجها.
- حصل على عدد من شهادات التقدير من مؤسسات ثقافية عربية مختلفة، منها: الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، ومنتدى الفكر العربي بعمّان، ودائرة الثقافة والإعلام

بالشارقة.

- أسهم في تحرير عدد من الموسوعات العربية حول الإبداع السردي في سورية.
- عضو لجان تحكيم في عدد من المسابقات الأدبية في سورية والوطن العربي.
- كتب مقدّمات عدد من الأعمال الإبداعية العربية والأجنبية المترجمة.
- كتب عن إبداعه ونقده عددٌ من النقّاد العرب.
- أشرف على عدد من رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه في جامعة حلب.
- عضو لجان تحكيم عشرات رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه في الجامعات السورية.

صدرت له المؤلفات الآتية:

1. "**مكابدات يقظان البوصيري**". قصص. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1989.
2. "**الأفعال الناقصة**". قصص. اتحاد الكتّاب العرب، دمشق 1990.
3. "**جمر الموتى**". رواية. دار سعاد الصباح، الكويت 1992.
4. "**طائر الجهات المخاتلة**". قصص. مركز الإنماء الحضاري، حلب 1998.
5. "**تحوّلات الرّمل: الحكائي والجمالي في القصّة القصيرة في قطر**". نقد. دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة 1999.
6. "**المغامرة الثانية: دراسات في الرواية العربية**". اتحاد الكتّاب العرب، دمشق 2000.
7. "**النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة**".

ط1. اتحاد الكتّاب العرب، دمشق 2001.

ط2. دار العالمية، الجزائر 2010.

8. "**معراج النصّ: دراسات في السرد الروائي**". دار البلد، دمشق 2003.
9. "**نشيد الزيتون: قضية الأرض في الرواية الفلسطينية**".

ط1. اتحاد الكتّاب العرب، دمشق 2004.

ط2. دار الأسوار، عكا 2019.

10. "**القصّة القصيرة في سورية: قصّ التسعينيات**". اتحاد الكتّاب العرب، دمشق 2005.
11. "**قبل فوات الحكاية: دراسات في القصة العربية القصيرة**".

ط1. اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2014.

ط2. دار التنوير، الجزائر 2022.

12. "**درب حلب**: نصوص". دار الشرق، دمشق 2015.

13. "**توت شامي**: نصوص". دار الشرق، دمشق 2016.

14. "**في فمي ماء: حوارات وشهادات**". دار سوريانا، دمشق 2016.

15. "**الأعمال النقدية**، المجلد الأول. في السرد الروائي". الهيئة السورية العامة للكتاب، دمشق 2017.

16. "**قدّك الميّاس**: نصوص". دار الحافظ، دمشق 2017.

17. "**لو ذات سوار: مقالات في الثقافة**". دار كنانة، دمشق 2018.

18. "**محمد حموية، اسم منسي في القصة السورية**". دار كنانة، دمشق 2018.

19. "**سبع قصص من كتاب الحرب**". قصص. دار كنانة، دمشق 2018.

20. "**من التخييل إلى التأويل: دراسات في الرواية العربية ونقدها**".

ط1. دار نون، حلب 2007.

ط2. دار نينوى، دمشق 2018.

ط3. دار خطوط وظلال، عمّان 2022.

21. "**حكاية القارئ: دراسات في القصة السورية**". دار التكوين، دمشق 2018.

22. "**الأعمال الأدبية. المجلد الأول**". دار المفكّر، دمشق 2019.

23. "**كما يليق بضوء: شهادات وكلمات**". دار المفكّر، دمشق 2019.

24. "**حبس الدم**". رواية. دار دلمون الجديدة، دمشق 2019.

25. "**خبر عاجل**". رواية. دار الآن ناشرون وموزعون، عمّان 2020.

26. "**النصّ الثالث: دراسات في نقد النقد**". دار سويد، دمشق 2021.

تحرير وتقديم:

1. "**أديب نحوي: الأعمال الكاملة**. مجلدان". وزارة الثقافة، دمشق 2003.

2. "**سميحة خريس: قراءات في التجربة الروائية**". أمانة عمّان الكبرى، عمّان 2005.

بالإضافة إلى اثني عشر كتاباً بالاشتراك مع آخرين.